الحقائق النورانية

في كمال العقيدة الإنسانية

على ضوء معتقدات الشيخ الأوحد

الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي (أعلى الله مقامه)

تأليف

الشيخ إبراهيم القديم

مراجعة وتقديم

الشيخ عبد المنعم العمران

الشيخ حسين المطوع

الحقائق النورانية
في
كمال العقيدة الإنسانية

الحقائق النورانية
في
كمال العقيدة الإنسانية

على ضوء معتقدات الشيخ الأوحد
الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي (أعلى الله مقامه)

تأليف
الشيخ إبراهيم القديم

مراجعة وتقديم
الشيخ عبدالمنعم العمران
الشيخ حسين المطوع

موقع الأوحد
Awhad.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى صاحب الفؤاد المنير الذي قابلني ببشاشة وابتسامة عميقة حينما ذكرتُ له انتهائي من تأليف هذا الكتاب

إلى سيدي ومولاي جناب الحكيم الإلهي والفقيه الرباني آية الله العظمى المولى الميرزا عبد الله نجل المعظم خادم الشريعة الميرزا عبد الرسول الحائري الإحقاقي

أُهدي هذا الكتاب

تقديم الشيخ عبدالمنعم العمران

بسم الله الرحمن الرحيم

اللَّهُمَّ صلِّ على محمَّد وآل محمَّد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله الطيبين الطاهرين.

وبعد.. خلق اللهُ تعالى الإنسانَ ـ في هذا الكون الفسيح ـ مُحاطاً بمخلوقات كثيرة قد سخرها تعالى لخدمة الإنسان، يتبادل معها المصالح، ويستفيد منها في مختلف مجالات حياته، وبذلك وجدت ـ من الطرفين ـ عوامل كثيرة مؤثرة في الطرفين، يتأثر بها في عقيدته وفكره وعمله، ويؤثر فيها، وفي تطورها.

يتأثر بالزمان والمكان، ويتفاعل بهما، ويتجاذبه مجتمعه، ويتصارع مع نفسه، ويتسابق معها، وتوجب عليه علاقاته وصداقاته أموراً قد لا يريدها، وفي أكثر الحالات لا ينظر إلى الأشياء إلا من خلالها.

إلا أن الفكر والعقيدة ـ بمفهومها العام ـ تعد من أهم الركائز الأساسية في كل شيء إن لم تكن أهمها، حيث إن الإنسان لا يفعل شيئاً إلا بعد شعوره به، والتفكر فيه، والاعتقاد بضرورته، ولذلك تكون العقيدة هي المحرك

والدافع لانتقال الشيء ـ عند الإنسان ـ إلى مرتبة الفعل والظهور، وبسببها يُقَدم شيئاً على شيء، ويترك شيئاً ويقْدم على شيء آخر. يحب ويكره، يقرب ويبعد، ولها في كل شيء ارتباط. وقد قال في ذلك أمير المؤمنين عليه السلام: «يا كميل، ما من حركة إلا وأنت محتاج فيها إلى معرفة».

ولذلك اهتم الإنسان بالعقيدة اهتماماً بليغاً، وأعطاها المكانة العالية، وسخر لها طاقاته ووجوده، وشغل فكره في التأمل فيها، وحل إشكالاتها وتناقضاتها، ونتج بسبب ذلك مدارس فكرية ساهمت في طرح كثير من النظريات المؤثرة، والأفكار المبتكرة، وكثرت الدروس والأبحاث والكتب التي تحاول تنقيح العقيدة، وتعميق أفكارها، مما ساهم في رقيه تارة، وتأخره تارة أُخرى.

وقد ظهر ـ وبشكل واضح وصريح ـ للباحثين والمهتمين وجود اختلافات شديدة بين هذه المدارس، في نظريات مهمة، ومسائل يمكن القول بأن الأقوال فيها من باب اجتماع النقيضين، وارتفاع الضدين.

ومما يزيد الأمر تعقيداً، والإنسان حيرة ودهشة، هو أن هذه الاختلافات لم تكن بين مدرسة وأخرى وحسب، بل قد وقعت بين علماء المدرسة الواحدة، والمنهج الواحد، بل العالم الواحد، حيث يتنقل من رأي إلى آخر، ومن مدرسة إلى مدرسة أخرى.

ويمكن القول بأن علة ذلك أمور كثيرة، ومؤثرات خفية، تتفاوت من شخص لآخر، شدة وضعفاً، ومن أهمها ما يلي:

١ـ التأثر بمصادر العقيدة، فقد وقع الاختلاف في مصادرها كماً وكيفاً. فمنهم من قال بأن المصدر هو النقل، ومنهم من يقول بالعقل فقط، ومنهم من ذهب إلى أنه الشهود، ومنهم من قال بالجميع.

٢ـ عدم التمييز بين ما ينتجه العقل، وبين ما ينتجه النكراء، وبين ما تنتجه القوى الواهمة، فمن ذلك نرى تعدد الأقوال في المسألة العقلية الواحدة؛ لأن العقل إما قد غيب عنه، وإما لوقوع العقل تحت تأثير أحد العوامل المؤثرة في عملية الإدراك، كتأثره بالعامل النفسي.

٣ـ التأثر بالعوامل النفسية الحاصلة للإنسان، حيث إنه يتأثر بالحب والبغض، والفرح والخوف، والحسد، والاكتئاب، والتعصب، وغيرها من الحالات النفسية الإيجابية والسلبية، والتي لا يخلو منها الإنسان في كل أوقات حياته، وساعات فكره.

٤ـ التأثر بالعوامل الاجتماعية؛ لأن طبيعة الإنسان العيش مع غيره من أبناء جنسه، تفرض عليه التعامل مع مجتمعه، وأخذ مميزاته، وتبني ثقافته وقيمه، فيختلف فكره وميولاته باختلاف مجتمعه؛ لأن العقل الجمعي يتحكم في توجهات الفرد وسلوكه، وبذلك يتشكل فكره وقناعاته، وينحاز إلى ما انحاز إليه بشكل عام، أو يقول بما قال به مجتمعه العلمي، أو يذهب إلى ما ذهبت إليه مدرسته الفكرية.

كل هذه العوامل وغيرها يقع فكر وعقيدة الإنسان تحت تأثيرها بشكل أو بآخر، فتختلف النتائج، وتتناقض النظريات، وتتبدل الآراء. وعلى قدر

تحرره من سلطة هذه العوامل يتحرر فكره، وتتطور نتائجه، وتتشيد معالم عقيدته، ويثبت عليها.

ومن هنا برزت أهمية مدرسة الشيخ الأوحد أحمد بن زين الدين الأحسائي (أعلى الله مقامه)، والتي أُسست على نظام معرفي عميق، وابتكرت قواعد سهلت الوصول للمعلومات، وكشف المجهولات، وسيطرت من خلالها على العوامل المؤثرة على صحة النتائج، بل وتطويعها لصالحها، ومن أهم مميزاتها:

١ـ تنوع مصادر المعرفة، وهي: القرآن الكريم، والسنة المشرفة، والعقل، والكتاب التكويني.

٢ـ وضع منهج متكامل يربط بين كل مصدر من مصادر المعرفة وبين المصدر الآخر، ويرتب العلاقة بينها، ويحدد دور كل واحد منها، ومجال تخصصه.

٣ـ تنوع أدوات ومشاعر المعرفة، حيث إن لكل معلوم أداة خاصة به، وتتناسب معه، ولا يدرك بغيرها، مثل اللون لا يدرك إلا بالبصر. وكليات هذه الأدوات هي: الفؤاد، والعقل، والنفس.

٤ـ التأكيد على الجانب المعرفي والجانب العملي، وبيان شدة ترابطهما؛ لأن المعرفة تنمو بالعمل الصالح، والعمل الصالح يقوى ويشتد بالمعرفة، والتقصير في أحدهما هو في الحقيقة تقصير في الآخر، وإهمال له، ولا يستقيم أحدهما إلا بالآخر.

هذا قبس من بعض مميزات مدرسة الشيخ الأوحد أحمد بن زين الدين الأحسائي (أعلى الله مقامه)، وقد كتب عن فكر هذه المدرسة كتب كثيرة، تناولت أسسها التي تقوم عليها، وأشارت لقوانينها العامة والخاصة التي من خلالها يستكشف الموجودات، وبعض نظرياتها وابتكاراتها، وبينت عقائدها.

ويُعد كتاب سماحة الشيخ إبراهيم القديم (حفظه الله تعالى)، (الحقائق النورانية في كمال العقيدة الإنسانية) ـ الكتاب الذي بين يديك ـ من الكتب التي تساهم على التعرف على بعض أفكار مدرسة الشيخ الأوحد الأحسائي (أعلى الله مقامه)، والذي احتوى بين جوانبه الكثير من الأبحاث العقائدية المهمة للإنسان الباحث عن المعرفة والعقيدة، وقد تميز الكتاب بعدة أمور مهمة، ومنها:

١ـ كتبه بلغة سهلة، وعبارات لطيفة تتناسب مع لغة هذا العصر، حيث إن لكل عصر لغته، وأسلوبه الخاص به.

٢ـ التأكيد على أهمية كمال العقيدة، وبيان حقيقتها، ومدى تفاعلها مع الجانب العملي.

٣ـ التأكيد على أهمية العمل الصالح، والجانب السلوكي، وذكر سماته، وبيان مدخليته في كمال العقيدة، وتأثيره فيها.

٤ـ ربط العقيدة والعمل بالرسول الأعظم ﷺ، وأهل بيته صلوات الله عليهم أجمعين؛ لأن معرفتهم ـ صلوات الله عليهم ـ هي معرفته تعالى، وهي

التي توصل إلى العقيدة الكاملة، وتقوي الارتباط به تعالى، والعمل على وفق رضاه سبحانه وتعالى.

الشيخ عبد المنعم العمران

١٤٣٩/٣/٩هـ

تقديم الشيخ حسين المطوع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه أجمعين محمد وأهل بيته الطيبين الطاهرين، واللعنة الدائمة على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين أمين رب العالمين.

أما بعد؛ فمن حسن توفيقات الله تعالى لي، ومن بركات مولانا سيد الشهداء عليه السلام أني التقيت في كربلاء المعظمة، وبين الحرمين الشريفين، وبجوار القبر المبارك لمرجعنا الراحل المولى المعظم خادم الشريعة الغراء الميرزا عبدالرسول الأحقاقي الحائري، بالأخ العزيز الكريم جناب الشيخ (إبراهيم القديم)، غمره الله بفضله العميم، وأفاض عليه من أنواع النعيم، وكنا قد تباحثنا في بعض الأمور، ثم ذكر لي زاد الله في توفيقاته أنه ألف كتاباً بعنوان (الحقائق النورانية في كمال العقيدة الإنسانية)، وأنه قد عرضه على جناب الموفق المسدد المؤيد (الشيخ عبدالمنعم العمران)، وأن جنابه ـ أيده الله ـ قد كتب عليه مقدمة، وطلب مني بل وأمرني أن أطلع على هذا الكتاب، كما أمره سماحة سيدي ومولاي الحكيم الإلهي والفقيه الرباني المولى المجاهد ميرزا عبدالله الأحقاقي ـ دامت بركاته ـ؛ لحسن ظن سماحته بي، والتي أسأل الله

تعالى أن أكون عند حسن ظنه، فامتثلت الأمر وطالعت الكتاب، فوجدته تأليفاً عالياً جداً، محكم الأساس، مشيد البنيان، ينبئ عن إلمام المؤلف ـ حفظه الله ـ بالكثير من مطالب مدرسة شيخنا الأوحد ـ رضوان الله عليه ـ، كما أن سماحته قد قام بتبسيط عبارات علمائنا؛ ليستفيد منها العوام والخواص.

وإني أرى بنظري القاصر أنه قد وفق كثيراً في طرحه، فأسأل الله تعالى بمحمد وآله الطاهرين أن ينفعنا وإياه وسائر المؤمنين بمثل هذه التأليفات والتصنيفات، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

الشيخ حسين المطوع

١٤٣٩/٥/٢٥ هـ

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه، وأشرف بريته؛ محمد المصطفى، وعترته البررة الأتقياء، حجج الله على الخلق أجمعين، واللعنة الدائمة على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

على الرغم من تباين طبيعة الإله المعبود في معتقدِ الحضارات البشرية على مر العصور؛ إلاّ أن مفهوم الاعتقاد بوجود إله منزه عن الصفات والنقائص الحادثة أمرٌ نابع من فطرتهم البشرية السوية.

ويؤيد ذلك ما وجده علماء الآثار في العديد من الرسومات والمخطوطات القديمة لأقدم الحضارات، وما تشير إليه بعض أراء المتخصصين في علم الأديان من أن الإنسان كان في بداية أمره موحداً، وكان يعبد ربه الحقيقي، وما عبادة غيره من الحجر والنجوم وغيرها إلا انحرافات وقع فيها لاحقاً؛ بسبب بعده عن وحي السماء[1].

فمشاعر العبادة أو الشعور الديني ـ كما يُعَبر عنه بعضهم ـ موجودة لدى

(١) انظر: ثم صار المخ عقلاً ـ د. عمرو شريف: ص٢١٦ـ٢١٨.

عموم بني البشر، وحتى الذين ينكرون هذا الشعور فإنهم يخادعون أنفسهم، فهم متدينون بدرجة ما؛ لأن هذا الأمر يُعدَّ جزء من غرائزهم الفطرية، فقد قال الله ﷻ: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾[١].

وكما أنه وقع التباين في تصورهم حول هذا الإله وطبيعته، كذلك وقع التباين في طبيعة الاتصال به، فمن طقوس الرقص والغناء والأوراد والأذكار الرتيبة التي اخترعها الإنسان من جهل نفسه، حتى أرفع صور الخضوع والخشوع التي دل عليها رُسلُ السماء[٢].

ولو أغضضنا الطرف عن طبيعة الاتصالات الرتيبة التي صنعها البشر من هفوات عقولهم وأحاسيسهم، وسلّطنا النظر على طبيعة الاتصال الإلهي الحق بين الإله المنزه عن كل شيء وبين مخلوقاته، فسنجد أن هذا الأمر محال؛ وذلك لاستحالة المباشرة الذاتية بين القديم والحادث بأي وجهٍ كان[٣].

فكل ما نتصوره من نسب وحيثيات حول الذّات الحق ما هي إلا مخلوقة مثلنا مردودة إلينا، فقد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام، أنه قال: «كلّما ميّزتموه بأوهامكم في أدقّ معانيه مصنوع مثلكم مردود إليكم»[٤]، فهو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[٥].

---

(١) سورة الروم ـ الآية: (٣٠).

(٢) انظر: العرفان ـ شفيق جرادي: ص٥٧.

(٣) انظر: المخازن ـ آية الله الميرزا حسن كوهر: ص٢٤.

(٤) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٦٦ ب٣٧/ صفات خيار العباد وأولياء الله... ص٢٩٣ ح٢٣.

(٥) سورة الشورى ـ الآية: (١١).

ومن هنا اقتضت حكمته ﷻ جعل وسائط له من خلقه، منحهم القدرة في الإيجاد والصدور بإذنه؛ ليكونوا محالاً لمشيئته، ومظهري أسمائه وصفاته وأفعاله[١]، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «الحمد لله الذي تجلّى لخلقه بخلقه»[٢].

وقد تمثل هذا الجعل بالأشرف من مخلوقاته[٣]، وهو النبي الأعظم محمد وآله ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ، فعن محمد بن سنان قال: كنت عند أبي جعفر الثاني عليه السلام، فأجريت اختلاف الشيعة، فقال: «يا محمد إنّ الله تبارك وتعالى لم يزل متفرداً بوحدانيته، ثم خلق محمداً وعلياً وفاطمة فمكثوا ألف دهر، ثم خلق جميع الأشياء فأشهدهم خلقها وأجرى طاعتهم عليها وفوض أمورها إليهم، فهم يحلّون ما يشاؤون ويحرّمون ما يشاؤون، ولن يشاؤوا إلا أن يشاء الله ـ تبارك وتعالى ـ. ثم قال عليه السلام: يا محمد هذه الديانة التي من تقدمها مرق ومن تخلف عنها محق ومن لزمها لحق، خذها إليك يا محمد»[٤].

والضرورة تقتضي كون حملة هذه التعاليم الإلهية، ومحال التجليات الربانية، تميزهم بميزات شؤونية، وبمقامات إلهية نورانية يختلفون فيها عن سائر الموجودات الإمكانية، كجعلهم عليهم السلام لعالم الإمكان علة مادية؛ لأن كل ما في الكون خلق من شعاع أنوارهم وعكوساتها، أو علة فاعلية ـ مجازاً ـ؛ لأنهم محل صدور الخلق عن الفعل، أو علة غائية؛ لأن جميع الموجودات

(١) انظر: علم المحجة ـ آية الله الميرزا محمد حسين المامقاني: ص٥٦.

(٢) نهج البلاغة ـ الشريف الرضي: ص٢٠٠ خطبة رقم (١٠٨).

(٣) انظر: نجاة الهالكين ـ العلامة الشيخ محمد آل أبي خمسين: ص٢٤٨.

(٤) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج١ أبواب التاريخ ب/ بلد النبي صلى الله عليه وآله ووفاته ص٤٤١ ح٥.

خلقت لأجلهم ومرجعها إليهم وحسابها عليهم، أو علة صورية؛ لكونهم أول تعلقات المشيئة، وأول الحوادث[١].

فهم الوسيلة والوصلة إليه ﴿وَابْتَغُوا إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ﴾[٢]، ومعرفته ﷻ لا تتم إلا بمعرفتهم عليهم السلام، وهو مصداق قول أبي عبد الله عليه السلام: «بنا عُرِفَ الله وبنا عُبِد الله، نحن الادلاء على الله، ولولانا ما عُبد الله»[٣].

فلا سبيل لِلترَقّي في مراتب الكمالات الإنسانية إلا بهم وعن طريقهم عليهم السلام، فقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أنا باب حطة من عرفني وعرف حقي فقد عرف ربه»[٤].

وبما أن أوعية الناس مختلفة من حيث القبول والرد والتسليم في معرفتهم عليهم السلام؛ وذلك بسبب اختلاف قابلياتهم واستعدادهم[٥]، كثر القيل والقال في فضائلهم ومقاماتهم النورانية؛ فانقسموا فيهم إلى ثلاثة أقسام:

١ـ قسمٌ غالى في حقهم، قالوا بتفويض الأمور الكونية والتشريعية إليهم على نحو الاستقلال.

٢ـ قسمٌ مفرط، أنكروا فضائلهم ومقاماتهم التي منحهم الله ﷻ أياهُم، وجعلوهم خلائق كسائر البشر.

---

(١) انظر: شرح العرشية ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٤٦٤.

(٢) سورة المائدة ـ الآية: (٣٥).

(٣) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٢٦ ب٥/ جوامع مناقبهم وفضائلهم عليهم السلام ص٢٦٠ ح٣٨.

(٤) مستدرك سفينة البحار ـ الشيخ علي النمازي الشاهرودي: ج٢/ الأخبار في الحطيم ص٣٢٣.

(٥) انظر: نجاة الهالكين ـ الشيخ محمد آل أبي خمسين: ص١٨.

٣ـ قسمٌ استقروا على النمط الأوسط في معرفتهم، وقالوا بكل ما صدر منهم عليهم السلام في النفي والإثبات، ولم يتعدوا غير ذلك، وهو طريق النجاة، وسبيل من رام إلى الكمال صعوداً في مقامات رتبته[١].

ولكثرة ما يرد عليَّ ـ من أخواني المؤمنين الأعزاء ـ في خصوص السؤال عن بيان معرفتهم عليهم السلام بالنورانية، التي هي سر من أسراره عزّ وجلّ، وعلاقتها بالترقي في مقامات ومراتب الكمال الإنسانية، بشكل يفهمه لب العوام، ولا يخرج عن فن أصحاب المقام.

شرعتُ ـ عزيزي القارئ ـ امتثالاً لِطلبهم في كتابة هذا الكتاب، بعد التوكل على الله عزّ وجلّ، واحتساب التوفيق منه ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[٢]، وطلب المدد والتسديد منهم عليهم السلام في نشر معارفهم.

ولأهمية البحث ودقته، فقد ابتعدتُ عن قفل العبارة والتلويح في الإشارة؛ إلا في المواضع التي يحتاج فيها المقام كتمان الكلام، واتبعتُ الأسلوب السهل السلس، الذي يخدم كل من أراد أخذ ولو فيض قطرة من معارفهم عليهم السلام؛ لتكون ثمرتها سبيلاً في كمال إنسانيته، وعروج نفسه من عالم الناسوت إلى عالم الملكوت.

وقد بَنَيتُ حقائق البحث على ضوء منهج المدرسة التكاملية المحمدية[٣]،

---

(١) انظر: شرح الزيارة الجامعة ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٢٨٢.

(٢) سورة الطلاق ـ الآية: (٣).

(٣) قمتُ بإيراد كلمات مؤسسها وأعلامها ـ تقدست أسراره ـ بما يناسب الكلام في هوامش الكتاب؛ زيادة في البيان وتبركاً بذكر كلمات أصحاب الشأن.

التي أسسها الحكيم الإلهي الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي (أعلى الله مقامه)[١].

والسبب الذي دعاني إلى اتخاذ منهج هذه المدرسة دعامة أساسية في بناء هذا الكتاب ؛ ليس لانتمائي لها فقط ـ فأنا طالب علم ابحث عن الحقيقة بروح علمية لا تخضع لقوانين الاعتبارات مهما كان شكلها ونتائجها ـ، بل لأنني وعلى مر سنوات طِوَالً قضيتها في الدراسة والبحث في علم الحكمة الإلهية، لم أجد مدرسة فكرية شيعية تمثل الحكمة الإلهية بصورتها الأهل بيتيه أفضل وأكمل من هذه المدرسة ؛ فهي كما وصفها الفيلسوف الفرنسي ـ هنري كوربان[٢] ـ في رسالته :

(ولهذا يبدو من الأصوب والأفضل إطلاق اسم المدرسة التكاملية عليها... والتكاملية التي نقصدها هنا تعني ؛ التمسك بأصول العقائد والشرائع، مع الرعاية التامة للآفاق الروحية والمعنوية المنسجمة مع الشريعة، والمشروطة بالإعتقاد بالمذهب الإمامي، الذي يراد به هنا التشيع الكامل، الذي لا يعني ـ اصطلاحاً ـ إلا تصديق المعنى اللغوي لكلمة الشيعة، والذي يقصد به في الواقع ؛ المؤمنين بالأئمة الأطهار، والواقفين على أسرارهم)[٣].

---

(١) سوف يأتي ذكر سيرة الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي (أعلى الله مقامه) بشكل مختصر في ضمن مباحث الكتاب لاحقاً.

(٢) مستشرق، عالم فرنسي، مدير في معهد الدراسات الإسلامية في السوربون، ومدير قسم الإيرانيات في المعهد الفرنسي الإيراني بطهران سابقاً، له العديد من المؤلفات الإسلامية. ويتميز كوربان بسعة إطلاعه وتبحره في اللغتين العربية والفارسية، وهو من المستشرقين المنصفين في كتاباته.

(٣) نظرة فيلسوف ـ إعداد وتعليق : الشيخ راضي السلمان : ص٣٦ـ٣٧.

أخيراً: إن هذا الكتاب لا يعدو كونه محاولة متواضعة مني[١]، آملاً بأن يحقق المرام في نفعه لكل من أراد أن يتذوق رحيق الحكمة الإلهية الأهل بيتية من خلال المدرسة التكاملية المحمدية، وراجياً بأن يقبله منا إمامنا صاحب الأمر عجل الله فرجه الشريف بقبولٍ حسن، ويجعله لنا ذخراً في ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾[٢].

دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم
أن الحمد لله رب العالمين

الشيخ/ إبراهيم القديم
كربلاء المقدسة

(١) إن محاولتي المتواضعة هذه تُعد غباراً أمام من قام بشرح وتبيين كلمات هذه المدرسة المباركة من تلامذة الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه) ومحبيه، فالبُعد بين تنظيري وتنظيرهم بُعد الثرى من الثريا... فأين أنا من هؤلاء؟

(٢) سورة الشعراء ـ الآية: (٨٨).

مختصر سيرة

الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي (أعلى الله مقامه)

إن ترجمة حياة عالمٍ ـ ونحن على يقين تام بأنه ـ (من رجالات الشيعة اللامعين، الذين أخذوا بأسباب المعرفة والفكر، والفلسفة والكلام، والفقه والعرفان، هذا إلى جانب تمرسه بالطب والرياضيات والنجوم والكيمياء وعلم الأعداد، والكلمات والحديث والأصول)[1] وغيرها، موكلٌ إلى كتب التراجم[2].

ولكننا ارتأينا ـ عزيزي القارئ ـ قبل الشروع في مضان البحث نقل سيرة مختصرة عن حياته؛ ليكونَ لديك تصوراً ـ ولو مجملاً ـ عن ماهية المصدر الذي استقينا منه حقائقنا، ومدى رصانة طوده الشامخ في مسرح الفكر الإسلامي الأصيل.

---

(١) فلاسفة الشيعة ـ عبد الله نعمة: ص١١٣.

(٢) على الرغم من تضارب أقوال المؤلفين نحو شخصية الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه)، وما جاء به من أفكار حكمية تميزت بميزات عديدة منها: مخالفته لمن سبقه من الحكماء والفلاسفة، واستخدامه مصطلحات حكمية جديدة لم تكن موجودة في ساحة الفكر الحكمي أو الفلسفي ـ استنبطها من رواياتهم عليهم السلام ـ؛ قد أدى إلى إثارة الغموض لدى بعض الباحثين والقارئين في حكمته؛ إلا أن هناك الكثير من المترجمين قد أعطوه مكانته المناسبة بين عظماء الإمامية، فتَرجم حياته الكثير من كتب التراجم، وذكره الكثير من الكُتاب في مؤلفاتهم ـ حتى الذين حاربوه وصفوه بمحاسن الأخلاق، وبالمكانة العلمية السامية في مؤلفاتهم ـ؛ بل وقد انفردت رسائل وكتب خاصة في سيرته ومكانته العلمية. [انظر: إجازات الشيخ أحمد الأحسائي ـ د. حسين محفوظ. وانظر: أعلام هجر ـ الأستاذ السيد هاشم محمد الشخص].

أولاً: سيرته بخط قلمه الشريف

(حين يكتب مؤرخ حياة أحد الأعلام يستقي معلوماته من كتابِ شخص ما، وتلك المعلومات خاضعة في الأغلب إما لزيادة... وإما لنقصان.

أمَّا حين يكتب العالم قصة حياته بيده فالأمر يختلف، ذلك لأنه هو لا غيره يعرف دقائق حياته... وهو حين يفعل هذا تتنزل الكتابة صورة حية يرفّ فيها ماء الصدق وحرارة العافية)[١].

وهذا ما حدانا إلى نقل سيرته الذاتية بخط قلمه الشريف.

يقول (أعلى الله مقامه):

(بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

أما بعد.. فيقول العبد المسكين أحمد بن زين الدين، بن إبراهيم، بن صقر، بن إبراهيم، بن داغر ـ غفر الله لهم أجمعين ـ، بن رمضان، بن راشد، بن دهيم، بن شمروخ، آل صقر، وهو كبير الطائفة المشهورة بالمهاشير، وشيخهم وبه يفتخرون وإليه ينتسبون.

قعد داغر في بلدنا المعروف بالمطيرفي[٢] من الأحساء وترك البادية، ومن الله عليه بالإيمان وله الحمد والمنة ليستنقذنا من الضلالة، وكانت أولاده كلهم

---

(١) العلامة الجليل أحمد بن زين الدين الأحسائي في دائرة الضوء ـ علي محمد أسبر: ص٣٥.

(٢) من قرى الأحساء الشمالية، وهي قرية متوسطة المساحة، تبعد عن الهفوف ـ عاصمة الأحساء ـ (٩كم)، ولا زال فيها مسجد ومنزل الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه) إلى الآن.

من الشيعة الأثنى عشرية، إلى أن أخرجني وخلصني من الأرحام والأصلاب، حتى أخرجني إلى الدنيا وله الفضل والحمد والشكر.

فخرجت في وقت قد انتشر الجهل وعمّ الناس، خصوصاً في بلدتنا لأنها نائية عن المدن، وليس فيها أحد ممن يدعو إلى الله وعبادته، ولا يعرف أهلها شيئاً من الأحكام، ولا يفرقون بين الحلال والحرام.

وكان مما تفضل عليّ ﷻ أن رزقني ذرية[1] كرمهم الله بالعلم، وكان كبيرهم سناً وعلماً هو الابن الأعز محمد تقي ـ أعزه الله وهداه وجعلني من المنية فداه ـ، التمس مني أن أذكر بعض أحوالي في حالة الصغر، وفي حال التعلم لتكون كالتاريخ، فأجبته إلى ما التمس مني.

كانت ولادتي في السنة السادسة والستين بعد المئة والألف من الهجرة (١١٦٦هـ)، في شهر رجب المرجب.

وعلى رأس السنتين من ولادتي جاء مطر شديد، وأتت بلادنا سيول من الجبال، حتى كان عمق الماء في المكان المرتفع من بلادنا ذراعين ونصفاً تقريباً، وفي ذلك اليوم تولد المرحوم المبرور أخي الشيخ صالح[2] ـ تغمده الله برحمته، وأسكنه بحبوحة جنته ـ.

وفي اليوم الثالث وقعت بيوت بلدنا كلها، ولم يبق فيها إلا مسجدها،

---

(١) كان للشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه) أربعة أولاد: الشيخ محمد تقي، الشيخ علي نقي، الشيخ عبدالله، الشيخ حسن. [الشيخية ـ الطالقاني : ص٥٣].

(٢) الشيخ صالح بن زين الدين الأحسائي، ولد في الأحساء عام (١١٦٨هـ)، وتوفي في كرمانشاه عام (١٢٤٠هـ)، وهو أصغر من الشيخ الأحسائي.

وبيت لعمتي فاطمة الملقبة (بحبابة) ـ رحمة الله عليها ـ، وكان عمري حينئذ سنتين، وأنا أذكر هذه الواقعة.

وعلى مختصر القصة قرأت القرآن وعمري خمس سنين، وكنت كثير التفكير في حالة طفولتي، حتى أني إذا كنت مع الصبيان ألعب معهم كما يلعبون؛ ولكن كل شيء يتوقف على النظر أكون فيه مقدمهم وسابقهم، وإذا لم يكن معي أحد من الصبيان أخذت في النظر والتدبر، وأنظر في الأماكن الخربة والجدران المنهدمة، أتفكر فيها وأقول في نفسي: هذه كانت عامرة ثم خربت.

وأبكي إذا تذكرت أهلها وعمرانها بوجودهم، وأبكي بكاء كثيراً، حتى أنه لما كان حسين بن سياب الباشه حاكم الأحساء، وتألب عليه العرب، وأتى محمد آل عزيز وحاصروا الباشه، وقتلوا الروم وأخذوا الأحساء، وحكم فيها محمد آل عزيز. وبعد أن مات حكم في الأحساء ابنه علي آل محمد، وقتله أخوه دجين أبو عرعر، وكان مقتله قرب عين الحوار (بالحاء المهملة) ودفن هناك، فإذا مررت وعمري خمس سنين تقريباً بقبره أقول في نفسي: أين ملكك؟ أين قوتك؟ أين شجاعتك؟ وكان في حياته على ما يذكرون أشجع أهل زمانه، وأشدهم قوة في بدنه، وأتذكر أحواله وأبكي بكاءً شديداً على تغير أحوال الدنيا وتقلبها وتبدلها.

وكانت هذه حالتي إن كنت مع الصبيان في لعبهم فأنا مشتغل باللعب معهم، وإن كنت وحدي فأنا أتفكر وأتدبر.

وكان أهل بلدنا في غفلة وجهل، لا يعرفون شيئاً من أحكام الدين، بل كان أهل البلد صغيرهم وكبيرهم لهم مجامع يجتمعون فيها بالطبول والزمور، والملاهي والغناء والعود والطنبور.

وكنت مع صغري لا أقدر أصبر عن الحضور معهم ساعة، وعندي من الميل إلى طرفهم ما لا أكاد أصفه، وأبكي وحدي شوقاً إلى ما أتخيله من أفعالهم، حتى أكاد أقتل نفسي، وإذا خلوت وحدي أخذت في الفكر والتدبر، وبقيت على هذه الحال.

فلما أراد الله سبحانه إنقاذي من تلك الحالات اجتمعت مع رجل من أقاربنا، من المقدمين في طرق الضلالة، المتوغلين في أفعال الغواية والجهالة.

وقال: أنا أريد أنظم بعض أبيات الشعر وأريدك تعينني ـ هذا وأنا صغير ما بلغت الحلم ـ.

فقلت له: أفعل.

فقعدنا في خلوة، فأخذ أوراقاً صغاراً عنده يقلب فيها، وإذا فيها أبيات شعر منسوبة للشيخ علي بن حماد البحراني الأوالي[1] ـ تغمده الله برحمته ورضوانه ـ في مدح الأئمة عليهم السلام، وهي:

لله قوم إذا ما الليل جنّهم ... قاموا من الفرش للرحمن عبادا

الأرض تبكي عليهم حين تفقدهم ... لأنهم جُعِلوا للأرض أوتادا

هم المطيعون في الدنيا لخالقهم ... وفي القيامة سادوا كل من سادا

(١) الشيخ علي بن حماد البحراني، من العلماء الأعلام، توفي عام ٩٩٩هـ.

محمد وعلي خيـــر من خلقـــوا وخـــير من مسكت كفاه أعوادا
ويركبـــــون مـــطايا لا تمللهم إذا هـم بمنادي الصبح قد نادى

فلما قرأ هذه الأبيات ألقاها وقال: الحاصل إن الذي ما يعرف النحو ما يعرف الشعر.

فلما سمعت هذا الكلام منه تذكرت أن هنالك صبياً ـ أمه بنت عم أمي، تغمده الله برحمته ـ، اسمه الشيخ أحمد بن محمد آل ابن حسن، يقرأ في النحو في بلدة قريبة من بلدنا بينهما فرسخ، عند المرحوم الشيخ محمد بن الشيخ محسن ـ قدس الله روحه ـ.

قلت ـ للشيخ أحمد ـ: ما أول شيء يقرأ فيه من النحو.

فقال: عوامل الجرجاني.

فقلت له: أعطني أكتبها.

فأخذتها وكتبتها، ولكني أستحي أن أذكر لوالدي ـ قدس الله روحه ونور ضريحه ـ؛ لأنه كان عندي من الحياء شيء ما يتصور، حتى أن ذلك الحال الذي أشرت إليهم من الاشتياق إلى أفعال أولئك الفساق ما اطلع عليه أحد إلا الله سبحانه، فمضيت فيه إلى موضع من بيتنا يقعد فيه والدي ووالدتي ونمت فيه، وبيّنت بعض الأوراق التي فيها العوامل، وأتت والدتي ـ وأنا مغمض عيني كأني نائم ـ.

ثم أتى والدي وقال لوالدتي: ما هذه الأوراق التي عند أحمد؟

قالت: ما أعلم.

فقال: ناولينيها.

فأخذتها وأنا أرخيت أصابعي ـ من حيث لا تشعر ـ حتى تأخذ القرطاس، فأخذتها وأعطتها والدي ـ رحمه الله ـ.

فنظر فيها وقال: هذه رسالة نحو، من أين له هذه؟

قالت: ما أدري.

فقال: رديها مكانها.

فردتها وألنت أصابعي ـ من حيث لا تشعر ـ فوضعتها في يدي وبقيت قليلاً، ثم تمطيت وانتبهت وأخفيت القرطاس، كأني أحب أن لا يطلع عليها.

فقال لي والدي: من أين لك هذه الرسالة النحوية؟

قلت: كتبتها.

فقال لي: تحب أن تقرأ في النحو؟

فقلت: نعم.

وجرت (نعم) على لساني من غير اختياري ـ وأنا في غاية الحياء، كأن قولي نعم من أقبح الأشياء ـ، ولكن الله ـ وله الحمد والشكر ـ أجراها على لساني من غير اختياري.

فلما كان من الغد أرسلني مع شيء من النفقة إلى البلد التي فيها الرجل العالم، أعني الشيخ محمد بن الشيخ محسن القُرَيْن، ووضعني مع ذلك الصبي ـ الذي تقدم ذكره ـ وهو الشيخ أحمد ـ رحمه الله ـ، فكان شريكي في الدرس عند الشيخ محمد، وقرأت العوامل والآجرومية عنده.

ورأيت في المنام رجلاً كأنه من أبناء الخمس والعشرين سنة، أتى إليّ وعنده كتاب، فأخذ يُعرِّف لي قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ۞ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾[1]، مثل خلق أصل الشيء؛ يعني هيولاه، فسوى صورته النوعية، وقدر أسبابه فهداه إلى طريق الخير والشر، يعني من هذا النوع، وإن لم يكن خصوص ما ذكرته، فانتبهت وأنا منصرف الخاطر عن الدنيا، وعن القراءة التي يعلمناها الشيخ؛ لأنه إنما يعلمنا: زيد قائم، زيد: مبتدأ، وقائم: خبره.

وبقيت أحضر المشايخ ولا أسمع لنوع ما سمعت في المنام من ذلك الرجل شيئاً. وبقيت مع الناس بجسدي، ورأيت أشياء كثيرة لا أقدر أحصيها منها:

أني رأيت في المنام كأني أرى جميع الناس صاعدين على السطوح يتطلعون لشيء، فصعدت أنا سطح بيتنا، وإذا أنا أرى شيئاً أتى مما بين المغرب والجنوب، وهو معلق بالسماء بطرف منه، وطرف آخر متدلٍ كالسرادق وهو مقبل إلينا ـ أنا والناس كلهم ـ، وكلما قرب منا انحط إلى جهة الأسفل، حتى وصل إلينا، وكان أسفل ما منه ما كان عندي وقبضته بيدي، وإذا هو شيء لطيف لا تدركه حاسة اللمس بالجسم إلا بالبصر، وهو أبيض بلوري يكاد يخفى من شدة لطافته، وهو حُلَق منسوجة على هيئة نسج الدرع، ولم يصل إليه أحد من تلك الخلائق المتطلعين إليه غيري.

ورأيت ليلة أخرى: كأن الناس كلهم يتطلعون على السطوح ـ كالرؤيا الأولى ـ إلى شيء نزل من السماء وقد سدّ جهة السماء، إلا أن جميع أطرافه

(١) سورة الأعلى ـ الآية: (٢ـ٣).

متصلة بالسماء ووسطه منخفض، ولم يصل إليه من تلك الخلائق أحد غيري؛ لأن أخفض ما في وسطه المتدلي هو الذي وصل إليّ، فقبضته بيدي، فإذا هو غليظ ثخين.

ورؤى لي ـ أيضاً ـ: كأن جبلاً عالياً إلى عنان السماء، وحوله من جميع جوانبه رمال سيّالة، وكل الخلائق يعالجون في صعوده، ولم يقدر أحد منهم أن يصعد منه قليلاً، وأتيت أنا وصعدته كلمح البصر، بأسهل حركة إلى أعلاه، وأمثال ذلك من الأمور الغريبة التي أعجز عن إحصائها.

ثم إني رأيت ليلة: كأني دخلت مسجداً، فوجدت فيه رجالاً ثلاثة، وشخص آخر يقول لكبير الثلاثة: يا سيدي كم أعيش؟

فقلت: من هؤلاء؟ ومن هذا الذي تسأله؟

فقال: هذا الحسن بن علي ابن أبي طالب عليه السلام، فمضيت إليه وسلمت عليه وقبلت يده، وتوهمت أن الذين معه الحسين وعلي بن الحسين عليهما السلام.

فقال عليه السلام: هذا علي بن الحسين، وهذا الباقر عليهما السلام.

فقلت: أنا يا سيدي كم أعيش؟

فقال: خمس سنين أو أربع سنين، أو قال: خمس سنين وأربع سنين.

فقلت له: الحمد لله.

فلما عَلِم منّي الرضا بالقضاء قعد عند رأسي، وذلك كأني حين إظهاري الرضا بما قال نائم على قفاي، ورأسي إلى جهة القطب الجنوبي، وهم عليهما السلام قيام على جانبي الأيمن، كالمصلين على الميت، إلا أن الحسن عليه السلام مما يلي

رأسي، فلما أظهرت الرضا بالقضاء قعد عند رأسي، ووضع فمه على فمي، فقال له علي بن الحسين عليه السلام: أصلح إن كان في فرجه خراب.

فقال الحسن عليه السلام: الفرج لا يخاف منه وإن أعقمه الله، فإنما يخاف من القلب، فتعلقت به فوضع يده على وجهي وأمرها على صدري، حتى وجدت برد يده الشريفة في قلبي. ثم كأني أنا وهم قيام، فقلت له: يا سيدي أخبرني بشيء إذا قرأته رأيتكم. فقال لي:

كن عن أمورك معرضا ... وَكِلِ الأمور إلى القضا
ولربما اتسع المضيق ... وربما ضاق الفضا
ولرب أمر متعب ... لك في عواقبه رضا
الله يفعل ما يشاء ... فلا تكن متعرضا
الله عودك الجميل ... فقس على ما قد مضى

ثم قال:

رب أمر ضاقت النفس به ... جاءها من قبل الله فرج
لا تكن من وجه روح آيسا ... ربما قد فرجت تلك الرتج
بينما المرء كئيب دنف ... جاءه الله بروح وفرج

وكان يقرأ من الأول فقرة، ومن الثاني فقرة، فقلت: وكيف هذا؟

فقال عليه السلام: قد يستعمل في الشعر هكذا!

فقلت: يا سيدي هل رأيت القصيدة التي أولها:

ألا انظرن يا خليلي بين أحوالي ... في أيها هو أحلى لي وأحوى لي

فقال: رأيتها وهي عجيبة إلا أنها ضائعة، وذلك إنما قال عليه السلام ذلك لأني نظمتها في التغزل.

فقلت له: إن شاء الله تعالى أنظم في مدحكم قصيدة.

ثم إني أحببت انصرافهم لئلا أنسى هذه الأبيات، وثقة مني بوعده عليه السلام.

ثم إني ذات ليلة قعدت آخر الليل لصلاة الليل، وكان قريب بلدنا بلد اسمها (البابة) وفيها نخلة طويلة جداً، ما رأيت منذ خلقت نخلة طولها وعليها حمامة راعبية وهي تنوح، فذكرتني تلك الرؤيا ومن رأيت، فنظمت القصيدة في مدحهم عليهم السلام، التي أولها:

بي العزا عز وجل الوجل وماج مدمعي بما احتمل

وهي موجودة.

والحاصل ثم إني بقيت أقرا الأبيات كل ليلة وأكررها ولا أراهم عليهم السلام كم شهر.

ثم أني استشعرت أنه عليه السلام ما يريد منّي قراءة الأبيات، وإنما يريد منّي التخلق بمعانيها، فتوجهت إلى الإخلاص في العبادة وكثرة الفكر، والنظر في العالم، وكثرة قراءة القرآن، والاعتبار والاستغفار في الأسحار.

فرأيت منامات غريبة عجيبة في السماوات وفي الجنات، وفي عالم الغيب والبرزخ، ونقوشاً وألواناً تبهر العقول.

ثم انفتح لي رؤيتهم عليهم السلام، حتى أني أكثر الليالي والأيام أرى من شئت منهم، على ما أختار منهم الذي أراه عليه السلام.

وإذا رأيت أحداً منهم وانتبهت وانقطع كلامي قبل تمامه، رجعت في النوم ورأيت ذلك الذي رأيته عند منقطع كلامي حتى أتممه، وإذا ذكر لي أحد من الناس أن إذا رأيتهم تسأل لي الدعاء، رأيت كذلك.

وقد ذكر لي أخي الشيخ صالح أن إذا رأيت القائم عجل الله فرجه فاسأله لي الدعاء، فرأيت القائم عجل الله فرجه وقلت له: يا سيدي إن أخي صالحاً يسألك الدعاء، فدعا له وقال: في زوجته ولد، ثم حملت زوجته بزين الدين ابنه.

وكنت في أول انفتاح باب الرؤيا رأيت الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، فسألته عن مسائل فأجابني، ثم وضع فمه الشريف في فمي وبقي يمجّ علي من ريقه وأنا أشرب وهو ساخن، إلا أنه ألذّ من الشهد قدر نصف ساعة، وكل ذلك وأنا أشرب من ريقه.

ثم بعد كم سنة رأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقلت: يا سيدي أريد منك أن أخلع الدنيا أصلاً، بحيث لا أعرف. فقال: هذا أصلح.

فشددت عليه في الطلبة فتغافلني ومضى عنّي من حيث لا أشعر، ففتشت عليه ثم وجدته وقلت له: أنا أريد منك هذا الطلب. فقال: يمكن بعد حين، فتغيب عنّي فطلبته فوجدته وشددت عليه مراراً، فمرة يقول: هذا أصلح، ومرة يقول: بعد حين.

فلما آيست من مطلبي قلت له: إذن زودني، فرفع يمينه الشريفة وأراد أن يمسح بها على وجهي وصدري.

فقلت له: ما أريد هذا.

فقال لي: ما تريد؟

قلت: أريد تسقيني من ريقك، فوضع فمه على فمي ومجّ عليّ من ريقه ما ألذّ من الشهد، وأبرد من الثلج، إلا أنه قليل، وكنت وهو ﷺ قائمين فضعفت لشدة اللذة وبرد الماء فقعدت، ثم قمت وهو يضحك من قعودي وضعفي، وسقاني مرة أخرى كالأولى ثم مضى.

والحاصل أني رأيت أكثر الأئمة عليهم السلام وظني كلهم، إلا الجواد عليه السلام فإني متوهم في رؤيته. وكل من رأيت منهم يجيبني في كل ما طلبت، إلا مسألة الانقطاع، فإن جوابهم لي فيه كجواب النبي ﷺ.

وكنت مدة إقبالي سنين متعددة ما يشتبه عليّ شيء في اليقظة إلا وأتاني في المنام، وأشياء ما أقدر ضبطها لكثرتها.

وأعجب من هذا ما أرى في المنام إلا على أكمل ما أريده في اليقظة، بحيث ينفتح لي جميع ما يؤيد أدلته ويمنع ما يعارضه.

وبقيت سنين كثيرة على هذه الحال، حتى عرفني الناس، واشتغلت بهم عن ذلك الإقبال، وانسد ذلك الباب المفتوح، فكنت الآن ما أراهم عليهم السلام إلا نادراً من الأحوال.

وكان من جملة هذه الأمور النادرة أني رأيت أمير المؤمنين عليه السلام في مجلس مشحون من العلماء والأجلاء، فلما أقبلت قام عليه السلام فقعدت عند النعل.

فقال: أقبل ما هذا مكانك، فقمت ثم قعدت قريباً.

فقال: أقبل.

ولم يزل عليه السلام يقربني حتى أقعدني في جانبه، فكان مما سألته: هل يجوز بيع الصبرة؟

فقال: لا.

ثم ذكرت له حاجتي، فقال: أنا ما في يدي شيء.

فقلت له: نعم، ولكني أتيت إليك من الذي بيني وبينك أريد مما أعرف من مقامك عن الله. فلما قلت له ذلك قال: إن شاء الله يكون بعد حين.

وكنت في تلك الحال دائماً أرى منامات وهي إلهامات. فإني إذا خفي عليّ شيء رأيت بيانه ولو إجمالاً، ولكني إذا أتاني بيانه في الطيف وانتبهت ظهرت لي المسألة بجميع ما يتوقف عليه من الأدلة، بحيث لا يخفى عليّ أحوالها، حتى أنه لو اجتمعت الناس ما أمكنهم يدخلون عليّ شبهة فيها، فأطلع على جميع أدلتها. ولو أوردوا عليّ ألف منافٍ، وألف اعتراض ظهر لي محاملها وأجوبتها بغير تكلف، ووجدت جميع الأحاديث كلها جارية على طبق ما رأيت في الطيف؛ لأن الذي أراه في المنام معاينة لا يقع فيه غلط.

وإذا أردت أن تعرف صدق كلامي فانظر في كتبي الحكمية، فإني في أكثرها في أغلب المسائل خالفت جل الحكماء والمتكلمين، فإذا تأملت في كلامي رأيته مطابقاً لأحاديث أئمة الهدى عليهم السلام، ولا تجد حديثاً يخالف شيئاً من كلامي.

وترى كلام أكثر الحكماء والمتكلمين مخالفاً لكلامي ولأحاديث الأئمة عليهم السلام، حتى بلغ منهم الحال إلى أن أكثرهم ما يعرفون كلام

الإمام عليه السلام، ولكن إذ أردت البيان فانظر بعين الإنصاف لتعرف صحة ما ذكرت، فإني ما أتكلم إلا بدليل منهم عليهم السلام.

ولقد كان بيني وبين الشيخ محمد بن الشيخ حسين بن عصفور البحراني ـ رحمهم الله ـ بحث كثير، وأكثر الإنكار عليّ، ثم انصرفنا.

فلما جاء الليل رأيت مولاي علي بن محمد الهادي ـ عليه وعلى آبائه الطيبين وأبنائه الطاهرين أفضل الصلاة وأزكى السلام ـ، فشكوت إليه حال الناس، فقال عليه السلام: اتركهم وامضِ فيما أنت فيه.

ثم أخرج إليّ أوراقاً على حجم الثمن، وقال: هذه إجازاتنا الاثنا عشر، فأخذتها وفتحتها وإذا كل صفحة مصدرة: ببسم الله الرحمن الرحيم، وبعد البسملة إجازة واحدة منهم عليهم السلام.

وكان مما أمروني به ووعدوني به ووصفوني عليهم السلام به، ما لا يصدق به كل من سمع استعظاماً له، وإني لست أهلاً له، حتى أني قلت للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: من القائل بذلك.

فقال: أنا القائل.

فقلت: يا سيدي أنت تعرفني، وأنا أعرف نفسي، أني لست أهلاً لذلك، فلأي سبب قلت ذلك.

فقال: بغير سبب.

فقلت: بغير سبب.

فقال: أمرت أن أقول كذا.

فقلت: أمرت أن تقول كذا.

فقال: نعم، وأمرت أن أقول إن (ابن أبي مدربس) من أهل الجنة، وكان رجلاً من أهل بلدنا من جهال الشيعة.

وقال ـ أيضاً ـ: وأمرت أيضاً أن أقول إن (عبد الله الغويدري) من أهل الجنة.

فقلت: عبد الله الغويدري من أهل الجنة!

فقال: لا تغتر بأن ظاهره خبيث، فإنه يرجع إلينا ولو عند خروج روحه.

وكان عبد الله الغويدري رجلاً عشاراً من أهل السنة والجماعة، ولم نسمع منه شيئاً من الخير، إلا أنه كان يحب جماعة من السادة من أقاربنا، ويخدمهم ويعظمهم ويكرمهم غاية الإكرام.

ثم بعد مدة تكلمت بهذا الكلام بمحضر جماعة من الشيعة، فقال شخص منهم اسمه عبد الله ولد ناصر العطار، وكان بينه وبين عبد الله الغويدري صداقة ومؤاخاة، فقال: عبد الله الغويدري شيعي.

فقلنا: ليس بشيعي.

فقال: والله إنه شيعي، ولا يطلع عليه إلا الله وأنا، وهو رفيقي وأنا أعرفه.

والحاصل من الاتفاق أن طوائف من البوادي، اعتدوا على طائفة من الشيعة من أهل القطيف، ووقع بينهم حرب، واستعان الشيعة بأهل الأحساء عسكراً لإعانة أهل القطيف على البوادي، وكان من جملة من خرج معهم

عبد الله الغويدري، فقتل في جملة من قتل، فختم له بالشهادة في الدفاع عن المؤمنين.

والحاصل أن من الأمور الغريبة تعبير ما ذكرت من الرؤيا التي تقدم ذكرها، فإنه مما لا يحسن بيانه، خصوصاً للجهال. وأما أنا فإن افتريته فعليّ إجرامي.

ولقد ورد عن الباقر عليه السلام، أنه قال: «ما من عبد أحبنا وزاد في حبنا، وأخلص في معرفتنا، وسئل مسألة إلا ونفثنا في روعه تلك المسألة»[1]. ولقد فتح الله أشياء ما أعرف أصفها للناس، وكل ذلك من التخلق بتلك الأبيات المتقدمة. فأنت وفقك الله إذا أردت شيئاً فأقبل على الله على النحو الذي أمر به الشارع عليه السلام، وتفهم قول الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[3])[4] انتهى كلامه.

ثانياً: سيرته العلمية

كان الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه) من الرعيل الأول من بين كبار علماء الشيعة الإمامية[5]، وقد انصب جهده العلمي في جوانب عديدة منها:

---

(١) الأنوار الساطعة في شرح الزيارة الجامعة ـ الشيخ جواد الكربلائي: ج٤ ص٣٧٢.

(٢) سورة البقرة ـ الآية: (١٥٢).

(٣) سورة التوبة ـ الآية: (٦٧).

(٤) نقل هذه السيرة الميرزا محمد تقي بن الملا محمد حجة الإسلام المامقاني قدس سره، من نسخه نقلت من خط الشيخ الأحسائي قدس سره. وأخرجها د. حسين علي محفوظ في عام (١٣٧٦هـ) تحت عنوان "سيرة الشيخ الأحسائي قدس سره".

(٥) لم يعرف للشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه) أساتذة، كما لم يذكر هو في ترجمته لنفسه غير الشيخ محسن القرين.

الجانب الأول: إجازاته

هاجر (أعلى الله مقامه) إلى العراق في سنة (١١٨٦هـ)، وتنقل بين النجف وكربلاء[١]، ونال العديد من الإجازات من أعاظم العلماء آنذاك، ومنهم:

١ـ السيد محمد مهدي الطباطبائي قدس سره[٢]، وتاريخ إجازته عام (١٢٠٩هـ)[٣].

٢ـ الشيخ جعفر كاشف الغطاء النجفي قدس سره[٤]، وتاريخ إجازته عام (١٢٠٩هـ)[٥].

٣ـ السيد علي الطباطبائي قدس سره، صاحب (كتاب الرياض)[٦]، لم يرد تاريخ لإجازته[٧].

---

(١) الشيخية ـ الطالقاني: ص٣٥.

(٢) وهو من أكابر علماء عصره، علماً وأدباً، تخرج عليه جمع من أعاظم الفقهاء وعمد الطائفة، وهو جد أسرة (آل بحر العلوم) العلمية في النجف، ولد في كربلاء عام (١١٥٥هـ)، وتوفي في النجف عام (١٢١٢هـ). [منتهى المقال في أحوال الرجال ـ للشيخ أبي علي الحائري: ص٣١٤].

(٣) الذريعة إلى تصانيف الشيعة ـ الشيخ الطهراني: ج١ ص٢٥٥.

(٤) وهو من أعاظم علماء الشيعة، انتهت إليه الزعامة الدينية العامة، واجتمعت حكومتا آل قاجار في إيران وآل عثمان في تركيا على إكباره، ولم يتحدث تاريخ الزعامة الدينية في النجف عن نظير له في المكانة العلمية والعملية، ولد عام (١١٥٦هـ)، وتوفي عام (١٢٢٨هـ). [أعيان الشيعة ـ السيد محسن الأمين: ج٥ ص٤١٨ـ٤٣٥].

(٥) الذريعة إلى تصانيف الشيعة ـ الشيخ الطهراني: ج١ ص١٦٥.

(٦) وهو أحد الفقهاء الأثبات، والعلماء الخالدين، وجهابذة الرأي الأفاضل، تخرج على يديه العديد من العلماء: الشيخ محمد المازندراني، والسيد أبو قاسم الخونساري، والشيخ أسد الله التستري، وأبنيه السيد محمد والسيد مهدي الطباطبائي.. وغيرهم. ولد عام (١١٦١هـ)، وتوفي عام (١٢٣١هـ). [قصص العلماء ـ للتنكابني: ص١٢٩ـ١٣١].

(٧) الذريعة إلى تصانيف الشيعة ـ الشيخ الطهراني: ج١ ص٢١٩.

٤ـ السيد ميرزا مهدي الشهرستاني قدس سره[١]، وتاريخ إجازته عام (١٢٠٩هـ)[٢].

٥ـ الشيخ حسين آل عصفور البحراني قدس سره[٣]، وتاريخ إجازته عام (١٢١٤هـ)[٤].

٦ـ الشيخ أحمد بن الشيخ حسن الدمستاني البحراني قدس سره[٥]، وتاريخ إجازته عام (١٢٠٥هـ)[٦].

وقد طبعت هذه الإجازات مستقلة في النجف الأشرف عام (١٣٩٠هـ) بشرح وتعليق الدكتور حسين علي محفوظ[٧].

ولا بأس بذكر بعض المقتطفات القصيرة من تلك الإجازات وثناء العلماء عليه؛ لبيان مكانته الشخصية ورفعته العلمية والعملية عندهم.

قال الميرزا مهدي الشهرستاني قدس سره ـ في إجازته له ـ:

(... حيث أن الشيخ الجليل والعمدة النبيل، والمهذب الأصيل العالم

---

(١) من أكابر فقهاء كربلاء وزعمائها الدينيين في عصره، وبيت الشهرستاني من الأسر العلمية الكربلائية التي أنجبت الكثير من العلماء، توفي عام (١٢١٦هـ). [الكنى والألقاب ـ للمحدث القمي: ج٢ ص٣٤٤ـ٣٤٥].

(٢) الذريعة إلى تصانيف الشيعة ـ الشيخ الطهراني: ج١ ص٥٣.

(٣) هو زعيم المدرسة الإخبارية، وشيخ علمائها، وأحد المجازين من عمه الشيخ يوسف البحراني، صاحب كتاب (الحدائق الناظرة)، توفي عام (١٢١٦هـ). [أعيان الشيعة ـ السيد محسن الأمين: ج٢٧ ص١٢٨ـ١٣٦].

(٤) الذريعة إلى تصانيف الشيعة ـ الشيخ الطهراني: ج١ ص١٨٨.

(٥) وهو من علماء عصره وأدبائه، ولكن التاريخ ظلمه كألوف غيره، لاسيما من أبناء منطقته وطائفته. [طبقات أعلام الشيعة ـ الطهراني: ج٢ ص٨٠ـ٨١].

(٦) الذريعة إلى تصانيف الشيعة ـ الشيخ الطهراني: ج١ ص١٤١.

(٧) إجازات الشيخ أحمد الأحسائي ـ د. حسين علي محفوظ: ص٥.

الفاضل، والباذل الكامل المؤيد المسدد الشيخ أحمد الأحسائي ـ أطال الله بقاه، وأقام في معارج العز وأدام ارتقاه ـ، ممن رتع في حياض العلوم الدينية، وكرع من حياض زلال سلسبيل الأخبار النبوية، وقد استجازني فيما صحت لي روايته وثبتت لدي درايته، من معقول ومنقول وفروع وأصول، حسبما جرى عليه السلف والخلف من علمائنا الأبرار، من الشرف والانتظام في سلك الرواة عن الأئمة الأطهار... ولما كان دام عزه وعلاه أهلاً لذلك، فسارعت إلى إجابته، وإنجاح طلبته، لما كان إسعاف مأموله فرضاً لفضله وجودة فطنته، فأقول: إني قد أجزت له أدام الله علاه أن يروي عني ...)[1].

وقال السيد محمد مهدي الطباطبائي قدس سره ـ في إجازته له ـ:

(... وكان ممن أخذ بالحظ الوافر الأسنى، وفاز بالنصيب المتكاثر الأهنى، زبدة العلماء العاملين، ونخبة العرفاء الكاملين، الأخ الأسعد الأمجد، الشيخ أحمد بن الشيخ زين الدين الأحسائي ـ زيد فضله ومجده، وعلا في طلب العلا جده ـ. وقد التمس منّي أيده الله تعالى الإجازة في رواية الأخبار، الواردة عن الأئمة الأطهار ـ عليهم سلام الله أناء الليل والنهار ـ عنّي وعن مشائخي الأعاظم الأجلة، ووسائطي إلى رؤساء المذهب والملة، فسارعت إلى إجابته، وقابلت التماسه بإنجاح طلبته، لما ظهر لي من ورعه وتقواه، وفضله ونبله وعلاه، فأجزت له وفقه الله لسعادة الدارين وحباه بكل ما تقر به العين، رواية الكتب ...)[2].

---

(١) إجازات الشيخ أحمد الأحسائي ـ حسين علي محفوظ: ص١٩.

(٢) نفس المصدر السابق: ص٢٩.

وقال الشيخ حسين آل عصفور البحراني قدس سره ـ في إجازته له ـ:

(... التمس مني من له القدم الراسخ في علوم آل بيت محمد الأعلام، ومن كان حريصاً على التعلق بأذيال آثارهم ـ عليهم الصلاة والسلام ـ، أن أكتب له إجازة، كما هي الطريقة الجارية بين العلماء في جميع الأصقاع والأعوام، لحصول التبرك بطرق التحمل المغروسة في قلوب العلماء، حدائق التثبيت المروية برواشح إفاضاتهم على الاستمرار والدوام، وهو العالم الأمجد ذو المقام الأنجد، الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي، ذلّل الله له شوامس المعاني، وشيّد به قصور تلك المباني، وهو في الحقيقة حقيق بأن يجيز ولا يجاز، لعراقته في العلوم الإلهية على الحقيقة لا المجاز، ولسلوكه طريق أهل السلوك وأوضح المجاز ...)[1].

وقال السيد علي الطباطبائي قدس سره ـ في إجازته له ـ:

(... إنّ من أغلاط الزمان، وحسنات الدهر الخوّان، اجتماعي بالأخ الروحاني والخل الصمداني، العالم العامل والفاضل الكامل، ذي الفهم الصائب والذهن الثاقب، الراقي أعلى درجات الورع والتقوى والعلم واليقين، مولانا الشيخ أحمد بن الشيخ زين الدين الأحسائي ـ دام ظله العالي ـ. فسألني بل أمرني أن أجيز له ما صحت لدي إجازته، واتضح لي روايته، من مصنفات علمائنا الأبرار.. فأجزت له رواية جميع ذلك، وأن يروي عني..)[2].

---

(١) إجازات الشيخ أحمد الأحسائي ـ حسين علي محفوظ: ص٤٣.

(٢) نفس المصدر السابق: ص٢٣.

وقال المحقق الشيخ عبد الحسين الأميني قدس سره[١] ـ في حقه (أعلى الله مقامه)ـ:

(أحد فطاحل العلماء يروي عن سيدنا بحر العلوم، والشيخ كاشف الغطاء، والسيد صاحب الرياض، والسيد مهدي الشهرستاني، والشيخ أحمد البحراني، ويروي عنه صاحب الجواهر، والحاج ميرزا إبراهيم الكلباسي صاحب الإشارات)[٢].

وقال الشيخ الميرزا محمد باقر الخوانساري قدس سره[٣] ـ في حقه (أعلى الله مقامه)ـ:

(... ترجمان الحكماء المتألهين، ولسان العرفاء المتكلمين، غرة الدهر وفيلسوف العصر، العالم بأسرار المباني والمعاني، شيخنا أحمد بن الشيخ زين الدين بن الشيخ إبراهيم الأحسائي، لم يُعْهد في هذه الأواخر مثله في المعرفة، والفهم والمكرمة والحزم، وجودة السليقة، وحسن الطريقة، وصفاء الحقيقة، وكثرة المعنوية، والعلم بالعربية، والأخلاق السنية والشيم المرضية والعلمية والعملية، وحسن التعبير والفصاحة، ولطف التقرير والملاحة، وخلوص المحبة والوداد، لأهل بيت الرسول الأمجاد ...)[٤].

---

(١) هو العلامة الشيخ عبد الحسين بن الشيخ أحمد بن المولى نجف علي الشهير بالأميني، صاحب كتاب (الغدير)، ولد عام (١٣٢٠هـ)، وتوفي عام (١٣٩٠هـ) في طهران، ونقل جثمانه إلى النجف الأشرف.

(٢) شهداء الفضيلة ـ الشيخ عبد الحسين الأميني: ص٣١١.

(٣) الميرزا محمد باقر الخوانساري الأصفهاني بن الفقيه الميرزا زين العابدين بن المحدث الفقيه السيد أبي القاسم بن الفقيه السيد حسين بن الفقيه المتبحر المير أبي القاسم جعفر المشتهر بالمير الكبير، وهو من العلماء المشهورين والفقهاء العظام، ولد في بلدة خوانسار عام (١٢٢٦هـ) وتوفي عام (١٣١٣هـ).

(٤) روضات الجنات ـ الخوانساري: ج١ ص٩٧.

وقال الشيخ عباس القمي قدس سره[١] ـ في حقه (أعلى الله مقامه) ـ :

(الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي البحراني، الحكيم المتأله، الفاضل العارف العالم العابد، المحدث الماهر والشاعر، وصاحب شرح الزيارة، وشرح الحكمة العرشية لملا صدرا، وشرح التبصرة للعلامة، والرسائل الكثيرة، والذي توفي في أوائل سنة (١٢٤٣هـ) في سفر الحج، ودفن خلف البقعة المباركة لأئمة البقيع ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ. وزرت قبره وكان مكتوباً على لوح مزاره الشريف:

لزين الدين أحمد نور علم تضيء به القلوب المدلهمة

يريد الجاحدون ليطفئوه ويأبى الله إلا أن يتمه)[٢].

وقال الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء قدس سره[٣]:

(... ثم لما انتشرت كتبه ورسائله بعد حياته اختلف الناس فيه بين غالٍ وقالٍ، بين من يقول بركنيته، وبين من يقول بكفره، والتوسط خير الأمور، والحق أنه من أكابر علماء الأمامية وعرفائهم، وكان على غاية من الورع والزهد والاجتهاد في العبادة، كما سمعناه ممن نثق به ...)[٤].

---

(١) الشيخ عباس بن محمد رضا بن أبي القاسم القمي رحمه الله تعالى، صاحب كتاب (مفاتيح الجنان)، وهو من العلماء المشهورين بتهذيب النفس وقيم الأخلاق والعلم، ولد في قم عام (١٢٩٤هـ) وتوفي عام (١٣٥٩هـ).

(٢) أعلام هجر ـ السيد هاشم الشخص: ج١ ص١٨٣. عن الفوائد الرضوية.

(٣) هو الشيخ محمد حسين بن الشيخ محمد رضا كاشف الغطاء، ولد في النجف الأشرف عام (١٢٩٤هـ)، وتوفي عام (١٣٧٣هـ). وعائلة كاشف الغطاء من العوائل العلمية العريقة التي تزعمت الحركة الدينية في النجف لمدة قرن وثمانين سنة.

(٤) الآيات البينات ـ محمد حسين كاشف الغطاء: ص١١١.

وقال العلامة الشيخ عبد الله بن معتوق القطيفي قدس سره [١] :

(ناموس الدهر وتاج الفخر وعلامة العصر، موضح الحقيقة والطريقة، ومحيي الشريعة على الحقيقة، الحكيم الرباني والعارف السبحاني، والفريد الذي ليس له ثانٍ، أعلم العلماء ورئيس الحكماء وقدوة الفقهاء، العارف بالله والمقتفي في مطالبه لأولياء الله، والمتخلق بأخلاق الروحانيين، والمتمسك بحبل الله المتين، عماد الملة والدين، العلم الأوحد الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي طاب ثراه ...)[٢].

وقال الشيخ الميرزا علي التبريزي قدس سره [٣] :

(الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي، فخر الأعلام وذخر الأيام، تاج الدهر وناموس العصر، العلامة الأوحد والفاضل الفهامة الأمجد، العالم الرباني والفاضل الكبريائي الصمداني... وكان قدس سره قليل النطق كثير الصمت، لو نطق فبالحق ولو سكت فعن الباطل، جامعاً بين الشريعة والحقيقة، مرتاضاً زاهداً، معرضاً عن الدنيا وأهلها، ساعياً في إظهار ما أراده الله من التدبر في آيات النفس والآفاق ...)[٤].

---

(١) الشيخ عبد الله بن معتوق بن درويش بن معتوق بن عبد الحسين بن الحاج مرهون البلادي القطيفي التاروتي، من العلماء البارعين ومراجع الدين، من أشهر المستجيزين منه آية الله المعظم المولى الميرزا موسى الحائري الإحقاقي. ولد عام (١٢٧٤هـ)، وتوفي عام (١٣٦٢هـ).

(٢) أعلام هجر ـ السيد هاشم الشخص: ج١ ص١٨٤.

(٣) الشهيد ثقة الإسلام، الميرزا علي بن الميرزا موسى التبريزي، أحد مشاهير العلماء في العهد القاجاري، ولد عام (١٢٧٧هـ)، وتوفي عام (١٣٣٠هـ).

(٤) مرآة الكتب ـ التبريزي: ج١ ص٢٦٠ـ٢٦١.

الجانب الثاني: تلاميذه

تصدر (أعلى الله مقامه) للتدريس في المعقول والمنقول سنيناً طِوالاً، في كربلاء والنجف والبصرة، وغيرها من المدن العراقية، وفي قزوين وطهران وكرمانشاه، وغيرها من المدن الإيرانية، وفي الأحساء والبحرين، وغيرهما من مدن الخليج. وقد تخرج على يديه العديد من العلماء وأهل الفضل في تلك الفترة، وكان من أهم تلامذته:

١ـ السيد كاظم بن السيد قاسم الحسيني الرشتي قدس سره[١]، وهو من أوائل تلامذته، المتوفى عام (١٢٥٩هـ).

٢ـ الميرزا حسن بن علي قدس سره[٢]، الشهير بـ (كَوهر)، المتوفى عام (١٢٦٦هـ).

٣ـ السيد عبدالله بن السيد محمد رضا شبر الحسيني قدس سره، المتوفى عام (١٢٤١هـ).

---

(١) هو آية الله العظمى السيد محمد كاظم بن محمد قاسم بن أحمد بن حبيب الحسيني الموسوي المدني الكربلائي، ترجع أسرة السيد الرشتي إلى عائلة الزُبارة، وهي بطن كبير من السادة العلوية، ولد في مدينة رشت، واختلف في تاريخ ولادته؛ فقيل في عام(١٢٠٥هـ)، وقيل في عام (١٢١٢هـ). وقد خلف ثروة فكرية ضخمة في مختلف المواضيع الإسلامية، كالعقيدة، والتفسير، والفقه، والأصول، والعلوم الغريبة، وعلم الحرف، وغير ذلك. دس له والي بغداد نجيب باشا سماً في القهوة، وتوفي عام (١٢٥٩هـ). [رسالة صعودية نزولية (مجموعة رسائل) ـ الرشتي: ج٢ ص٢٣٤. الأنساب ـ السمعاني: ج٣ ص١٢٨. الشيخية ـ الطالقاني: ص١١٨ـ١٣٢. الإجازة ـ الحائري: ص٨٦].

(٢) هو آية الله العظمى الميرزا حسن بن علي القراجه داغي التبريزي، الشهير بكَوهر، ولد في بلدة (أوج دبين) وهي قرية من قرى (قراجة داغ) من محال آذربيجان. وقد حظي عند أستاذه الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه) بمكانة رفيعة، ومنزلة عظيمة. تولى المرجعية في العراق بعد وفاة السيد كاظم الرشتي قدس سره عام (١٢٥٩هـ).. توفي في مكة المكرمة عام (١٢٦٦هـ). [الشيخية ـ الطالقاني: ص٢٢٤ـ ٢٢٧].

٤ـ الشيخ محمد بن الحسين المامقاني التبريزي قدس سره[١]، المعروف بـ (حجة الإسلام)، المتوفى عام (١٢٦٩هـ).

٥ـ الشيخ الملا هادي بن المهدي السبزواري قدس سره، صاحب كتاب (المنظومة)، المتوفى عام (١٢٨٩هـ).

٦ـ السيد محسن بن السيد حسن الأعرجي الحسيني الكاظمي قدس سره، المتوفى عام (١٢٢٧هـ).

٧ـ الشيخ علي نقي بن الشيخ أحمد الأحسائي قدس سره، المتوفى عام (١٢٤٦هـ).

٨ ـ الشيخ محمد تقي بن الشيخ أحمد الأحسائي قدس سره.

وغيرهم الكثير من العلماء والفضلاء ـ قدس الله أسرارهم ـ.

وقد نال بعضهم إجازة من الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه)، ومنهم:

١ـ الشيخ أسد الله التستري الكاظمي قدس سره، صاحب كتاب (المقابس)، المتوفى عام (١٢٣٤هـ).

٢ـ الشيخ إبراهيم الكلباسي قدس سره، صاحب كتاب (الإشارات)، المتوفى عام (١٢٦١هـ).

٣ـ السيد كاظم بن السيد قاسم الحسيني الرشتي قدس سره، المتوفى عام (١٢٥٩هـ).

---

(١) هو آية الله العظمى الشيخ محمد بن الحسين بن زين العابدين بن علي بن إبراهيم المامقاني التبريزي، عرف بالزهد والورع وعزوفه الشديد عن الدنيا ولذاتها، وهو من الذين ناظروا الباب وحكموا بكفره، توفي في تبريز عام (١٢٦٩هـ) ودفن في مزار السيد إبراهيم الواقع في محلة شتريان دوه جي. [الشيخية ـ الطالقاني: ص٢٢٨ـ٢٣٠].

٤ـ الميرزا حسن بن علي قدس سره، الشهير بـ (كَوهر)، المتوفى عام (١٢٦٦هـ).

٥ـ السيد عبد الله بن السيد محمد شبر رضا الحسيني قدس سره، المتوفى عام (١٢٤١هـ).

٦ـ الشيخ مرتضى الأنصاري قدس سره، صاحب كتاب (المكاسب)، المتوفى عام (١٢٨١هـ).

٧ـ الشيخ محمد بن الحسين المامقاني التبريزي قدس سره، المتوفى عام (١٢٦٩هـ).

٨ ـ الشيخ علي نقي بن الشيخ أحمد الأحسائي قدس سره، المتوفى عام (١٢٤٦هـ).

٩ـ الشيخ محمد تقي بن الشيخ أحمد الأحسائي قدس سره.

١٠ـ الشيخ محمد حسن النجفي قدس سره، صاحب كتاب (جواهر الكلام)، المتوفى عام (١٢٦٦هـ).

الجانب الثالث: مصنفاته

خلف الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه) العديد من الآثار الفكرية في مختلف العلوم والمعارف، من كتب ورسائل وشروحات وأجوبة وغيرها[1].

(١) ذكر ـ المعاصر ـ الأستاذ الدكتور حسن الشيخ في كتابه (آخر الفلاسفة): أن مصنفات الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي (أعلى الله مقامه) قد بلغ عددها (١٨٥)، من مصنف ورسائل وأجوبة وشروحات وقصائد وغيرها، وهو أعلى عدد تم رصده لمؤلفاته (أعلى الله مقامه) حتى الآن. [آخر الفلاسفة ـ د. حسن الشيخ: ص٥٥].

وقد اختلف في عددها:

فيذكر آية الله المولى المعظم الميرزا عبد الرسول الحائري الأحقاقي قدس سره[١] في كتابه "التحقيق في مدرسة الشيخ الأوحد"، ما يقرب من (١٧٣) مصنف للشيخ الأحسائي مع شرح مبسط لمحتوياتها[٢].

ويذكر رياض طاهر في فهرسته لتصانيف الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (أن مجموع ما صدر عن المترجم من رسائل وكتب وخطب وفوائد وقصائد (١٥٤)، ومجموع جوابات المسائل (٥٥٥) مسألة، من مخطوط ومطبوع على الأقل)[٣].

ويذكر الشيخ أبو القاسم الكرماني[٤] في كتابه: (أن مجموع آثار الشيخ أحمد تبلغ (١١٥) رسالة، و(٥) خطب، و(٣٥) فائدة، ومراسلة واحدة، تقع في (٣١) مجلداً، فُقِد منها (١١) مجلداً)[٥].

وأهم مصنفاته وأوضحها لفكره أربعة كتب هي:

١ـ شرح الزيارة الجامعة الكبيرة.

---

(١) هو المرجع الديني الراحل المولى آية الله المعظم الميرزا عبد الرسول بن الميرزا حسن بن الميرزا موسى بن الميرزا محمد باقر بن الآخوند محمد سليم الحائري الإحقاقي الأسكوئي، له العديد من المؤلفات، أشهرها: "الولاية"، "التحقيق في مدرسة الشيخ الأوحد"، "تفسير الثقلين". ولد في الكويت عام (١٣٤٨هـ)، وتوفي في عام (١٤٢٤هـ).

(٢) التحقيق في مدرسة الشيخ الأوحد ـ الميرزا عبد الرسول الحائري الأحقاقي: ج١ ص٢٢٩.

(٣) فهرست تصانيف الشيخ أحمد الأحسائي ـ رياض طاهر: ص٣.

(٤) هو الحاج أبو القاسم خان بن الحاج زين العابدين خان بن الحاج محمد كريم خان القاجاري الكرماني، ولد في كرمان عام (١٣١٤هـ)، وتوفي عام (١٣٨٩هـ). [الشيخية ـ الطالقاني: ص٢٦٦ـ٢٦٩].

(٥) فهرست كتب شيخ أحمد أحسائي وسائر مشائخ عظام ـ الشيخ أبو القاسم الكرماني: ص٧٣٥.

٢ـ شرح العرشية، لصدر الدين الشيرازي.
٣ـ شرح المشاعر، للشيرازي أيضاً.
٤ـ الفوائد وشرحها.

الجانب الرابع: وفاته

توفي (أعلى الله مقامه) في يوم الأحد (٢٢) من ذي القعدة عام (١٢٤١هـ) في منطقة تسمى (هدية) بين المدينة ومكة، ونقل جثمانه إلى المدينة المنورة ودفن في البقيع خلف الحائط الذي فيه أئمة البقيع عليهم السلام[1].

(١) الدين بين السائل والمجيب ـ الميرزا حسن الأحقاقي: ج١ ص١١٠.

الرؤيـة الكـونية

من هو خالق هذا الكون؟

وما هي الغاية من خلقنا؟

وإذا كان هناك غاية ؛ فما الطريق الصحيح للوصول إليها؟

وهل هناك نهاية لهذا الكون؟

لقد شغلت قضية الوجود فضول الإنسان منذ القدم، فلا أحد يستطيع أن ينكر بأن جميع هذه التساؤلات وما هو من قَبِيلِها لم تطرأ عليه ولو آنا ما ؛ سواء كانت متعلقة بقضية الوجود الحق ﷻ، أو الوجود المطلق، أو الوجود المقيد[1]، أو حتى بكيفية العلاقة الرابطة بينهما.

فالدافع الفطري والفضول البشري لدى الإنسان نحو الكمال، وانزجاره عن النقص في جوانب شخصيته، استدعياه ومنذ قديم الزمان إلى البحث عن إجاباتٍ تبيِّنُ له ذلك. وبغض النظر عن المصدر الذي استمد منه إجابته ـ إلهياً كان أم لا ـ، فقد اعتبر مجموعة النتائج التي حصل عليها بمثابة الاعتقادات

---

(١) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه) ـ في أقسام الوجودات ـ: ([الوجود الأول]: وجود الحق: وهو الأزل ﷻ. [الوجود الثاني]: وجود مطلق، أي من غير شرط يتوقف وجوده عليه غير نفسه، فلذا سميناه بالمطلق في مقابلة المقيد. [الوجود الثالث]: وجود مقيَّد ؛ وهو المفعول من الدُّرة إلى الذَّرة). [شرح فوائد الحكمة ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٢ ص١١].

والنظريات[١] التي كَيَّفَ أيدلوجيته[٢] على أساسها، ثم أطلقَ عليها ـ فيما بعد ـ مصطلح (الرؤية الكونية)[٣].

الرؤية لغة:

«بالضم: إدراك المرئي، ولذلك أضْربٌ أربعة:

الأول: النظر بالعين التي هي الحاسة، وما يجري مجراها، ومن الأخير قوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾[٤] فإنه مما أجري مجرى الرؤية بالحاسة، فإن الحاسة لا تصح على الله تعالى، وعلى ذلك قوله: ﴿يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ﴾[٥].

الثاني: بالوهم والتخيل؛ نحو أرى أنَّ زيداً منطلق.

الثالث: بالتفكر؛ نحو: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ﴾[٦].

---

(١) الرؤية الكونية التوحيدية ـ الشهيد مرتضى مطهري: ص٨.

(٢) الأيدلوجية (Idelogie): هي النمط الذي ينعكس على الفرد أو المجتمع جراء الركون إلى مجموعة من الإعتقادات؛ ولذا عرفها البعض ـ اصطلاحاً ـ بأنها: (نظام الأفكار المتداخلة؛ كالمعتقدات والتقاليد والمبادئ والأساطير التي يؤمن بها جماعة معينة أو مجتمع معين، وتعكس مصالحها واهتماماتها الاجتماعية والأخلاقية، والدينية والسياسية، والاقتصادية والنظامية). [موسوعة علم الاجتماع: ص٤٨].

(٣) إن مصطلح (الرؤية الكونية) يترادف مع مصطلح (العقيدة) ومصطلح (الحكمة). فقد يقال: رؤيتنا الكونية هي كذا، وقد يقال: عقيدتنا الكونية هي كذا، وقد يقال: حكمتنا هي كذا، فكلها ألفاظ مختلفة لمعنى واحد. فهذا المصطلح يرمز إلى بُعد ديني يتجلى في عقيدة وفكر الإنسان حول مبدأ الوجود. [المعجم الفلسفي: ج٢ ص٢٤٧ـ٢٤٩]. ويصطلح الفلاسفة على الرؤية الكونية اسم (الحكمة النظرية) وعلى الأيدلوجية اسم (الحكمة العملية). [الأيديولوجيا المقارنة ـ الشيخ محمد تقي اليزدي: ص١٠].

(٤) سورة التوبة ـ الآية: (١٠٥).

(٥) سورة الأعراف ـ الآية: (٢٧).

(٦) سورة الأنفال ـ الآية: (٤٨).

الرابع: بالقلب؛ أي: بالعقل؛ وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾[١]»[٢].

الكونية لغة:

من الكون، وهو: مصدر كان التامة؛ يقال: كان يكون كوناً؛ أي: وُجِدَ واستقر[٣]، وقيل: هو الحدث[٤].

الرؤية الكونية اصطلاحاً:

هي علم بأحوال أعيان الموجودات على ما هي عليه بحسب الطاقة البشرية[٥]، أو هي عبارة عن النظرة الفكرية التي يحملها الإنسان حول الوجود والإنسان، وتكون دخيلة في تكوين رؤيته الإعتقادية[٦].

ولو نظرنا إلى أي فلسفة من الفلسفات، أو إلى أي أمة من الأمم على مر التاريخ، فسنجد أنها لا تخلو من رؤية كونية تستمد منها أيديولوجية سيرها في الحياة؛ فاختلاف ثقافة الشعوب ما هو إلا نتيجة اختلاف رؤاهم الكونية.

كما أن لمصدر المعرفة الذي اعتمدت عليه تلك الفلسفة أو الأمة في بناء رؤيتها الكونية دوراً هاماً في وقوع ذلك التباين بينها، فبالرغم من اتفاقها في

---

(١) سورة النجم ـ الآية: (١١).

(٢) تاج العروس ـ الزبيدي: ج١٩ ص٤٣٤.

(٣) لسان العرب ـ ابن منظور: ج١٣ ص٣٦٦.

(٤) تاج العروس ـ الزبيدي: ج١٨ ص٨٧. القاموس المحيط ـ الفيروز آبادي: ج٤ ص٢٦٤.

(٥) شرح العرشية ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٣٦٩.

(٦) الرؤية الكونية الإلهية ـ الشيخ علي العبود: ص١٤.

الجهة المبحوث فيها وهي القضايا الوجودية وما يرتبط بها ؛ إلا أنها تختلف في مصدرها المعرفي الذي أنشأت عليه رؤيتها.

ومن الطبيعي أن يكون هناك تلازم بين المصدر المعرفي وبين مدى قابلية أيديولوجية تلك الرؤية في الإجابة عن سيل التساؤلات الفطرية وغيرها من قِبلِ معتنقيه ، وبينه وبين الحصانة والصمود الذي يوفره لها على مر الزمن[١].

ولو حاولنا حصر مجموع الرؤى الكونية التي يزخر بها قاموس الحضارات البشرية ، فجميعها سوف يكون مندرجاً تحت الأنواع التالية :

١ـ الرؤية الكونية المادية.
٢ـ الرؤية الكونية التجريبية.
٣ـ الرؤية الكونية العقلية.
٤ـ الرؤية الكونية الإلهية[٢].

ومن المعلوم أن الرؤى الثلاثة الأولى ـ المادية ، التجريبية ، والعقلية ـ قد تطورت تدريجياً خلال الأدوار المختلفة لقصة الحضارة الإنسانية ؛ وذلك حينما انحرف الإنسان عن المبلغ والمبيِّن الأساسي للرؤية الكونية الحقيَّة ـ وهم رُسُل السماء ـ ، واعتمد عليها من دون تقنينها بالصبغة الإلهية.

فمنذ القدم حينما احتاج الإنسان إلى إشباع غريزته الفطرية وفضوله البشري حول الوجود ، اعتمد على قوته العاقلة المفكرة للكشف عنه في هذا العالم الفسيح ؛ حيث أنه انطلق بالنظر إلى المواد ـ أي : الأشياء ـ الموجودة في العالم الخارجي أولاً لأنها الأقرب إليه ، وأسَّسَ مجموعة من الاعتقادات

(١) مدخل إلى العلوم الإسلامية ـ الشهيد مرتضى مطهري : ص٨.
(٢) من العلم العلماني إلى العلم الديني ـ مهدي كَلشي : ص١٣ـ١٥.

والنظريات عن طريق مشاهداته للظواهر المادية ـ أو الطبيعية ـ، وما يجري عليها من أحوال متعاقبة، فكوَّن منها نهجاً منطوياً على المادة فقط، واعتقد بأنها المبدأ الأول للأشياء ـ أي: الإله ـ وأن كل شيء صادر منها[١]. أمّا الأمور الغيبية فقد اعتبرها خارجة عن أطار معتقده جملة وتفصيلاً[٢].

وباعتماده على المادة، وجهله أو تجاهله لباقي الأشياء الموجودة حوله، كالأمور الغيبية المتعلقة بعالم ما وراء المادة[٣]، فشل نهجه هذا في تقديم الرؤية الصحيحة حول القضية المبحوث فيها؛ لأن ما توصل إليه لم يكن كافياً للإجابة عن جميع التساؤلات المطروحة بإجابات من شأنها إشباع غريزته الفطرية، ودافعه الإنساني الذي يحثه على ذلك[٤].

ويطلق على أصحاب هذا المنهج (بالطبيعيين أو الماديين)، وعلى رؤيتهم الكونية (بالرؤية الكونية المادية).

ثم تطور الأمر وأدخل التجربة في عملية تفسيراته، واعتقد بأنه لا يمكن الوصول إلى أية حقيقة موضوعية إلا من خلال التجربة التي مصدرها

---

(١) الإسلام يتحدى ـ وحيد الدين خان: ص٢٩.

(٢) نقد أرسطو للفلسفة الطبيعية قبل سقراط ـ عبدالجليل كاظم الوالي: ص٥٦.

(٣) يطلق مصطلح «عالم ما وراء المادة» أو «عالم ما وراء الطبيعة» أو «الميتافيزيقا»، أو ما يعرف حالياً في العلم الحديث «بالبارا بسيكولوجي para psychology» في مقابل عالم المادة أو عالم الطبيعة. ويقصد به: مجموع العوالم الحقيقية المتعالية عن حضيض المادة، كعالم الجبروت، وعالم الملكوت، وعالم المثال، وغيرها. وهو العالم الذي يرى فيه الإنسان حقائق الأشياء على ما هي عليه. وقد ذُكر في القرآن الكريم في مواضع عديدة، منها: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾. [سورة ق ـ الآية: (٢٢)]. [انظر: البارا بسيكولوجي ـ سامي أحمد الموصلي: ص٣٣].

(٤) فلسفتنا ـ السيد الصدر: ص١٨٧.

الإحساس، وأن كل شيء غير خاضع لها أو للملاحظة المباشرة بالحواس لا يمكن الاعتماد عليه[١].

وبما أن المنهج التجريبي الحسي له حدوده العلمية في التعرف إلى ظواهر الأشياء المادية دون حقائقها فضلاً عما وراء الطبيعة، قاده ذلك إلى إنكار جميع الأمور التي تغيب عن شهادة الحواس، كإنكار الخالق ـ مثلاً ـ؛ لأنه غير خاضع للتجربة أو الإحساس[٢].

ويطلق على أصحاب هذا المنهج (بالتجريبيين أو الحسّيين)، وعلى رؤيتهم الكونية (بالرؤية الكونية التجريبية).

وبعد فشل المعرفة الحاصلة من جراء الحس في تقديم رؤية كونية صحيحة له، ركز قوة بحثه على العقل، فحوله من أداة كاشفة إلى مصدر يستقي منه المعرفة، وقال بأن الحقيقة تنبع منه فقط[٣]، وجعله القول الفصل في الحكم على الأشياء، واعتمد على التسلسل المنطقي في البحث والتفكير، مبتدئاً بالفروض والكليات البديهية للوصول إلى قواعد عامة مُسَلَّم بها[٤].

---

(١) الطريق إلى الإشتراكية العربية: ج٢ ص٦٢.

(٢) عقيدتنا ـ الشيخ عبد الله نعمه: ص٩٣. الرؤية الكونية التوحيدية ـ الشهيد مرتضى مطهري: ص١٣.

(٣) مدخل إلى الفلسفة العامة ـ د. حسن الشافعي: ص١١١ـ١١٢.

(٤) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (إن معرفة الله سبحانه ومعرفة الأشياء كما هي في أصل البدء، لا ينال من ذلك بالقوانين المنطقية، لأن المنطق مبني على مدارك عقولهم الاكتسابية، وعلى ما يفهمون من دلالة الألفاظ. والألفاظ وضعها الله سبحانه وتعالى بعلمه، كما اطلع عليه أهل العصمة عليهم السلام، وقد أخبروا أنها على سبعين وجهاً، واللغة التي يتعاطونها الناس وبني عليها علم المنطق وجه واحد من سبعين، فكيف يكون عقل أسّسوا مداركه على وجه واحدٍ من سبعين يعرف شيئاً أصله مبنيّ على سبعين وجهاً). [شرح المشاعر ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٩٨ـ٩٩].

وهذا المنهج خطى خطوة للأمام في الإجابة عن التساؤلات المتعلقة بقضايا الوجود، وكيفية ارتباطها؛ إلا أنه لم يَسلَم من النظريات التي تصادمت مع الشرائع السماوية؛ ولعل السبب في ذلك يعود إلى تأليههم للعقل، وإعطائه حجماً أكبر من حجمه بكثير، وجعله المعيار الوحيد للمعرفة من دون استناده إلى الوحي الإلهي[١]، مما دفعهم إلى إنكار جملة من القضايا الإلهية القطعية، كقولهم باستحالة المعاد الجسماني عقلاً وغيره[٢].

ويطلق على أصحاب هذا المنهج (بالعقليين)، وعلى رؤيتهم الكونية (بالرؤية الكونية العقلية).

ومن الواضح ابتعاد تلك المناهج عن المشكلة الأساسية المتناولة لديها، والتي هي تحديد أجوبة الأسئلة الوجودية وما يتعلق بها، وانشغالها بمشكلة مصدر المعرفة الذي بات كالمعضلة أمامها.

فنْشدان الأجوبة الحقيقية بات متوقفاً على مصدرٍ متصفٍ بالثبات لا التغير، والمطلقيّة لا النسبيّة. وبشكل أعمّ لابد أن يكون مساوياً للحقيقة؛ لأن المعرفة هي الحقيقة، يقول الدكتور بول كليرانس ابرسولد:

---

(١) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (ولو أنهم ـ أي المتكلمين والحكماء ـ رجعوا في تعقلهم وفهمهم إلى ما وصف به نفسه؛ لاستقام اعتقادهم، مثل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى ـ الآية: (١١)]، فإن من صدَّق الله بما أنزل في كتابه؛ بأنَّه تعالى ليس كمثله شيء، لم يقل بأن الوجود يصدق على الرَّب والعبد حقيقة بطريقة الاشتراك المعنوي؛ لاستلزام ذلك المساواة، التي هي أشدُّ من المماثلة. ومن قال: بالاشتراك المعنوي؛ فإنه عول على مدلولات الألفاظ، فإن وجود الله تعالى عنده وجودٌ في الحقيقة، ووجودُ العبد المخلوق الفاني وجودٌ في الحقيقة). [شرح الفوائد ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص١٩٠].

(٢) الحقائق والدقائق في المعارف الإلهية ـ الشيخ فاضل الصفار: ج١ ص٣١.

(وقد أدرك رجال العلم أن وسائلهم وإن كانت تستطيع أن تبيِّن لنا بشيء من الدقة والتفصيل كيف تحدث الأشياء، فإنها لا تزال عاجزة كل العجز عن أن تبيِّن لنا لماذا تحدث الأشياء..)[١].

وهذا ما تميز به مصدر الرؤية الرابع ـ الرؤية الكونية الإلهية ـ، فما حملته الشرائع السماوية بين طياتها منذ دعوة أبينا آدم عليه السلام، وحتى دعوته صلى الله عليه وآله وسلم، كان كافياً ووافياً للإجابة عن جميع تلك التساؤلات الوجودية؛ سواء مما له شأن في تحقيق المعرفة المطلقة التي يسعى لها الإنسان، أم في غيرها[٢].

كما أنه شمل بين طياته أبعاد الرؤى الأخرى، يقول الفيلسوف الفرنسي هنري كوربون:

(فلنكتفي الآن بأن نؤكد هذا الواقع، وهو أن علم نبوة الأئمة يتضمن بالضرورة ثلاثة من العوالم ـ المحسوس والمتخيل والمعقول ـ وهذا تطابق ثلاثية علم الإنسان ـ الانثروبولوجيا ـ وهي الجسم والروح والعقل)[٣].

ويمكننا بيان ذلك من خلال القرآن الكريم:

فهو يحث على الرؤية الكونية الطبيعية في قوله عز وجل: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم ـ بول كليرانس ابرسولد: ص٣٩.

(٢) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (لأن المعنى المقصود هو معرفة الله سبحانه، كما وصف نفسه به على ألسنة أوليائه، لا على ألسنة المتكلمين والحكماء، فإذا كان تعالى أكمل الدين لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم، ونبيه قد استحفظه كله عند أوصيائه (عليه و عليهم السلام)، قال الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾.[سورة المائدة ـ الآية: (٣)]، فمن أراد أن يعرف الله بعقله؛ فليعرفه بما وصف به نفسه، ولا وصف نفسه إلا على ألسنة أوليائه عليهم السلام، فالواجب أن ينظر فيما قالوا، ويفهم ما أرادوا).[شرح الفوائد ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص١٨٨ـ١٨٩].

(٣) تاريخ الفلسفة الإسلامية ـ هنري كوربون: ص١٠٩.

فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١]، وفي قوله ﷻ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۞ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۞ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۞ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[٢].

وفي قصة نبي الله إبراهيم عليه السلام يظهر لنا تصوير بليغ يدل على الرؤية الكونية التجريبية، قال ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٣].

أمَّا في جانب الرؤية الكونية العقلية ـ فحدّث ولا حرج ـ فقد وردت العديد من الآيات التي تتضمن هذه العبارات: أفلا يعقلون، يتفكرون، لعلكم تعقلون، لعلكم تتفكرون. وكان من جملتها: قوله ﷻ: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾[٤]، وقوله ﷻ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٥]، وقوله ﷻ: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ

---

(١) سورة العنكبوت ـ الآية: (٢٠).

(٢) سورة الغاشية ـ الآيات: (١٧ـ ١٨ـ ١٩ـ ٢٠).

(٣) سورة البقرة ـ الآية: (٢٦٠).

(٤) سورة يس ـ الآية: (٦٨).

(٥) سورة الحشر ـ الآية: (٢١).

تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاء فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

فدليل أو مصدر الرؤية الكونية الإلهية الإسلامية[2] هو القرآن الكريم، وما وصلنا من أخبارهم عليهم السلام، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا

---

(١) سورة البقرة ـ الآية: (٢٦٦).

(٢) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (دليل الحكمة: هو الحكمة العلميَّة والعمليَّة معاً بشروطهما؛ لأن أحدهما لا يكفي عن الآخر، وإن كان بشروطه.

[وشروط الحكمة العلمية]:

١ـ أن يجمع قلبه على استماع المقصود، والتوجه إليه من غير أن يريد العناد والرد؛ لأنه لو استمع وهو يريد الرد والعناد، كان منشغلاً بغير ما هو بصدده، فيتفرق قلبه، ولا يفهم المراد.

٢ـ أن لا تركن نفسه إلى ما أنست به، فإن حب الشيء يعمي ويصم، حتى أنه يصعب عليه مفارقة ما عنده؛ وإن ظهر له كونه مرجوحاً، فيتكلف في الجواب عما يخالفه.

٣ـ أن لا يعتمد على مجرد ما عنده من القواعد والضوابط، فإن من اعتمد على ذلك غالباً لا يكاد يصيب الحق، بل يرى كل ما يوافق قواعده صحيحاً، وإن كان عند نفسه مرجوحاً، فإذا التفت إلى مرجوحيَّته، أغمض عنه اعتماداً على قواعده، ويرى كل ما يخالفها باطلاً، وإن كان وجد في نفسه راجحيَّته أو حقّيّته اتكالاً على قواعده، ولعل الغلط إنما هو في قواعده، إما في أصل صِحَّتها، أو في عمومها.

فإذا ترك العناد والركون والأنس بالمسألة، وعدم الالتفات إلى القواعد، وإنما ينظر فيما يرد عليه من الكتاب والسنة، وفيما أراه الله تعالى من آياته في الآفاق وفي نفسه، بمحض فهمه وذكائه، بحيث يكون متعلماً من الكتاب والسنة وآيات الله سبحانه، قابلاً منها، مصدقاً لها، فيكون تابعاً، ولا يكون مؤولاً للكتاب والسنة وآيات الله سبحانه على ما يُلائم مراده وشهوته، فيكون متبوعاً، وهي تابعة له.

[وشروط الحكمة العملية]:

١ـ أن يكون مخلصاً لله عز وجل في توحيده وعبادته، بحيث لا يكون له غرض إلا رضى الله سبحانه في كل شيء.

فإذا تمت له شروط العلم وشروط العمل جميعاً على الوجه المطابق للكتاب والسنة؛ حصل له دليل الحكمة، الذي لا يعرف الله إلا به). [شرح الفوائد ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص١٩٥ـ١٩٦ـ١٩٧].

نهَـاكُمْ عَنْهُ فَـانتَهُوا﴾[١]، والعقـل الـذي يكـون تابعـاً للشـرع لا متبوعـاً، فعـن الثمالي قال: قال علي بـن الحسين عليه السلام: «إن ديــن الله لا يصــاب بالعقــول الناقصــة والآراء الــباطلة والمقــاييس الفاسـدة، ولا يصـاب إلا بالتسـليم، فمن سلم لنا سلم ومن اهتدى بنا هـدي، ومـن دان بالقيـاس والـرأي هلـك، ومن وجد في نفسه شيئاً مما نقوله أو نقضي بـه حرجـاً كفـر بالـذي أنـزل السبع المثاني والقرآن العظيم وهو لا يعلم»[٢].

ونستخلص مما تقدم:

أنَّ الرؤية الكونية الإسلامية المحمدية قد فضت مضاجع الـرؤى الأخـرى، وحكمت سطوتها من خلال القداسة والروحانية التي حملها مصدرها.

فهي كاملـة الجوانـب مترامية الأطـراف، ولهـا أبعـاد تتخطـى رتبـة قابليتنـا البشـرية[٣]، ومهمـا وصـل الإنسـان في مراتـب إيمانـه، أو ترقـى في مقامـات كمالـه، فهنـاك حـد لا تسـتطيع معـه قابليتـه البشـرية إدراك مـا هـو أعلـى مـن رتبتها، كرتبة الحقيقة المحمدية، قال عليه السلام: «قولوا فينا ما شئتم ولن تبلغوا»[٤].

---

(١) سورة الحشر ـ الآية: (٧).

(٢) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٢ ب٣٤/ البدع والرأي والمقاييس ص٣٠٣ ح٤١.

(٣) يقول آية الله العظمى السيد كاظم الحسيني الرشتي قدس سره: (ثم دونه أي تحت الأزل، وفوق جميع مراتب الإمكان، الحقيقة المحمدية ـ صلوات الله وسلامه عليها ـ فتوحيده أتم التوحيدات، وأعلاها وأشرفها، لكونها أول مظهر للذات بأول ظهور، الذي هو نفس الظاهر، فاتّحد الظهور والظاهر والمظهر فيه صلى الله عليه وآله، فظهر الحق له به نفسه، بدون توسّط شيء سوى نفسه، فله مقام في التوحيد لم يبلغه أحد من الموجودات الإمكانية والأعيانية، لكن توحيده بالنسبة إلى توحيد الحق تعالى ناقص، بل شرك). [تفسير آية الكرسي ـ السيد كاظم الرشتي: ج١ ص٣٠٦ـ٣٠٧].

(٤) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٢٥ ب/ نفي الغلو في النبي والأئمة صلوات الله عليهم ص٢٦١ ح٢٠.

وهي المصدر الوحيد للمعرفة الحقّة لنا، والذي من شأنه أن يُلبّي جميع احتياجاتنا البشرية إلى يوم القيامة؛ سواء كانت فردية أو جماعية أو غيرهما. ومن دونه لا تخلو أي رؤية كونية من الجهل والأوهام والخرافات، فما أكثر من حاول سلوك الطرق الملتوية، فكان مصيره الخسران في الدنيا والآخرة، قال ﷻ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾[1]، وقال عليه السلام: «حيث ذهب من ذهب، فإنما ذهب الناس إلى عيون كدرة يفرغ بعضها في بعض، وذهب من ذهب إلينا إلى عيون صافية تجري عليهم بإذن الله تعالى لا انقطاع لها ولا نفاد»[2].

فأول ما يجب أن يؤخذ في حسبان كل طالب لمراتب الكمال الإعتقادية، أن يكون إيمانه قائم على رؤية كونية صحيحة، وتحقيق هذه الغاية لا يكون إلا بما دلَّنا عليه أهل البيت عليهم السلام؛ لأنهم الباب الذي يقودنا إلى ما نطمح إليه، وهو تحصيل المعارف الإلهية الحقيقية[3].

---

(١) سورة آل عمران ـ الآية: (٨٥).

(٢) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج١ ك/ الحجة ب/ معرف الإمام الرد إليه ص١٨٤ ح٩.

(٣) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (وأمَّا الإيمان الحقيقي لا يكون حاصلاً للأنفس كما هو المدَّعى بالبراهين الاصطلاحيَّة، وإنما يَحْصُلُ ببراهين أهل البيت عليهم السلام ولا يَهْتَدي إليها إلاَّ من اتبعهم في الأعمال والأقوال). [شرح المشاعر ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٤١.

علم العقيدة قُنِّنَ لكمال الإنسان

علِمْنا فيما سبق أن علم العقيدة المتمثل فيما جاء به أهل البيت عليهم السلام هو المصدر الوحيد لتحصيل المعارف الإلهية الحقَّة، والتي يمكننا من خلالها تكوّين إيديولوجية صحيحة نسير عليها صعوداً نحو الكمال[1].

وفي هذا الأمر سوف نحاول أن نكتشف من أي العلوم هو علم العقيدة؛ لأن معرفة طبيعة نوع أي علم تمكننا من تحديد غرضه، واكتشاف مدى قوته من حيث شموليته في العطاء، وحصانته في الاستمرار والبقاء.

فهناك العديد من العلوم التي اتُخِذت كقوانين تبيّن فشلها مع مرور الزمن، وهذا الفشل إمّا هو بسبب عدم شموليتها، أو بسبب تصادم ما أنتجته من معتقدات مع أبسط الأمور لدينا، كالوجدان مثلاً، هذا فضلاً عن تصادمها مع العديد من الجوانب في الشرع[2].

---

(١) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (الصراط هو الطريق وهم عليهم السلام صراط الله؛ أي طريق الله إلى خلقه في الخلق والرزق والحياة والممات، وهم طريق الخلق إلى الله في جميع مطالبهم في ذرات الأمور الأربعة المذكورة، التي هي أركان ما في الإمكان. فجميع الخلائق يسعون إلى الله تعالى، أي إلى ما منه بدؤوا في مطالبهم بأعمالهم وأقوالهم وأحوالهم ووجوداتهم وقوابلهم وجميع استعداداتهم، فالجعل الذي ذرأ فيه جميع الخلائق بما هم عليه لما هم له عنهم عليهم السلام صدر بهم وظهر فيهم وبطن واستتر، فالخلائق قائمون بظلهم الذي مَدَّهُ الله سبحانه وجعل الدليل عليه شمس حقيقتهم). [شرح الزيارة الجامعة الكبيرة ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٢٨٥].

(٢) لماذا الدين ضرورة حتمية؟ ـ د. هوستن سميث: ص٥.

فاعلم ـ عزيزي القارئ ـ إننا حينما نحاول النظر إلى وجداننا[١]، نجزم يقيناً بأنه لا غنى لنا عن العلم من أجل بلوغ السعادة في النشأتَين، وإنّ الإنسان بطبيعته لا يتمكن من عيش الحياة الحسنة التي تناسبه إلا عن طريق باب العلم وما يتخلله[٢].

فنحن نحيا في هذه الحياة ونلاحظ بأن للعلم مدخلية في سبك مختلف أطر الكمال لنا؛ ولذا وردت العديد من الروايات على وجوب طلبه وأهمية الحث عليه، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أيها الناس اعلموا أن كمال الدين طلب العلم والعمل به، ألا وإن طلب العلم أوجب عليكم من طلب المال، إن المال مقسوم مضمون لكم، قد قسمه عادل بينكم، وضمنه وسيفي لكم، والعلم مخزون عند أهله، وقد أمرتم بطلبه من أهله فاطلبوه»[٣].

وإذا سلطنا توجهنا نحو مفهوم العلم، فسنجد أنه على صنفين هما[٤]:

١ـ صِنْفٌ يعطي الإنسان الرفاه

من قبيلِ: علم الطب الذي يعطي الإنسان الرفاه حينما ينقله من حالة المرض إلى حالة الصحة، وعلم الاقتصاد الذي يعطيه الرفاه حينما يعالج

---

(١) لا نقصد بمصطلح «الوجدان» هنا معناه من الناحية الفلسفية أو المنطقية؛ بل نقصد به الشعور الداخلي لدى الإنسان، وقدرته على التمييز بين الأشياء ولو بشكل مجمل، وإطلاق الأحكام عليها إيجابية كانت أم سلبية.

(٢) العلم والعمل ـ د. أبي عبد الله محمد رسلان: ص٣.

(٣) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج١ ك/فضل العلم ب/ فرض العلم ووجوب طلبه والحث عليه ص٣٠ ح٤.

(٤) إن لحاظ هذا التقسيم (لمفهوم العلم) ناظر إلى الحيثية التي تتكفل بصنع الحياة الملائمة للإنسان ليصل إلى غايته في هذه الحياة وهي الكمال، فتقسيمه بهذه الكيفية قد تم بغض النظر عن حيثياته الدينية أو الدنيوية؛ وإلا فللعلم تقسيمات عديدة.

مشاكله الفردية والاجتماعية، وينتشلهما من عش الأزمات الاقتصادية إلى حالة الاستقرار المادية والمعنوية.

وهكذا مع بقية سائر العلوم الأخرى التي من شأنها أن تعطي الإنسان الرفاه: كعلم الفلك، وعلم الفيزياء، وغيرهما.

٢ـ صِنْفٌ يُقَنّن حياة الإنسان

من قبيلِ: علم الدين، علم القانون، علم النفس، وعلم الأخلاق، وغيرها. فهذه العلوم من شأنها أن تُقَنّنَ حياة الإنسان لكي تستمر بشكل متناسق؛ وذلك من خلال إتباع قوانينها الإلهية أو البشرية المعروضة فيها[1].

ومن المعلوم بأن العلوم التي تعطي الإنسان الرفاه تُعتبر لا قيمة لها من دون العلوم التي تُقَنّن حياته، ولا عكس.

فلو علَمْناهُ العلومَ التي تعطيه الرفاه فقط من دون تعليمه شيئاً يُقَنّنها؛ فحينئذٍ سيحدث التنازع فيما بين الناس، ودمار الحياة الإنسانية؛ لأن كل إنسان يريد أن يستعمل ذلك العلم لتحصيل منافعه الشهوانية أو الشخصية، من دون النظر إلى الغاية الإلهية الأسمى في منفعة البشرية.

فما قيمة مهارة الطبيب في طبابته لو خلت نفسه من علم الأخلاق، ومارس الطب لمصالحه الشخصية فقط، كالسعي خلف المادة مثلاً؟ وما قيمة تعلم صنع قنبلة نووية من دون تقَنّين استخدامها بضوابط معينة؟

---

(١) مدخل إلى العلوم الإسلامية ـ الشهيد مرتضى مطهري: ص٥ـ٦.

فالعلوم التي تعطي الإنسان الرفاه في الحياة لا يمكنها تكوين بيئة ملائمة له من دون العلوم التي تُقَنّنها.

ووجود العلوم المُقَنّنة بالقوة، لا يعني بالضرورة وجود الحياة الملائمة له؛ لأن النتيجة مرتبطة بتطبيقها على أرض الواقع. فوجود قوانين السلامة ـ مثلاً ـ في عقل الإنسان من دون التقيد بها أثناء القيادة، لا يمكنها أن تحفظ سلامته، أو سلامة الآخرين من حوله[١].

كذلك هو الحال عندما نتساءل عن سبب التخلف في العالم الإسلامي، في حين أن الغرب قد خطى خطوة لا بأس بها في سُلَّمِ الازدهار والتقدم؛ فالسبب لا يكمن في وجود أو فقدان الإسلام، بل بالتمسك بتعاليمه بشكل حقيقي، فإنه إذا تمَّ ذلك تحققت مَزِيَّةُ العُلّو للإسلام[٢]، كما قال رسول الله ﷺ: «الإسلام يعلو ولا يعلى عليه»[٣].

أمّا في حالة عكس القضية ـ أي في حالة وجود العلوم المُقَنّنة من دون العلوم التي تعطيه الرفاه ـ، كما لو فرضنا أن الإنسان يملك علم الدين وعلم الأخلاق فقط؛ فإن منفعة هذه العلوم المُقَنّنة سوف تكون أكثر وأكبر، وتنظيم وتوفير الحياة الحسنة له سيكون متحققاً البتة.

وهناك توهم مدفوع هو:

لو كان للعلوم المُقَنّنة كل هذه القدرة في جوانبها؛ فلماذا نرى العلوم التي

---

(١) الهدف السامي للحياة الإنسانية ـ الشهيد مطهري: ص١٤.

(٢) من العلم العلماني إلى العلم الديني: مهدي كلشي: ص١٧.

(٣) من لا يحضره الفقيه ـ الشيخ الصدوق: ج٤ ص٤٣٤.

تعطيه الرفاه متربعة فوق سُلَّمِ الصدارة، ومشتملة على كل جوانب الصيت والشّياع في الحياة؟

والدفع: إن بخس العلوم المُقَنّنة بالتغافل أو الجهل؛ ليس إلا بسبب نظرة الناس للجنبة الشخصية أو المادية أو غيرهما، فترى الفضل للعلوم التي توفر له الرفاه متقدمة مجازاً لا حقيقة؛ ولكننا بالنظر إلى الوجدان نحكم بأن العلوم المُقَنّنة هي التي تكون نافعة لحياتهِ في كل الأحوال[١].

وتنقسم العلوم المُقَنّنة إلى:

١ـ علوم مُقَنّنة إلهية: أنزلها الله ﷻ إلى البشر عن طريق الرسل والأنبياء والأئمة عليهم السلام.

٢ـ علوم مُقَنّنة وضعية: صنعها ووضعها البشر بأنفسهم.

والعلوم المُقَنّنة الوضعية وإن كانت تخدم الإنسان في جانبٍ معين؛ إلا أن قصور أصولها يجعل أغلبها غير صالحٍ لتكوين حياة مثالية له[٢].

فكم من نظرية أتى بها البشر تَبيَّنَ بطلانها بعد مدة من الزمن؟ وكم من قانون بشري تم وضعه وأحدث سلبيات على الحياة الإنسانية أكثر من الإيجابيات التي كانت متوقعة منه؟

وكذلك فإن مصير الحياة الإنسانية متوقف على رؤية كونية صحيحة، والعلوم المُقَنّنة الوضعية محدودة الأطر؛ لأنها من صنع

(١) الدوافع نحو المادية ـ الشهيد مرتضى مطهري: ص١٠٣.

(٢) من العلم العلماني إلى العلم الديني: مهدي كلشي: ص١٦.

البشر، وما كان هكذا لا يمكنه أن يتعدى إطار البشرية، لا يمكنه أن يبيّن لنا الماهية الحقيقية لهذه الرؤية الكونية.

أمَّا العلوم المُقَنّنة الإلهية فهي ثابتة الأصول، وصالحة لكل زمان ومكان، ولديها إجابات شافية لكل ما يتعلق بالرؤية الكونية وغيرها، فتقنّنها قد تم لهذه الحياة وما قبلها وما بعدها[١]. وفيها أصول وفروع[٢] كغيرها من سائر العلوم الأخرى، وقطعاً أن أصولها بمثابة الذاتيات التي لا يمكن سلبها عنها؛ فالأصل أولى من الفرع، ومتقدم عليه شرفاً ورتبةً[٣].

ونستخلص مما تقدم:

أنَّ علم التوحيد أو علم العقيدة ـ الذي آلته دليل الحكمة[٤] ـ يتفرَدُ عن

---

(١) عقيدتنا ـ الشيخ عبد الله نعمة: ص٣٥.

(٢) نقصد بالأصول والفروع هنا: أصول الدين الخمسة وهي: التوحيد والعدل والنبوة والإمامة والمعاد الجسماني. أما الفروع هي واجبات الدين العشرة: الصلاة، الصيام، الزكاة، الخمس، الحج، الجهاد، الأمر بالمعروف، النهي عن المنكر، الولاية، والبراءة.

(٣) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (وإنما كانا من أشرف العلوم [معرفة الله الحقيقية، ومعرفة اليوم الآخر] لأن العلم قسمان: قسم يطلب لذاته، وقسم يطلب لغيره، والذي يطلب لذاته هو في النهاية، فيكون لا شك أشرف من الذي إنما يطلب بالعرض، أي: لغيره، والذي يطلب لغيره قد يكون يطلب له غيره، فتكون أشرفيته إضافية.
ولا ريب أن هذين العلمين أشرف من سائر العلوم الشرعية، سواء عللت الأشرفية بالفرق بين المطلوب لذاته، والمطلوب لغيره، أم بكون أشرفية العلوم بأشرفية موضوعاتها، لأنهما أشرف العلوم الحقيقية على الاعتبارين، لأن العلوم التي بها يصير الإنسان من حزب ملائكة الله المقربين). [شرح العرشية ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٦٥ـ٦٨].

(٤) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (والأصل في ذلك أن العلوم النافعة ثلاثة؛ كما في الحديث النبوي ﷺ: (آية محكمة، وفريضة عادلة، وسنة قائمة، وما خلا ذلك فهو فضل). [الكافي: ج١ ص٣٢]. ومعلوم عند أهل العلم العياني أن دليل الحكمة للآية المحكمة، أي: علم التوحيد وما يلحق به. ودليل الموعظة الحسنة للفريضة العادلة، أي: علم الأخلاق وتهذيب النفس. ودليل المجادلة بالتي هي أحسن للسنة القائمة، أي: علم الشريعة). [شرح الفوائد ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٢٢٤].

باقي العلوم الإلهية الأخرى ؛ لأنه الأصل ، وأنَّ قداسته الإلهية أعطته الحصانة المتينة ، وجعلته الحاجز المنيع لصدّ جميع الدواعي الإعتقادية الفاسدة المحيطة بالإسلام ، وأن روحانيته وذخيرته الحيّة بمدّ الإنسان بجميع معاني الكمال ضَمَنت له الاستمرار والصمود عبر القرون.

فتقنينه لم يكن من أجل الحد من حريتنا كما يتوهمَّه ضعفاء الإيمان ، بل هو من أجل كمالنا الوجودي ورقينا الحضاري ؛ فهو نعمة من نعم رب السماء.

تعريف العقيدة الدينية

إنّ حصيلة الاعتقادات التي يحملها الإنسان في داخله بشأن الرؤية الكونية ؛ سواء تم تحصيلها بالفطرة أو الاكتساب[1]، لا تكون عادة مجدية وفعالة بمجرد تعقلها، أو بمجرد إمكانية الاستدلال عليها بالبراهين ؛ بل لا بد من استنادها إلى الفؤاد والنقل أولاً وبالذات[2]. نعم، يمكن أن يقال بأن تعقلها وقوة الاستدلال عليها ـ لو طابقت الشرع ـ هو مجرد وسيلة لا غاية ؛ إلا أن توفر أو امتلاك الوسيلة لا يعني بالضرورة ضمان الوصول إلى الغاية[3].

---

(١) نقصد بالإعتقادات الفطرية: مجموعة القضايا التي لا تحتاج إلى مقدمات عقلية، بل يستطيع الكل التوصل إليها ؛ سواء كان متعلماً أم أمياً، حكيماً أم غير حكيم. أمَّا الإعتقادات المكتسبة: هي مجموعة القضايا التي تفتقر إلى المقدمات الفكرية والعقلية من أجل التوصل إليها.

(٢) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (وإنما انحصر دليل الحكمة الاصطلاحي في إدراك الفؤاد، لأنه هو الذي يدرك الشيء مجرداً عن جميع ما سوى محض وجود الشيء، مع قطع النظر عن جميع عوارض الشيء الذاتية، كأركان القابلية ومتمماتها والعارضية، بلا إشارة ولا كيف، ولا يحصل من غير الفؤاد، فلذا كان محل المعرفة. وأما النقل ؛ والمراد به الكتاب والسنة. ومعنى كونهما مستنداً لذلك الدليل، أنهما محل استنباطه، لاشتمالهما على الاحتجاج به على وجه لا يحتمل الخطأ والغفلة). [شرح الفوائد ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٢٠٨].

(٣) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (ولو كانت طريقة أهل علم الحكمة المعروفة والمنطق وأمثالهما مما يوصل إلى الحق من الطريق الأقرب لاستعملوه أهل البيت عليهم السلام، لأنهم لا يجهلونه، وإنما عدلوا عنه إلى دليل الحكمة، لكون ذلك كثير الأغلاط ومنشأ للشبه، وصارفاً للأنظار عن الأمور الوجدانية إلى المفاهيم اللفظية والتخيلية التي لا تعني من الحق شيئاً، ولو صح منها شيء أوصل إلى الحق بالطريق البعيد المشتمل على الظلمات والشبهات). [شرح المشاعر ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص١٠١ـ١٠٢].

فالعقل وسيلة ـ وحجته متوقفة على تطابق نتائجه مع الشرع ـ، والرسل والأنبياء والأئمة عليهم السلام وسيلة؛ إلا أن وجود تلك الوسائل لا يعني بالضرورة أن جميع البشر مؤمنون، أو حتى موحدون[١].

فالكثير منا يتعقل قضية السكن في المريخ ـ مثلاً ـ عن طريق الوسائل المتعددة؛ ولكنه ليس بالضرورة أن يكون مؤمناً بها.

وكذلك الكفار لهم أبحاث واستدلالات عديدة في إثبات صانع لهذا الكون، وأن هذا الكون لم يُوجِد نفسه بنفسه؛ ولكن تراهم لا يؤمنون بذلك الصانع وقدرته، مهما ظهرت لهم آثاره الواضحة والجلية أمامهم[٢].

والمخالفون تراهم يحملون صورة الإسلام بتلفظهم بالشهادتين، وحجة الإمامة متوفرة لهم؛ إلا أنهم لم يدركوا حقيقة الإيمان، ولهذا قال الله عز وجل: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٣].

فأساس ثمرة المعتقد الديني إذاً ليس مجرد حضور صورة شيء في الذهن

---

(١) يقول العلامة الشيخ محمد آل أبي خمسين قدس سره ـ في توحيد العبادة ـ: (ولهذا لولا الأنبياء والرسل يبلغونها، وينذرونها، ويوعدنها بالوعد والوعيد، لم يوحدوه تعالى أبداً، ومع هذا كله ترى أكثرهم كافرين). [مفاتيح الأنوار ـ العلامة الشيخ محمد آل أبي خمسين: ج١ ص١٤٨].

(٢) ثم صار المخ عقلاً ـ د. عمرو شريف: ص٢١٦.

(٣) سورة الحجرات ـ الآية: (١٤).

أو جريانه على اللسان؛ بل هو ظهور وتجلي نور ذلك الشيء في الفؤاد بوثوق وإحكام، أي: عقد القلب عليه لأنه وزيره[١].

ولذا قالوا بأن العقيدة ـ **لغة** ـ: مشتقة من العقْد، وهو الجمع بين أطراف الشيء بوثوق وإحكام[٢].

وهذا ما دل عليه جواب أمير المؤمنين عليه السلام لذعلب اليماني حينما سأله: هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام: «أ فأعبد ما لا أرى. فقال: وكيف تراه؟ فقال عليه السلام: لا تدركه العيون بمشاهدة العيان؛ ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان»[٣].

وقال عليه السلام ـ أيضاً ـ: «لولا أن الشياطين يَحُومون على قلوب بني آدم؛ لنظروا إلى ملكوت السموات والأرض»[٤].

وهذا العقد الديني لا يكون محكماً إلا بمعونة النقل لا بمعزل عنه؛ لأنه المصدر الذي يعصمه عن الخطأ والزلل في الشبهات وغيرها، ولا يكون باستقلال العقل؛ لأن حجيته متوقفة عليها، أي: على الكتاب والسنة.

---

(١) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (أن الفؤاد هو الوجود، والذي يعرف الله، وبه يعرف الله، وهو في الإنسان بمنزلة الملك في المدينة، والقلب بمنزلة الوزير... لأن مشاعر الإنسان [ثلاثة]: [الأول]: الصدر؛ والمراد به الخيال والنفس الكلية، التي هي محل الصور العلمية، كلية أو جزئية، فهو محل العلم، ويقابله الجهل. [الثاني]: القلب؛ وهو محل المعاني واليقين بالنسب الحكمية، ويقابله الشك والريب. [الثالث]: الفؤاد؛ وهو محل المعارف الإلهية، المجردة عن جميع الصور والنسب، والأوضاع والإشارات، والجهات والأوقات، ويقابله الإنكار؛ فهو إذن أعلى مشاعر الإنسان). [شرح الفوائد ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٢٠٨ـ٢٠٩].

(٢) معجم مقاييس اللغة: ص٦٥٤/ مادة (عقد).

(٣) نهج البلاغة ـ الشريف الرضي: ج٢ ص٩٩ خطبة رقم (١٧٩).

(٤) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٦٠ ب٣/إبليس ـ لعنه الله ـ وقصصه... ص٣٣٢ ح١٧٧.

أمَّا العقيدة الدينية ـ **اصطلاحاً** ـ: هي معرفة أصول الدين الخمسة[١]، كما جاء على ألسنة أوليائه عليهم السلام، ولو بالدليل المجمل لا المفصل[٢].

وقد يتصور الكثير ـ من العوام ـ أن قضية عدد أصول الدين توقيفيَّة، ولكنها ليست كذلك. فهذا الأمر ليس محل وفاق عند جميع العلماء، فليس هناك دليل نقلي يثبت لنا خماسية أصول الدين، أي: أنه لا توجد لدينا آية أو رواية صريحة تقول بأن عدد أصول الدين خمسة ـ بحسب ما هو معروف ـ.

فالذائع بين المتأخرين[٣] أن أصول الدين منحصرة في أصلين هما: التوحيد والنبوة. وأمّا بالنسبة للعدل والإمامة والمعاد فقالوا: بأن العدل داخل في التوحيد فلا يُعَدّ أصلاً؛ لضرورة أنّه ليس للعدل ميزة تميزه عن باقي الصفات الإلهية، ولو كان مصنفاً ضمن أصول الدين لوجب أن نعد الصفات الأخرى من أصول الدين أيضاً، والحال أن لا أحد يلتزم بذلك إطلاقاً. ومن

---

(١) الحقائق والدقائق في المعارف الإلهية ـ الشيخ فاضل الصفار: ج١ ص١٢.

(٢) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (والمراد بالمعرفة التي لا يثبت الإسلام إلا بها، اعتقاد وجود صانع ليس بمصنوع، وإلا لكان له صانع، ومعرفة الصفات التي تثبت لذاته، وهي ذاته، وإلا لتعددت القدماء. و[معرفة] الصفات التي تثبت لأفعاله، ومعرفة الصفات التي لا يجوز عليه؛ لأنها صفات خلقه. و[معرفة] الصفات التي لا تجوز على أفعاله؛ لأنها صفات أفعال خلقه. ومعرفة عدله؛ لأنه سبحانه غنى مطلق فلا يحتاج إلى شيء، وعالم مطلق فلا يجهل شيئاً. ومعرفة نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وآله، ونبوة جميع الأنبياء عليهم السلام؛ لأنهم الوسائط بين الله سبحانه وبين عباده، والمبلغون عنه تعالى إليهم. ومعرفة خلفائهم عليهم السلام؛ لأنهم حفظة شرائعهم، فهم حجج الله بعدهم. ومعرفة بعث المكلفين في حشرهم إلى مالك يوم الدين، وذلك على ما نذكره من تعليم الله [تعالى] لعباده، [و] معرفة ذلك على ألسن حججه عليهم السلام، كل ذلك بالدليل ولو مجملاً). [حياة النفس ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ص٤٠ـ٤١].

(٣) اختاره السيد الحكيم في (مستمسك العروة الوثقى) ج١ ص٣٧٨، والسيد الخميني في (كتاب الطهارة) ج٣ ص٤٤٥، والسيد الشهيد الصدر في (بحوث في شرح العروة الوثقى) ج٣ ص٢٩٥، والسيد الروحاني في (فقه الصادق) ج٣ ص٣٠٦، والشيخ التبريزي في (تنقيح مباني العروة الوثقى) ج٢ ص١٩٠.

أفرد العدل عن باقي صفات الله ﷻ وجَعلهُ أصلاً مستقلاً، كان من أجل الرد على دعوى الأشاعرة وغيرهم، حيّثُ أنهم أجازوا نسبة القبيح إلى الله ﷻ، وقالوا بالجبر في أفعال الإنسان؛ فأفرد جماعة من علماء الشيعة الإمامية العدل بالذكر لتأكيد نفي هذه الدعوة لا غير[١].

وأمّا مسألة الإمامة والمعاد فهما مندرجان تحت النبوّة؛ لأننا لم نؤمن بالمعاد إلا عن طريق النبي ﷺ، والإمامة هي فرع النبوّة.

ومنهم من قال بأن أصول الدين ثلاثة[٢]: التوحيد والنبوة والمعاد. فأدرجوا العدل تحت التوحيد، والإمامة تحت النبوة. ومنهم من قال بأن أصول الدين أربعة[٣]: التوحيد والنبوة والإمامة والمعاد. فأدرجوا العدل تحت التوحيد. ومنهم من قال بأن أصول الدين خمسة[٤]: التوحيد والعدل والنبوة والإمامة والمعاد.

على أي حال، إن هذا الاختلاف اصطلاحي في التعداد فقط، وإلا فالنتيجة النهائية واحدة، وهي أن الاعتقاد في جميع تلك الأقوال والآراء عند جميع علماء الشيعة الإمامية يكون بِكُل الأصول الخمسة.

---

(١) الحقائق والدقائق في المعارف الإلهية ـ الشيخ فاضل الصفار: ج٢ ص٦٨ـ٦٩.

(٢) اختاره الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء في (أصل الشيعة وأصولها) ص٧٥، والسيد الخوئي في (التنقيح في شرح العروة الوثقى) ج٣ ص٥٣، والشيخ الوحيد الخرساني في (منهاج الصالحين) ج٢ ص١٢٠، والشيخ البشير النجفي في بعض أجوبته العقائدية.

(٣) ونسب هذا القول إلى العلامة المظفر في كتابه (عقائد الإمامية)، وإلى الشيخ العاملي في شرحه على (الفوائد البهية) ج١ ص٦١.

(٤) اختاره الوحيد البهبهاني في حاشيته على (مدارك الأحكام) ج٢ ص٣٥، والشيخ الأحسائي في كتابه (حياة النفس) وأتباعه من تلامذته، ومراجعنا العظام.

واعلم ـ عزيزي القارئ ـ بأن الركن الحقيقي للتوحيد هو الولاية[١]

(١) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (فإن آل محمد ﷺ، هم دعامة كل خير وصلاح، فإن شرط الإيمان ولايتهم، وشرط التوحيد ولايتهم، وشرط النبوة ولايتهم، وشرط قبول الأعمال ولايتهم، بل لا يكون الشخص العارف مسلماً إلا إذا تولاهم. والمراد بكون ولايتهم شرطاً للتوحيد والنبوة والإيمان وقبول الأعمال، بل والإسلام، إن هذه الأمور إنما هي عبارة عن ولايتهم حقيقة:

أما التوحيد: فحقيقته تنزيه ذات الله عن الشريك في ذاته وصفته وفعله وعبادته، ولا يتحقق في شيء من هذه الأربعة إلا بما أسسوه ودلوا عليه، كما قال علي عليه السلام: «نحن الأعراف الذين لا يعرف الله إلا بسبيل معرفتنا». [الكافي: ج١ ص١٨٤])، يعني يعرفنا؛ لأننا معانيه وظاهره، ويُعرف بنا؛ لأننا السبيل إليه وبابه، وليس له سبيل غيرنا، ولا باب إلا نحن، ويُعرف بما بيَّنا من صفته، ووصفنا من الدليل عليه. فكونهم معانيه وظاهره من ولايتهم، وكونهم السبيل إليه وبابه الذي يؤتى منه من ولايتهم، وكونهم معلمين للخلق واصفين للحق من ولايتهم؛ لأنها هي ولاية الله، قال تعالى: ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾[سورة الشورى: (٩)]، وقال تعالى: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾[سورة الكهف: (٤٤)]، فهي الغني المطلق؛ بمعنى: أنه يفتقر إليه كل ما سواه، لأن إثبات هذا المعنى لله سبحانه كمال، وسلب الكمال نقص يمتنع في حق الواجب تعالى، وهم عليهم السلام ظهروا بما شاء منه؛ يعني: أنهم مظهر ذلك الغنى المطلق، وهو جميع ما شاء منه؛ لأنهم عليهم السلام محل مشيئته، فهم محتاجون إليه سبحانه، وهم به من دونه يحتاج إليهم كل شي من عين أو معنى، والتوحيد آية الله في الأنفس كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[سورة فصلت: (٥٣)]؛ يعني: حتى يتبين لهم أن الإمام هو الدليل إلى الله، فلا يُعرف الله إلا بسبيل معرفته، على نحو ما أشرنا إليه من الوجوه الثلاثة. فظهر لمن عرف ما أشرنا إليه، أن التوحيد من ولايتهم، وهم دعامته، كما قال الحجة عليه السلام: «فجعلتهم معادن لكلماتك، وأركاناً لتوحيدك وآياتك ومقاماتك التي لا تعطيل لها في كل مكان يعرفك بها من عرفك، لا فرق بينك وبينهم إلا أنهم عبادك وخلقك» إلخ [إقبال الأعمال: ص٦٤٦]. ولا ريب أن الشيء لا يقوم ولا يتحقق إلا بأركانه.

وأما النبوة: فلأنها إرسال وبعث إلى الرعية، ولا شك أن ذلك لا يكون إلا من الولي، والولي هو الله، ومظهر الولاية في الخلق من الله فيهم، فعن ولاية الله الظاهرة فيهم وبما أرسل الرسل وبعث الأنبياء، لأن الولاية الأزلية هي ذاته جل جلاله، والإرسال والبعث إنما يكون في الفعل، وهو في الخلق، فيجب أن يكون هذا البعث الخلقي الإمكاني صادراً عن ولاية إمكانية هي في الحقيقة الربوبية إذ مربوب، والأولوهية إذ مألوه، وهي فعله ومشيئته، وهم محل فعله ومشيئته، فعنهم أظهر ما أظهر، وفعل ما فعل، وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم. وإلى هذا ونحوه الإشارة بقول علي عليه السلام كما في الغرر والدرر في وصف الملأ الأعلى، وهو يعني به ظاهراً الملائكة وباطناً هم عليهم السلام؛ لأن الملائكة أمثال الأمثال. قال عليه السلام: «وألقى في هويتها مثاله فاظهر عنها أفعاله» [غرر الحكم: ص٢٣١]، فتدبر كلامه صلوا ت الله وسلامه عليهما أصرح المدعى لمن وعى. ومعلوم أن النبوة بعد الولاية ذاتاً وعلة لترتبها عليه). [الزيارة الجامعة ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص١٥٩ـ١٦٠].

لهم عليهم السلام، والبراءة من أعدائهم[١]، كما قال الإمام الرضا عليه السلام: «إن الإمامة أسّ الإسلام النامي وفرعه السامي، بالإمام تمام الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والجهاد، وتوفير الفيء، والصدقات، وإمضاء الحدود والأحكام، ومنع الثغور والأطراف»[٢].

فالولاية: هي ذمامهُ عزّ وجلّ المنيع[٣]، أي: العهد الذي أخذهُ على جميع

---

(١) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه) ـ في معنى: مبغض لأعداكم ومعادٍ لهم ـ: (الفقرة الأولى [موالٍ لكم ولأوليائكم] عبارة للركن الأيمن من الولاية، وهذه الفقرة عبارة عن الركن الأيسر من الولاية المعبر عنه بالبراءة، ولا ريب في تقابلهما تقابلاً عاماً، فهما معاً للتوحيد، وللنبوة، وللولاية، وللشهادتين، وللصلاة، وللزكاة، وللصيام، وللحج، ولسائر أحكام الإيمان، كاليد اليمنى واليد اليسر للإنسان). [شرح الزيارة الجامعة ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٣ ص٢١].

(٢) الأمالي ـ الشيخ الصدوق: م٩٧ ص٧٧٥ ح١٠٤٩/١.

(٣) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه) ـ في بيان معنى وجه الله ـ: (الوجه ذمام الله المنيع، الذي لا يطاول ولا يحاول؛ وهو الولاية، أعني ولاية محمد وآله المعصومين عليهم السلام ... والذمام عهد الله الذي أخذه وأكده على خلقه، وهو ولاية الله الحق تعالى، أعني ولاية محمد وعلي وآلهما، وهي [أي الولاية] معرفة الله وتوحيده وعدله، ونبوة محمد، ومعرفته من الله، وولاية أهل بيته الطاهرين وإمامتهم، ومعرفتهم من الله تعالى ومن رسوله، ونبوة جميع الأنبياء، ومعرفتهم ولو إجمالاً من الله ومن رسوله، ومن آل رسوله صلى الله عليه وآله؛ والإيمان بجميع ذلك، وبكتب الله التي أنزلها على رسله، وبما أوحى إلى أنبيائه وأوليائه، وباليوم الآخر، وبجميع ما أتى به محمد صلى الله عليه وآله من أحوال الموت، والقبر والبرزخ، وأحوال قيام القائم عليه السلام، وبما أخبر به هو وأهل بيته من رجعتهم وأحوالها، وبفناء الخلق، وببعثهم وحشرهم، وبالجنة والنار، وبوجودهما الآن، وبالصراط والميزان، وبالحشر والنشر، وبالمرصاد والحساب، وتطاير الكتب، والختم على الأفواه، وإنطاق الجوارح، وبالحوض والشفاعة، للمذنبين من الموحدين من أمته الإجابة، وغير ذلك مما نطق به الكتاب وأخبر به. وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام شهر رمضان، وحج البيت ممن استطاع إليه سبيلاً، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله بالنفس والمال، والقيام بجميع ما فرضه الله، وسنه رسول الله، وندب إليه من فعل أو ترك، كل ذلك على طبق ما أراد الله تعالى به، وبينه رسوله وأوصياؤه عن الله تعالى، مؤتماً بهم، مسلماً لهم، رادّاً إليهم، مقتدياً بهم، موالياً لهم، متبرئاً من أعدائهم، وممن مال إليهم، واقتدى بهم، وقدمهم على من قدمه الله ورسوله، وممن لم يتبرأ منهم في الدنيا والآخرة، آتياً بجميع أعماله مشفوعة بالإيمان الخالص لله، البات الثابت بجميع ما أشرنا مجملاً مفصلاً). [شرح العرشية ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٦٠ـ٦١ـ٦٢].

المخلوقات؛ فإن أُقرَّ بها قُبِلَ ما سِواها من اعتقادٍ وفعلٍ وغيره، وإن أُنكِرت[١] رُدَّ ما سِواها، وإن كان منكرها موحداً[٢]؛ لأنه ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾[٣]، ومن يعصه فقد عصى الله ﷻ.

فطاعة الإمام واجبة بالأمر الإلهي، لقول الرسول ﷺ: «لما أسري بيّ إلى السماء، ثم من السماء إلى سدرة المنتهى، أوقفت بين يدي ربي ﷻ.

فقال لي: يا محمد.

قلت: لبيك ربي وسعديك.

قال: قد بلوت خلقي، فأيهم وجدت أطوع لك؟

---

(١) نقصد بالإنكار هنا: الإنكار المقترن مع العلم لا الإنكار المقترن مع الجهل.

(٢) يقول آية الله العظمى السيد كاظم الحسيني الرشتي قدس سره: (اعلم أن الإيمان لا يقوم إلا بأربعة أركان:
الركن الأول: الإقرار بالتوحيد، وهو قول لا إله إلا الله مصدقاً مسلماً.
الركن الثاني: الإقرار بالنبوة، وهو قول محمد رسول الله ﷺ.
الركن الثالث: الإقرار بالولاية، وهو قول أن علياً ولي الله والأئمة من ولده أولياء الله.
والركن الرابع: الشيعة، وهم المشار إليهم في أحاديث الأئمة عليهم السلام وأخبارهم: بـ(أُوالي من والوا وأعادي من عادوا وأجانب من جانبوا...) [الأمالي: م١٠ ص٢٧٧ ح٦٧/٥٢٩]، وما ورد في معنى النواصب: (أنهم ينصبون العدواة لشيعتنا).
وهذه أبواب أربعة لا يصلح آخرها إلا بأولها ولا أولها إلا بآخرها ضلَّ أصحاب الثلاثة وتاهوا تيهاً بعيداً. فلا يتم التوحيد إلا بالنبوة؛ فلو أقرَّ بالتوحيد والتفريد بجميع مراتبه ولم يقر بالنبوة ـ مع أن التوحيد أشرف من النبوة؛ بل ليس بينهما من نسبة ـ، فلا يقبل توحيده، ولا يغنيه عن نار جهنم، وهو من الخاسرين. ومن أقرَّ بالنبوة ولم يقَّر بالولاية لم ينفعه إيمانه شيئاً، ولا إقراره أبداً، وهو من أصحاب السعير، ومقامه في النار أسفل من مقام منكر النبوة، مع أن النبوة أشرف من الولاية. وكذلك من أقَّر بالتوحيد والنبوة والولاية ولم يقر بالشيعة؛ فلا ينفعه إيمانه بالتوحيد والنبوة والولاية، ويكون أخسر مقاماً، وهو في أسفل درك من الجحيم، كما كان منكر الولاية ومنكر التوحيد والنبوة كذلك). [الحجة البالغة ـ السيد كاظم الرشتي: ص٦٣ـ٦٤].

(٣) سورة النساء ـ الآية: (٨٠).

قلت: رب علياً.

قال: صدقت يا محمد. فهل اتخذت لنفسك خليفة يؤدي عنك، ويعلم عبادي من كتابي ما لا يعلمون؟

قلت: اخترلي، فإن خيرتك خيرلي.

قال: قد اخترت لك علياً، فاتخذه لنفسك خليفة ووصياً، فأني قد نحلته علمي وحلمي، وهو أمير المؤمنين حقاً، لم ينلها أحد قبله وليست لأحد بعده. يا محمد، علي راية الهدى، وإمام من أطاعني، ونور أوصيائي، وهو الكلمة التي ألزمتها المتقين. من أحبه فقد أحبني، ومن أبغضه فقد أبغضني، فبشره بذلك يا محمد»[1]، وهذا مفاد قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[2].

ونستخلص مما تقدم:

أن العقيدة من دون الولاية لهم عليهم السلام، والبراءة من أعدائهم، لا تنفع صاحِبُها شيئاً، وأن الولاية إذا قُبِلت قُبِل ما سواه من أصول الدين، وإذا ردت ردّ ما سواها؛ لأنهم باب الله ﷻ، ووجههُ الذي يتوجه به إليه، والسبيل إلى رضوانه، فطاعتهم عليهم السلام هي عين طاعته ﷻ.

---

(١) التحصين ـ ابن طاووس: ب٧/ تسمية الله تعالى لعلي عليه السلام بأمير المؤمنين... ص٥٤٤.

(٢) سورة النساء ـ الآية: (٥٩).

العقيدة تكليف وجودي

على الإنسان أن يعلم بأن تكليف العبادة ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾[1] قد وقع على جميع المخلوقات، من المجرة إلى الذرة في عالم الذرّ، من غير جبر ولا إكراه؛ وذلك من أجل تحقيق العدل الإلهي ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[2]، وتمييز استحقاق المكلفين للسعادة الأبدية[3].

وكل المخلوقات قد تمّ تكليفها بحسب الذكر والإجابة للدعوة في ذلك العالم، كما قال الله ﷻ: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ﴾[4]، أي: بحسب قابليتهم واستعدادهم في رتبهم، من دون استثناء أحد منهم دون آخر، جوهراً كان أم عرضاً، لطيفاً كان أم كثيفاً.

---

(١) سورة الإسراء ـ الآية: (٤٤).

(٢) سورة فصلت ـ الآية: (٤٦).

(٣) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (كانت فائدة خلقه للخلق راجعة إليهم ليوصلهم إلى السعادة الأبدية، وذلك متوقف على تكاليفهم بما يكون سبباً لاستحقاق السعادة الأبدية، ولو لم يكلفهم لما استحقوا شيئاً، ولو أعطاهم بغير عمل كان عبثاً، وقد ثبت أنه حيكم لا يفعل العبث، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[سورة المؤمنون ـ الآية: (١١٥)]). [حياة النفس ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ص٣٦ـ٤٧].

(٤) سورة المؤمنون ـ الآية: (٧١).

حتى الحيوانات والحجارة على الرغم من دنو رتبتها في سلسلة الموجودات؛ إلا أنها قد كُلِفت الإقرار بتوحيد الله ﷻ، وعبادته بحسب قابليتها واستعدادها.

فالنملة تعرف الله ﷻ في رتبتها، وتوحده بالنسبة إلى كمالها، قال الإمام الباقر عليه السلام: «ولعل النمل الصغار تتوهم أن لله تعالى زبانيتين فان ذلك كمالها ويتوهم أن عدمها نقصان لمن لا يتصف بهما، وهذا حال العقلاء فيما يصفون الله تعالى به»[١]؛ أي: أن النملة الحمراء تزعم أن لله ﷻ قرنا استشعار؛ لأن وجودهما كمال بالنسبة لها[٢].

وكذلك الحجر فإنه يستشعر عظمته ﷻ بحسب قابليته واستعداده، قال ﷻ: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٣].

---

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٦٦ ب٣٧/ صفات خيار العباد... ص٢٩٣ ح٢٣.

(٢) يقول العلامة الشيخ محمد آل أبي خمسين قدس سره ـ في تعدد مراتب التوحيد والمعرفة ـ: (أن مراتب التوحيد والمعرفة والعبادة متعددة متكثرة متفاوتة، لاختلاف مراتب الموحدين، والعارفين والعابدين، وتفاوت درجاتهم في القوة والضعف، والعلو والسفل، والتجريد والمادية، والعلية والمعلولية، والأثرية والمؤثرية، والقربية والبعدية، والغيبية والشهودية، فإنه يظهر لكل شيء به، ويتعرف له بقدر قابليته واستعداده، ويصف نفسه له بحسب إدراكه.

فإذا كان ذلك كذلك ـ يعني أنه إنما يصف نفسه لكل نفس من الأنفاس، ويتعرف لكل مخلوق بتعريف خاص، بقدر ما فيه من الفهم والحواس ـ كانت الطرق إليه سبحانه بعدد الأشخاص، من جماد ونبات وحيوان، وإنس وجن ونسناس، إلى غير ذلك من الأنفاس، كما روي عنهم عليهم السلام: «إن الطرق إليه بعدد خلقه» [تفسير المحيط الأعظم ـ الآملي: ج١ ص٢٣٦]، «وإن الذرة لتزعم أن لله زبانين» [بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٦٥ ص٢٩٣]، يعني: قرنين). [الرسالة الخرسانية ـ العلامة الشيخ محمد آل أبي خمسين: ص١١٩ـ١٢٠].

(٣) سورة البقرة ـ الآية: (٧٤).

فمقتضى تكليف المخلوقات قائم بحسب القابلية والاستعداد ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾[١] ؛ لأن كل رتبة من مراتب الموحدين لها توحيدها الخاص بها[٢]. فتوحيد الحقيقة المحمدية يختلف عن توحيد الملائكة العالين، وتوحيد الملائكة العالين يختلف عن توحيد الملائكة الكروبيين، وتوحيد الملائكة الكروبيين يختلف عن توحيد الأنبياء عليهم السلام، وتوحيد الأنبياء عليهم السلام يختلف عن توحيد الإنسان، وتوحيد الإنسان يختلف عن توحيد الحيوان، وهكذا في باقي المراتب ؛ ولذا قالوا: (الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلاق)[٣].

وحينما يعمل الإنسان بمقتضى تكليفه، أي: يطلب السير صعوداً لمبدئه الحادث[٤]، فإن هذا السير يستلزم منه القيام بعدة أمور، أولها وأهمها في ذلك هو المعرفة ؛ لأن حقيقة التوحيد أو العبادة لا تصح إلا بعد المعرفة، قال الإمام الحسين عليه السلام: «إن الله ما خلق العباد إلا ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه»[٥]، وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «أول الدين معرفته»[٦].

---

(١) سورة البقرة ـ الآية: (٢٨٦).

(٢) يقول آية الله العظمى السيد كاظم الحسيني الرشتي قدس سره ـ في التوحيد الصفاتي ـ: (ولما لم يكن لتجليه غاية، ولا لظهوره نهاية، كان في كل نفس من الأنفاس لعبده ظهور، غير ما كان للنفس الآخر، وفي كل ظهور توحيد خاص به، فتعددت مراتب التوحيد بتعدد أنفاس الخلائق، بل أكثر، وكلها صفات تعرف الحق للخلق بالخلق). [تفسير آية الكرسي ـ السيد كاظم الرشتي: ج٢ ص١٢].

(٣) مصباح الأنس ـ القونوي: ص١١٠.

(٤) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (واعلم أن الإنسان نزل من مكان عالٍ في الإمكان، وهو الآن عائد إليه، فهو يترقى بلا نهاية في سيره إلى مبدئه الحادث الممكن).[شرح الفوائد ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٢ ص٢١٢ـ٢١٣].

(٥) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٥/ أبواب العدل ب١٥/ علة خلق العباد وتكليفهم ... ص٣٠٩ ح١.

(٦) نهج البلاغة ـ الشريف الرضي: ج١ ب/ المختار من خطب أمير المؤمنين عليه السلام ... ص١٤ خطبة رقم (١).

وأدنى مراتب المعرفة التي تجب على المكلف، هو اعتقاد صانع ليس بمصنوع، وإدراك ما له من صفات الجمال والجلال بحسب ظاهر النقل، وبحسب ما يتم الوصول إليه من الدليل العقلي البديهي الظاهر للكل، فعن الفتح بن يزيد، عن أبي الحسن عليه السلام، قال: سألته عن أدنى المعرفة.

فقال عليه السلام: «الإقرار بأنه لا إله غيره، ولا شبه له ولا نظير، وأنه قديم مثبت، موجود غير فقيد، وأنه ليس كمثله شيء»[١].

وأما حقيقة كنه التوحيد فلا يتم الوصول إليها بهذه المعرفة؛ لأنها معرفة العوام من أهل الصور[٢].

بل يتم ذلك عن طريق معرفة الخواص؛ لأن أول مرتبة من مراتب معرفة الخواص هي معرفة النفس الناطقة القدسية، التي هي الفؤاد[٣] بعد

---

(١) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج١ ك/ التوحيد ب/ أدنى المعرفة ص٨٦ ح١.

(٢) يقول آية الله العظمى السيد كاظم الحسيني الرشتي قدس سره: (توحيد العبادة: وهو أول مقام السالكين، ومقدمة سفر المسافرين، فقد ظهر الحق سبحانه وتعالى للشخص الواقف في هذا المقام بصفة المعبودية، وهم يوحدون المعبود وينزهونه ويقدسونه عن النقائص والعيوب، ويقيمون الدليل على ذلك، على ما نطق به ظاهر الكتاب والسنة، ودل عليه الدليل القطعي العقلي الظاهري القشري، ويوحدون معبودهم في مقام الذات والصفات والأفعال والعبادة، ولا يلتفتون إلى حقيقة الأمر، ولا يعرفون كنه التوحيد.

وهم العوام من أهل الصور، أي الترب الموصدة، ومن الذين أراد الله بهم خيراً، ولا يجوز إلقاء الشكوك والشبهات على هؤلاء؛ لعدم معرفتهم بالجواب، فيفسد عليهم أمرهم ودينهم). [تفسير آية الكرسي ـ السيد كاظم الرشتي: ج٢ ص ١٦ـ١٧].

(٣) يقول آية الله العظمى السيد كاظم الحسيني الرشتي قدس سره: (وأهل هذه المرتبة يوحدون الحق جل جلاله بملاحظتهم في الآفاق والأنفس، وتلاوتهم كتاب الله التكويني، فتحصل لهم المعرفة على بصيرة من أمرهم، قال الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾. [سورة فصلت ـ الآية: (٥٣)]). [تفسير آية الكرسي ـ السيد كاظم الرشتي: ج٢ ص١٧ـ١٨].

تجريدها من كل السبحات الوجدانية[١] ؛ لأنها حينئذٍ تكون آية صنعه، وعلامة معرفته ﷻ[٢] ؛ ولذا قال الله ﷻ: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾[٣]، وقال رسول الله ﷺ: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»[٤].

وإذا كانت معرفة النفس هي عين معرفة الرب، فمن باب أولى أن تكون معرفتهم عليهم السلام هي عين معرفة الله ﷻ ؛ لأنهم محّال تلك المعرفة[٥].

فلا سبيل لبلوغ حقيقة الأمر إلا بهم وعن طريقهم عليهم السلام، وكل ما يتحصل للإنسان من معرفة حقيَّة في هذا الإطار ـ أو حتى في غيره ـ

---

(١) يقول آية الله الميرزا حسن كَوهر قدس سره: (ومعرفة النفس لا تحصل إلا بعد إسقاط الإضافات والتعينات، التي هي حجب جمالها، وأعظم تلك الحجب هو ملاحظة كونها هي هي... وقولي أزيلت الحجب، أريد في الوجدان لا في الوجود، فإن كل شيء دخل في ملك الله لا يخرج من ملكه أبداً، فكيف يمكن زوالها في الوجود؟). [المخازن ـ الميرزا حسن كَوهر: ص٤٧].

(٢) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (إنما يعرف الله سبحانه بمعرفة النفس، إذا جردت عن جميع السبحات؛ حتى عن التجريد، كما قال عليه السلام: «كشف سبحات الجلال من غير إشارة».[جامع الأسرار ومنبع الأنوار: ص٢٨]، ولا شك أنها حينئذٍ ليس كمثلها شيء؛ لأنك تجردها عن كل شيء، حتى من المماثلة لشيء من الأشياء، وحينئذٍ تكون ليس كمثلها شيء، فإنها حينئذٍ تكون آية معرفته، فإذا عرفت الله بها، عرفت أنه ليس كمثله شيء).[شرح الفوائد ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٢٣٠].

(٣) سورة فصلت ـ الآية: (٥٣).

(٤) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٦٧ ب٤٤/ القلب صلاحه وفساده... ص٣٥ ح١.

(٥) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (فكونهم عليهم السلام محال معرفة الله؛ يراد منه: أنهم معرفة الله. ولا تعجب من هذا المعنى؛ فإنه إذا فهمته رأيته من الأمور البديهية، وكيف تكون أنت معرفة الله حيث قال صلى الله عليه وآله: «من عرف نفسه فقد عرف ربه» [بحار الأنوار: ج٦٧ ب٤٤/ القلب صلاحه وفساده... ص٣٥ ح١]، ولا يكونون معرفة الله، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «نحن الأعراف الذين لا يعرف الله إلا بسبيل معرفتنا». [الكافي: ج١ ص١٨٤]). [شرح الزيارة الجامعة ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٢٨٧].

يكون منهم عليهم السلام ؛ لأنهم مظاهر رحمته، وخزائن علمه عز وجل[١]، وسوف يأتي هذا في البيان لاحقاً.

فالتكاليف العبادية المنطوية على تحقيق الغاية من خلقنا لاستحقاق السعادة الأبدية ؛ ليست منحصرة في الأفاعيل الشرعية من صلاة وصيام وغيرها ـ كما يعتقده البعض ـ، بل أنها تشمل تكليفاً أعم وأوسع لمفهوم العبادة، وهو المعرفة، أي: معرفة كنه التوحيد أو العقيدة.

والمتفق عليه عند علماء الشيعة الإمامية ـ قليل من خالف ـ وجوب التقليد في فروع الدين[٢]، قال الإمام العسكري عليه السلام: «فأما من كان من الفقهاء صائناً لنفسه، حافظاً لدينه، مخالفاً على هواه، مطيعاً لأمر مولاه، فللعوام أن يقلدوه..»[٣]، أمّا البحث في أمور العقيدة أمر منوط بالإنسان نفسه، ولو بالدليل المجمل لا المفصل ؛ فلا يجوز التقليد في أصولها[٤].

---

(١) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (وروي عن السجاد عليه السلام ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾سورة الحجر ـ الآية: (٢١)ـ: «إن في العرش تمثال جميع ما خلق الله من البرِّ والبحر» [بحار الأنوار: ج٥٥ ب٤/ العرش والكرسي وحملتهما ص٣٤ ح٥٤].

وهذا الحديث يدل بما يحتمل على الوجوه الثلاثة:

الأول: أن العرش هو الخزانة وهم مفاتح الاستفاضة وأعضاد الفيض.

والثاني: أنهم ولاة ذلك الفيض المقدرون له وأولو الوساطة في قوام الفيض والمستفيض.

والثالث: أن العرش هو قلب النبي صلى الله عليه وآله وقلوبهم عليهم السلام فهم تلك الخزانة.

والعلم الذي هم خزانه العلم الحادث). [شرح الزيارة الجامعة ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١٣٧].

(٢) الحدائق الناظرة ـ البحراني: ج١ ص١٦٨. أعيان الشيعة ـ الأمين: ج٤ ص٦٢٩.

(٣) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٢ ب١٤/من يجوز أخذ العلم منه ومن لا يجوز... ص٨١ ح١٢.

(٤) يقول آية الله العظمى السيد كاظم الحسيني الرشتي قدس سره: (فإن التقليد في أصول الدين لا يجوز إجماعاً من المسلين إلا من بعض الشاذ الذي لا يعبأ بقوله ولا يلتفت إلى خلافه). [الحجة البالغة ـ السيد كاظم الرشتي: ص٣٨].

نعم، يمكن للعاميّ الرجوع[١] لأصحاب الفن من العلماء في أمور العقيدة، في المسائل التي لا يمكن له معرفتها من دون الاستعانة بعلم العالم فيها، كالمسائل التفصيلية للأمور الإعتقادية ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[٢]؛ حتى لا يكون فريسة للشبهات الناتجة من عدم وفرة اطلاعه في هذا الجانب، أو من قصور قابليته في إدراك ما تخفيّه تلك التفاصيل؛ لأن لكل إنسان طاقة استيعابية يتوقف عندها عقله في إدراك ما تتضمنه تلك المسائل من مضامين، والتخصصية تلعب دوراً في تأويل المتعارضات ودرك الشبهات[٣].

وذهب بعض المحققّين كالمقدس الأردبيلي، والشيخ الأنصاري، والشيخ الطوسي ـ تقدست أسرارهم ـ إلى جواز التقليد في أصول الدين[٤].

وقيل: اتفق الفقهاء على أنَّ المسائل الإعتقادية الضرورية من قبِيل: الإعتقاد بوجود الحق، وثبوت الصفات الذاتية له، كالحياة، والعلم، والقدرة، ونفي الصفات التي لا تليق به، كالجسمية والتركيب؛ لا يجوز التقليد فيها، وإنما يكون التقليد منحصراً في الأمور الإعتقادية المتعلقة بالمسائل التفصيلية من قبِيل: تفاصيل مسائل المعاد، وتفاصيل الميزان، وتفاصيل صفة الجنة والنار، وغيرها[٥].

---

(١) لا نقصد بالرجوع هنا بمعنى التقليد؛ بل بمعنى الاسترشاد وطلب البيان.

(٢) سورة الأنبياء ـ الآية: (٧).

(٣) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (فإن العوام ليس لهم نور يمشون به في الظلمات، وإنما يستوصفون غيرهم لما يستدلون به وعليه). [شرح المشاعر ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٤٩].

(٤) فرائد الأصول ـ الشيخ الأنصاري: ج١ص٥٧٤.

(٥) الحقائق والدقائق في المعارف الإلهية ـ الشيخ فاضل الصفار: ج١ ص٣٠.

ونستخلص مما تقدم:

أنَّ العقيدة تكليف وجودي عيني تعييني نفسي، ويجب على كل مكلف البحث في أصل تكليفه، وعدم التهاون أو الإهمال فيه؛ بل عليه المبادرة فوراً لتحصيل العلم اليقين بشتى الوسائل والطرق، خصوصاً في حالة الشك في الأمور الإعتقادية الضرورية[١].

كما يجب على كل من طلب الكمال، وقصد القرب من الله ﷻ، أن يكون سفره مقروناً بالمعرفةِ الحقَّة التي لا تكون إلا بهم عليهم السلام؛ لأنهم عليهم السلام بابه الذي منه يؤتى، ووجهه الذي يتوجه إليه الأولياء، والسبب المتصل بين الأرض والسماء[٢]، وأن لا يتهاون في العمل الصالح من المرادات الشرعية، والآداب والأخلاق الإلهية؛ لأن يقين المرء يُعرف في عمله، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «... إن المؤمن يرى يقينه في عمله، والكافر يرى إنكاره في عمله»[٣]؛ فإذا تمَّ ذلك على طريقهم ومنهم عليهم السلام، ازداد رسوخ وثبات الإيمان

---

(١) يقول العارف الإلهي آية الله الميرزا محمد حسين المامقاني قدس سره: (ضرورة التسلح بسلاح العلم والمعرفة وتحصيل الدين ومعالم الإسلام بالدليل والبرهان، حتى لا يتمكن أمثال هؤلاء الضُلاّل من الإيقاع بكم في الضلالة، وخاصة بالنسبة لمن هم متلبسون بلباس العلماء، فغير جائز ولا ممكن لهؤلاء الاكتفاء بدين العجائز في هذه المسائل، لأن شأن هؤلاء وتكليفهم الديني يوجبان عليهم الدفاع عن تحريف المحرفين والمغالين، وانتحال الجهال والأفاكين، وهذا غير ممكن إلا بالتضلع بالعلم واكتساب المعرفة والحكمة الإلهية، وهو علمنا الذي اخترناه، ولا يحصل هذا المخزون العلمي لشخص ما لم يجهد نفسه بالتتبع العلمي والممارسة المستمرة لأخبار وآثار الأئمة الأطهار ـ، والنظر في آيات الله البيِّنات).[علم المحجة ـ العارف الإلهي آية الله الميرزا محمد حسين المامقاني: ص١٨١].

(٢) مقتبس من دعاء الندبة: (أين باب الله الذي منه يؤتى، أين وجه الله الذي يتوجه إليه الأولياء، أين السبب المتصل بين الأرض والسماء).

(٣) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج٢ ب/نسبة الإسلام ص٤٥ ح١.

في الفؤاد، فيصبح حينئذٍ يوحّد الله ﷻ بتوحيدٍ أعلى من توحيد الرتبة التي كان فيها[١]، وهو مفاد قول الإمام الصادق عليه السلام: «عُلِّم سلمان علماً، لو علمه أبو ذر كفر»[٢].

(١) يقول آية الله العظمى السيد كاظم الحسيني الرشتي قدس سره ـ في التوحيد ومراتب الإنسانية ـ: (وكلما يترقى يرى أنه في حالته الأولى كان في الشرك؛ لأن ذلك التوصيف الذي كان يصف الله به كان شركاً، ما كان لائقاً بجلال قدسه، كتوصيف النملة له تعالى بالزبانيتين، فإن هذا التوصيف عندنا شرك وكفر، حتى إذا بلغ إلى مقام حقيقة المعرفة وغاية المحبة، وهو مقام السفر في الحق بالحق). [تفسير آية الكرسي ـ السيد كاظم الرشتي: ج٢ ص١٥].

(٢) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٢٢/ أبواب ما يتعلق به ﷺ من أولاده وأزواجه... ب١٠/ فضائل سلمان وأبي ذر... ص٣٤٦ ح٦٠.

فطرة العقيدة وحججها

إنّ الاعتقاد بالله ﷻ أمرٌ ممزوج بسريرة البشر، فقد جُبِل الإنسان على الميل بصورة فطرية نحو تحصيل الكمال، وقد لا يحمل في داخله تفاصيل ذلك الاعتقاد؛ ولكن الله ﷻ وضع في قراراته الخطوط الكلية العامة[1]، كما في قوله ﷻ: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّلَ عَلَيْهَا﴾[2]، وكما روي عنهم عليهم السلام: «كل مولود يولد على الفطرة»[3].

فإذا كان في باطن كل إنسان رؤية توحيدية كلية، وميل فطري نحو الاعتقاد بالله الواحد الأحد؛ فالسؤال الذي وجب أن نطرحه هو: ما الذي أخفى ذلك الاعتقاد؟

إنَّ سبب خفاء ذلك الاعتقاد الفطري هو دنس القلب ﴿بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[4]، الذي حصل لهُ من جراءِ عدة أمور أهمها:

١ـ الغفلة عن ذكر الله ﷻ بركون القلب إلى الدنيا والانشغال بها. والقرآن الكريم يخبرنا عن ذلك في قوله ﷻ: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا

---

(١) السير إلى الله ـ الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي: ص٥١.

(٢) سورة الروم ـ الآية: (٣٠).

(٣) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج٢ ك/ الإيمان والكفر ب/ فطرة الخلق على التوحيد ص١٣ ح٣.

(٤) سورة المطففين ـ الآية: (١٤).

أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾[١].[٢]

٢ـ الغفلة بالانجراف في هاوية الذنوب والمعاصي[٣]، التي لها القدرة على قسوة القلب، وأقفال النفس، وجمود الروح، يقول الله ﷻ: ﴿وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٤]، ويقول الإمام الباقر عليه السلام: «إياك والغفلة ففيها تكون قساوة القلب»[٥].

فشعور الإنسان بالضياع والاضطراب والظنْك في هذه الحياة؛ ما هو إلا أثر غفلته وأعراضه عن الفطرة التي فُطِر عليها، يقول الله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾[٦].

---

(١) سورة الفرقان ـ الآية: (١٨).

(٢) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (ومن الدنس وقف القلب، فقد تمر عليه ساعة في ليل أو نهار يكون فيها واقفاً، وهو سهوه، ويكون من الملاَل إذا كان ذكره لله تعالى لغرض دنيوي أو أخروي، وقد يكون من اشتغاله بما لا يعنيه، وأمثال ذلك من كلّ ما ليس لله، فإذا كانت علة وقفه من لطخ أهل الباطل، فمن فضل الله سبحانه أن ينكت فيه ما شاء من الإيمان بعد ذلك إن شاء، وإن كانت علة وقفه ذاتية، فمن عدله ﷻ أن ينكت فيه ما شاء من الكفر بعد ذلك إن شاء). [شرح الزيارة الجامعة ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٢ ص١٩ـ٢٠].

(٣) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (ومن الدنس الطبع على القلب بسبب المعاصي التي يأتيها العبد بعد العلم والقلب غير منكر لها... [و] كلما أذنب ذنباً جراءة على معصية الله، أو عدم مبالاة بالذنب، أو بالوعيد عليه، خلق الله سواداً بذلك الذنب على الوجه الخاص بذلك الذنب من القلب، وهكذا حتى لا يبقى بياض في ذلك القلب، وهو الرين المذكور في الآية الشريفة، وهو الطبع في قوله تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾.[سورة النساء ـ الآية: (١٥٥)]). [شرح الزيارة الجامعة ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٢ ص٢٢].

(٤) سورة الأنعام ـ الآية: (٤٣).

(٥) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٧٥ ب٢٢/ وصايا الإمام الباقر عليه السلام ص١٦٤ ح١.

(٦) سورة النحل ـ الآية: (٤٣).

ويمكن للإنسان استشعار هذه الغفلة حينما تتجلى نزعته الفطرية نحو الله ﷻ في أصعب المحن والظروف، كما أشار الإمام الصادق عليه السلام إلى ذلك، عندما جاءه ذلك الرجل المتحيّر، وقال له: يا ابن رسول الله دُلّني على الله ما هو؟ فقد أكثر عليَّ المجادلون وحيّروني؟

فقال له عليه السلام: «يا عبد الله هل ركبت سفينة قط؟

قال: نعم.

قال عليه السلام: فهل كسر بك حيث لا سفينة تنجيك ولا سباحة تغنيك؟

قال: نعم.

قال عليه السلام: فهل تعلّق قلبك هنالك أنّ شيئاً من الأشياء قادر على أن يخلّصك من ورطتك؟

قال: نعم

قال عليه السلام: فذلك الشيء هو الله القادر على الانجاء حيث لا منجي، وعلى الإغاثة حيث لا مغيث»[1].

ولما كانت نفس الإنسان عرضة لمثل تلك الأمور التي من شأنها إبعاده عن فطرته السليمة، تفضل الخالق الحكيم عليه بتوفير سبل الهداية له[2]،

---

(١) معاني الأخبار ـ الشيخ الصدوق: ب/ معنى الله ﷻ ص٤ ح٢.

(٢) يقول آية الله العظمى السيد كاظم الحسيني الرشتي قدس سره: (ولما نظر سبحانه إلى ضعف الخلق واحتياجهم إلى كثرة المنبهات والمذكّرات، ليذكروا وينظروا ما في ذواتهم وحقائقهم من العلوم والأسرار، ويجسّس خلال تلك الديار، فبعث إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وشرح بالقول والتدوين، ما كان قد شرحه لهم بالمثال والتكوين، فتمت كلمته، وبلغت حجته، ليهلك من هلك عن بينه ويحيى من حيى عن بينه). [تفسير آية الكرسي ـ السيد كاظم الرشتي: ج٣ ص٤٩].

وذلك بإرسال حججه الظاهرة إليه ؛ لتذكيره بذلك الاعتقاد ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١]، ولقطع المعاذير والحجج عليه في يوم القيامة.

ولذلك أصبحت التذكرة مهمة من مهام الرسل والأنبياء والأئمة عليهم السلام، كما قال الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾[٢]، وكما قال عليه السلام: «ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم منسي نعمته، ويحتجوا عليهم بالتبليغ»[٣] ؛ فإرسالهم لِتَذكِيرنا وإرشادنا إلى طريق العقيدة الحقَّة، هو من أعظم الحجج وأكملها[٤] لله عز وجل على الإنسان في النشأتين[٥] ؛ بل أنها

---

(١) سورة الذاريات ـ الآية: (٥٥).

(٢) سورة الغاشية ـ الآية: (٢١).

(٣) نهج البلاغة ـ الشريف الرضي: ج١ ص٣٣ خطبة رقم (١).

(٤) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (ثم أنهم عليهم السلام أعظم حجج الله على خلقه ؛ لأنه سبحانه خلقهم وأودع في حقائقهم كل كمال ممكن من علمٍ وكرمٍ وحكمٍ وحلمٍ وجزمٍ وحزمٍ وفهمٍ وعقلٍ وعزمٍ وفضلٍ وفصلٍ وذكرٍ وفكرٍ وبصرٍ وصبرٍ وزهدٍ وورعٍ وتقوى ويقين وتسليم ورضا وشجاعةٍ وسماحةٍ ونباهةٍ ونجابةٍ واستقامةٍ واقتصادٍ وما أشبه ذلك من صفات كمالات الدين والدنيا، وخلق ما سواهم وأمرهم بطاعتهم وجعلهم الوسيلة إليه في كل أمرٍ مطلوب وخير مرغوب). [شرح الزيارة الجامعة ـ الشيخ الأحسائي: ج١ ص٢٧٣].

(٥) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (اعلم أن الله سبحانه لما كان غنياً مطلقاً لم يحتج إلى شيء، خلق بمقتضى كرمه وفضله خلقاً، أحب أن يوصلهم إلى ما شاء الله من فواضل كرمه، ولما كان حكيماً وجب أن يكون ما تفضل به جارياً على مقتضى الحكمة. فكلف خلقه بما يستحقون به نيل تلك الفواضل على وجه يخرج تفضله عن العبث، ولما كان سائر الخلق لا يعلمون ما فيه صلاحهم ؛ لأن ذلك لا يعلمه إلا الله سبحانه، وكان عز وجل لا تدركه الأبصار، ولا يقدر الخلق على التلقي منه عز وجل، وجب في الحكمة أن يختار من خلقه قوياً يقدر بمعونة الله سبحانه على التلقي منه سبحانه، ليؤدي إلى الخلق عن الله عز وجل معاني ما يريد منهم مما فيه صلاح دنياهم وآخرتهم ؛ لأن ذلك لطف بهم، يتوقف داعي إرادته تعالى بهم صلاح نظامهم في النشأتين على ذلك اللطف فيكون واجباً في الحكمة وهو النبي صلى الله عليه وآله، ولما اقتضت الحكمة إيجاد الخلائق في أوقات متعددة متعاقبة، وكانوا مشتركين فيما خلقوا له وفيما يراد منهم، وجب في الحكمة أن يبعث سبحانه في كل أمة رسولاً منهم، ليؤديَ إليهم وليبلغَهم ما يريد الله منهم ؛ لأنهم لا يعلمون إلا ما علمهم الله). [حياة النفس ـ الشيخ الأوحد: ص١٠٩].

نعمة من نعم رب السماء قبل أن تكون حجة علينا، فقد جاء في حديث الإمام الصادق عليه السلام ـ في تفسير الآية: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[١] ـ، أنه قال: «نحن أهل البيت، النعيم الذي أنعم الله بنا على العباد، وبنا ائتلفوا بعد أن كانوا مختلفين، وبنا ألّف الله بين قلوبهم، وجعلهم إخواناً بعد أن كانوا أعداءً، وبنا هداهم الله للإسلام، وهي النعمة التي لا تنقطع، والله سائلهم عن حقّ النعيم الذي أنعم به عليهم، وهو النبي صلى الله عليه وآله، وعترته عليهم السلام»[٢].

أمَّا الحجة الباطنة ـ لله عز وجل على الإنسان ـ فهي العقول؛ لأنها آلة الوجود أو الفؤاد[٣]، كما روي عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «إن لله على الناس حجتين: حجة ظاهرة، وحجة باطنة. فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة عليهم السلام، وأما الباطنة فالعقول»[٤].

وقد ميّز الله عز وجل الإنسان عن سائر الكائنات بإكسابه هذا الاستعداد الفطري، أي: اكسبه قوة العقل عن طريق الفعل[٥].

---

(١) سورة التكاثر ـ الآية: (٨).

(٢) بحار الأنوار ـ العلامة لمجلسي: ج٦٣ أبواب آداب الأكل ولواحقها ب٣/ إكراه الطعام ومدح اللذيذ منه.. ص٣١٦.

(٣) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (أن كل شيء له اعتباران: اعتبار من ربه؛ وهو الوجود، وهو الفؤاد، وله وزير يعينه على ما يقتضيه من الطاعات، وهو العقل. اعتبار من نفسه؛ وهو الماهية، ولها وزير يعينها على ما تقتضيه من المعاصي، وهو النفس الأمارة بالسوء). [شرح الفوائد ـ الشيخ الأوحد: ج١ ص٢١٠].

(٤) وسائل الشيعة ـ الحر العاملي: ج١٥ ب ٨/ وجوب طاعة العقل ومخالفة الجهل ص ٢٠٤ ح ٦.

(٥) يقول آية الله العظمى السيد كاظم الحسيني الرشتي قدس سره: (إن كمالات ما تحت العقل الكلي ودونه فعليّة للعقل، وأما كمالات نفسه فكلها ليست كذلك، بل هي متجددة في كل آن ودقيقة وساعة، وكل ذلك من إمكانه الذي يعنون به القوة، ولذا قال تعالى مخاطباً لنبيه صلى الله عليه وآله: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [سورة طه ـ الآية: (١١٤)]. [تفسير آية الكرسي ـ السيد كاظم الرشتي: ج٢ ص١٣٧].

وقوة التفكير أو التعقل لحل المجهولات في ظل وجود المعلومات، هي من الأمور الفطرية التي لا تنفك عن الإنسان في حياته، وإن تظاهر برفض القيم العقلية والاقتصار على مجال الحواس، فهو لا غنى له عن العقل في أي جانب من جوانبه[١]؛ لأن العقل الجزئي إذا شابه أو قارب في الشَّبه أصله، أي: إذا شابه العقل الكلي[٢]، صار جوهراً نورياً[٣] يهتدي به الإنسان في عبادته؛ ولذا حثَّ ديننا الإسلامي على التعقل، والصدّ عن تقليد الآباء ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ﴾[٤]، والتحرر من الأغلال التي خلّفتها الأجيال الغابرة، لنكون على بصيرة في حياتنا وديننا[٥].

---

(١) رحلة عقل ـ د. عمرو شريف: ص٤٠.

(٢) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (العقل الجزئي؛ فهو رأس في العقل الكلي؛ وذلك لأن الشخص له مرآة عن يمين قلبه، ومركزها الدماغ؛ لأن وجهها إلى جهة العلو، فإذا اعتدلت أمزجتها صفت فأنطبع فيها نور وجه ذلك الرأس المختص بذلك الشخص على هيئة العقل الكلي في مراياه المتسلسلة إلى الدماغ؛ لأنه ينطبع ذلك النور في مرآة المثال، والجميع في مرآة الدماغ من القلب، فتعلقه بدماغ الإنسان على هذا النحو، وهذا معنى أنه متعلق بها تعلق التدبير، فحقيقته فيك إنه [أي العقل الجزئي] نور من العقل الكلي، أي ظهوره لك كظهور الشمس بنورها لك، ونور الشيء هيئته، وهو ذلك الانطباع المشار إليه. وهيئة العقل الكلي، هي مادة العقل الجزئي، وانطباع تلك الهيئة في تلك المرايا على حسب كبرها وصغرها وصفائها وكدورتها واستقامتها واعوجاجها وجهتها ورتبتها ولونها، بحيث تحصل من ذلك الانطباع للمنقطع من تلك المرآة هيئة تشبه الهيئة المنطبعة، أو تقاربها في الشبه، أو تخالفها في الجهة أو الوضع، هي صورة العقل الجزئي... فما شابه العقل الكلي منها أو قاربه في الشبه فهو عقل شرعي، أي ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان. وما خالف فهو النكراء والشيطنة). [رسائل الحكمة ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ص٨٣].

(٣) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (جوهر نوري درّاك بذاته للأشياء قبل وجوداتها المتشخصة، له مادة وصورة، مادته الوجود الذي هو هيئة المشيئة، وصورته الرضا والتصديق والتسليم والطاعة التي هي صبغة الله). [رسائل الحكمة ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ص٨٢]

(٤) سورة الزخرف ـ الآية: (٢٢).

(٥) الإسلام ومتطلبات العصر ـ الشهيد مرتضى مطهري: ص١٤ـ١٥.

فموضوع حجية العقل ثابت المقام من وجهة الإسلام، ولم يتردد علماءه منذ صَدرِ التشريع وحتى الآن في حجيته ـ باستثناء قليل منهم ـ؛ بل وقد اعتبره الكثير منهم أحد المنابع في الكشف عن المعتقدات الكونية، والأحكام التشريعية[١].

ويقصد بحجية العقل التي يعتَّد بها، هو ما تتوصل إليه العقول السليمة عن طريق البرهان الإلهي[٢]، أي: عن طريق دليل الحكمة المستمدّ من الفؤاد، والمستند على النقل؛ لأنه محل استنباطه، لا ما تتوصل إليه العقول عن طريق البرهان الاصطلاحي المنطقي، الذي يستخدمه الفلاسفة والمتكلون في أبحاثهم الفلسفية، ولا يستفاد منه إلا الجدل والرد على الخصوم[٣].

---

(١) عدة الأصول ـ الشيخ الطوسي: ج٢ ص٧٥٩.

(٢) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (ولكن الاستدلال إذا كان من كل واحد من الباحثين من نوع واحدٍ، بمعنى أن تكون جميع استدلالاتهم مأخوذة من آيات الله المضروبة في الآفاق وفي نفس الأمر، بالطريقة التي أمر الله ﷻ أن يؤخذ بها، كما أشار إليه سبحانه في قوله تعالى ـ من جهة باطن التأويل ـ: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۞ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً﴾[سورة النحل: (٦٨ـ٦٩)]. فالنحل: نفوس العلماء الذين ينتحلون الدين؛ بمعنى عدم الواسطة بينهم وبين ربهم، بحيث ينسب الدين إليهم، لا الانتحال الذي هو الابتداع، بل الانتحال هنا بمعنى الاختيار، وكيف يكون هنا بمعنى الابتداع، وهو يقول: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي﴾، و ﴿ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾، و ﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ﴾، أي: الأجساد، ومن الجبال؛ أي: الطبائع، جمع جبلة على غير القياس؛ أي: متعلق أنظار النحل وأفكارها تأوي إليها ليستخرج من صفاتها ما تقتضية من أحكامها، وكذلك من الشجر؛ أي: النفوس بيوتاً، ﴿وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ من ارتباط النفوس بالأجسام كذلك، وانظري فيها بكل علمٍ، واستنبطي أحكامها بالنحو الذي أمر الله، فإذا سلك في الاستدلال سُبُل الله، وإن تعددت صور البرهان، فهو واحد ينفي الاختلاف بين الناظرين، وطالبي حق اليقين). [شرح العرشية ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٣ ص٤٥٨ـ٤٥٩].

(٣) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (أن أدلّة الأنبياء هي البراهين الإلهية، التي كثير ما نشير إليها بدليل الحكمة، لا البراهين الاصطلاحية المنطقية، التي هي دليل المجادلة بالتي هي أحسن). [شرح العرشية ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٣ ص٤٥٨].

نعم، إنَّ ما تتوصل إليه العقول عن طريق البراهين الاصطلاحية يكون حجة لو وافقت قواعدها واستنباطاتها النقل وارتكزت عليه، ووافقت إجماع الفرقة المحقَّة أيضاً؛ لأن الحقائق التي تدور حولها الأبحاث الفلسفية؛ إمَّا أن تكون غيبية، والعقل مما لا شك فيه قاصر عن نيلها بمعزل عن الوحي، وإمَّا أن تكون غير غيبية؛ فإن تمّ التوصل إليها عن طريق الوحي فالفضل يكون له وليس للعقل، وإن تمّ التوصل إليها بمعزل عنه فلا دليل عليها منه، ولا يمكن القطع بحجيتها والاعتقاد بها.

ونستخلص مما تقدم:

أنَّ اختلاف طبائع الإنسان، وعدم قدرته على تبيان المغيبات، وقصور وعجز عقله، جميعها أسباب كافية بأن تجعل إرسالهم عليهم السلام لغاية لا يعلمها إلا الحكيم عزّ وجلّ[1]، ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾[2].

---

(١) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (إنما أرسل الرسل إلى الإنسان؛ لأن الإنسان كان جامعاً لطباع الملائكة وطباع الشياطين وطباع سائر الحيوانات وطباع سائر الخلق حتى الجمادات والمعادن والنبات، وكان الإنسان أكرم خليقته عليه ـ كما سمعت سابقاً ـ، وإنما خلقه جامعاً لطباع جميع خلقه ليكون جامعاً لكل شيءٍ فإذا أطاعه مع ما فيه من كثرة الطبائع المختلفة بلّغه أشرف الدرجات، وإن عصاه وآثر هواه على طاعة مولاه أبعده من رحمته وأقصاه.

ولما كان إنما خلقه كذلك لإسعاده لا لإبعاده جعل له عقلاً يهديه إلى ما يحب الله، ولأجل لطفه به ومحبته عليه أرسل إليه الرسل والمنذرين والهداة؛ ليبينوا له ما خفي عليه ويوضحوا له ما أشبه عليه، وليقووه على ما عجز عنه عقله أو اشتبه عليه إقامة للحجة وإيضاحاً للمحجة ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة.

ولو تركه ونفسه لغلبت نفسه عقله فلم يتحرك إلى الله لكثرة ما فيه من الطباع المختلفة مع أن عقله إنما أتاه بعد بلوغه وقد تمكنت فيه الشهوات والطبائع المختلفة؛ فلأجل ذلك أسبغ نعمه ظاهرة وهم الرسل وباطنة وهم العقول). [رسائل الحكمة ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ص٣٤].

(٢) سورة النساء ـ الآية: (١٦٥).

وأن تلك الحجج هي من جملة ألطافه ونعمه ﷻ ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[١] ؛ لأنه لم يدعنا لوحدنا في رحلة بحثنا المعرفية العقائدية، بل أنعم علينا بها كرماً، لتكون كالسراج المنير في الطريق المؤدي إلى معرفته.

وأنَّ توهم إمكانية معرفة الله ﷻ بسليقة الفطرة فقط، أو بالبراهين العقلية فقط ـ كما يعتقده البعض ـ، من دون حاجة الرجوع إلى كتبه السماوية وأوامره الإلهية، أو من دون الحاجة إلى رسله وأنبيائه وأئمته عليهم السلام ؛ توهم كاسد لا جدوى من الاستدلال عليه، أو النظر فيما يتحصل منه[٢].

(١) سورة لقمان ـ الآية : (٢٠).

(٢) يقول آية الله العظمى السيد كاظم الحسيني الرشتي قدس سره ـ في التوحيد الذاتي ـ: (ولا نعلم كيف ذلك، إلا أنه تعالى المخبر الصادق، أخبر عن نفسه في كلامه الحق المبين، فنقول به، ولولاها لما نعرف توحيده وصفاته، كيف ونحن في الإمكان وهو في الأزل، نحن منقطعون عنه انقطاع العلة من المعلول). [تفسير آية الكرسي ـ السيد كاظم الرشتي: ج٢ ص١٠].

أعلى مراتب الكمال الإنساني

ذكرنا سابقاً أنَّ الحكمة الإلهية من إرسال الرسل، وإنزال الكتب السماوية وغيرها، هو من أجل تقنِين المصدر المعرفي الإلهي للإنسان؛ ليُعينه على السير في طريق كماله وجوداً، ونمائه الحضاري بقاءً، أي: يعينه على معرفة ربه؛ إذ لولاها لما عُرِف الله ﷻ وعُبد، فتلك الأسباب لم تُجعل عبثاً؛ بل اقتضت حكمته الإلهية ذلك[1].

وقد يَسأل شخصٌ ما تساؤلاً مفاده هو: لو استغل الإنسان جميع هذه السُبُل، وجاء بما يترتب على تكليفه من مقدمات؛ سواء كانت علميّة أو عملّية، وعلى الوجه الذي أمر الله ﷻ به؛ فما هي أعلى مرتبة كمال وجودية يمكنه الوصول إليها؟

بمعنى آخر:

هل يستطيع الإنسان أن يترقى في مراتب الكمال الوجودي حتى يصل

---

(١) يقول العلامة الشيخ محمد آل أبي خمسين ﷺ: (أن العالم عالم أسباب كما تنادي به البديهة وتشهد به الضرورة؛ لأن الله سبحانه له الحمد وله الشكر، أجرى عادته في إيجاد العالم، أن يجري الأشياء بأسبابها؛ بترتيب على بعض؛ لطفاً وكرماً منه، وإلا فهو سبحانه قادرٌ على الإيجاد بدون توسطها، لكن الحكمة اقتضت هكذا لتتمكن الموجودات من الدليل والاستدلال على معرفة مطلوبه منهم). [العلامة الشيخ محمد آل أبي خمسين ـ نجاة الهالكين: ص١٢٤ـ١٢٥].

إلى رتبة الأنبياء أو رتبة الأئمة عليهم السلام؟ وإذا لم يمكنه فعل ذلك؛ فما معنى قول الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم في حق سلمان المحمدي رضي الله عنه: «سلمان منا أهل البيت»[١]؟

أو هل يمكنه تجاوز ذلك، بأن يدرك أو يصل إلى كنه الحق عز وجل؟ كما شطحت بذلك بعض المناهج الإسلامية ـ وغيرها ـ حينما صدحت بفرضية وحدة الوجود[٢].

أم أنَّ هناك رتبة للإنسان يتوقف عندها أثناء صعوده في كماله؟ وإذا كان هناك توقفٌ في سِلَّم الكمال؛ فما معنى قوله عز وجل في الحديث القدسي: «ليس لمحبتي غاية ولا نهاية»[٣]؟

إنّ بيان هذا الأمر، والإجابة على ما يحتويه من تساؤلات عقائدية، يحتاج إلى استطراد مقدمات حكمية مبسطة؛ ليكون لها شأنية التمهيد للوصول إلى الإجابات الشافية والوافية بإذن الله عز وجل. فنقول وعليه التوفيق:

السلسلة الطولية للموجودات

كيف خلقنا الله عز وجل؟

يُعَدّ هذا السؤال من الأسئلة الشائكة التي حيرت أصحاب المعقول

---

(١) عيون أخبار الرضا ـ الشيخ الصدوق: ج٢ ب٣١/ فيما جاء الرضا من الأخبار المجموعة ص٧٠ ح٢٨٢.

(٢) وحدة الوجود اصطلاحاً: هي مذهب فلسفي صوفي يوحِّد بين الله والعالم، ولا يُقر إلا بوجود واحد هو الله، وكل ما عداه أعراض وتعيينات ومظاهر له. [الموسوعة العربية الميسرة: ج٢ ص١٩٤٥].

(٣) إرشاد القلوب ـ الديلمي: ب٥٤/ فيما سأل رسول صلى الله عليه وآله ربه ليلة المعراج ص١٩٩.

وغيرهم، فلم تتفق إجاباتهم على نسق واحد في الإجابة عليه، بل أن لكل واحد منهم شريعة ومنهاج فيه؛ وذلك لاختلاف مشاربهم ومآربهم، ولو أنهم اجتمعوا على ما أنزل الله ﷻ على ألسنة رسله وأنبيائه والأئمة عليهم السلام، لما اختلفوا فيه أو في غيره؛ لأن كلام الله ﷻ وكلامهم عليهم السلام يجمعهم[١].

وبغض النظر عن أطروحاتهم ـ فلسنا بحاجة إلى بيانها مفصلاً؛ إذ ليس هناك فائدة مرجوة من ذكرها هنا فهي موكلة إلى كتب المطولات ـ، فإنه يمكننا الإجابة على هذا السؤال المطروح أمامنا من خلال إمعان النظر في جوانب عقيدتنا الحقَّة.

فاعلم ـ عزيزي القارئ ـ أنّ الله ﷻ لما أحب أن يُظهرَ ما خفي من فاعليته ـ لا ما خفي من ذاته ـ في مظاهر المفاعيل[٢]، كما ورد في الحديث

---

(١) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (وذلك لشدة تحقيقاتهم، وكثرة تدقيقاتهم، وإيراداتهم للإشكالات، وإثباتهم للاعتراضات، حتى لا تكاد تجد شخصين متوافقين، وذلك لاختلاف أفهامهم وأنظارهم، وتغاير مذاقاتهم واعتباراتهم... وَجب أن يختلفوا ولا يتفقوا، بخلاف الذين يعتقدون بعقولهم بما يفهمونه من شيء واحد، بأن يكون كل واحدٍ منهم طالباً للمراد من ذلك الشيء الواحد، فإنهم لا يختلفون؛ لاجتماعهم عليه. مثاله: إذا نظر جماعة إلى شخص حاضر عندهم، فإنهم لا يختلفون في وصفه اختلافاً كثيراً؛ لأن أفهامهم في إدراك صفاته تابعة لأبصارهم، فيفهمون مما رأوا. وهؤلاء أمثال العلماء الذين يعتقدون بعقولهم بما علمهم الله تعالى، وأخبرهم نبيه ﷺ وأوصيائه عليهم السلام، فإنهم لا يكادون يختلفون؛ لأن كلام الله سبحانه وكلام نبيه وأهل بيته عليهم السلام يجمعهم). [شرح الفوائد ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص١٨٧ـ١٨٨].

(٢) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (قلت: فظهر، فلا شيء أظهر منه، وإنما ظهر كل شيء بأثر ظهوره. أقول: يعني أن كونه أظهر من كل شيء؛ لأن ظهور كل ما سواه إنما هو أثر ظهوره بذلك السَّواء؛ يعني: أنه تعالى ظهر للمخلوق بذلك المخلوق ـ أي بإيجاده ـ وهو ﷻ لم يتحول ولم يتغير عن أزليته، فمعنى ظهوره لزيد مثلاً ظهوره بزيد ـ أي: إحداثه ـ فيكون لا ظهور لزيد إلا ظهور الله سبحانه، فالظهور لفعله تعالى، فلا يكون شيء أظهر منه. وهذا معنى قولي: وإنما ظهر كل شيء بأثر ظهوره؛ لأن ظهور الأشياء إنما هو ظهور فعله بها، فلا ظهور لها غير ظهور فعله بها لها). [شرح الفوائد ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٢٦٤].

القدسي: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أعرف»[١]، أوجد الأشياء بفعله لا من ذاته[٢].

لأنه واحد أحد، صمد، أحدي المعنى، كما قال الإمام السجاد عليه السلام: «الصمد هو الذي إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، والصمد الذي أبدع الأشياء فخلقها أضداداً وأشكالاً وأزواجاً، وتفرد بالوحدة بلا ضد ولا شكل ولا مثل ولا ند»[٣].

ولأنه ليس كمثله شيء، فهو خلو من جميع مخلوقاته وهم خلو منه، وهو المتفرد في رتبةِ أزليته[٤]، كما روي عن زرارة بن أعين، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام، يقول: «إن الله تبارك وتعالى خلو من خلقه، وخلقه خلو منه،

---

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٨٤ ص١٩٩ ح٦.

(٢) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (ومذهبنا هو مذهب أئمتنا عليهم السلام هو أن العلة الأولى هي القريبة، وهي فعل الله تعالى والصادر الأول عنها هو الوجود، والحقيقة المحمدية، والأشياء كلها تركبت من شعاع تلك الحقيقة، وأن فعل الله سبحانه هو مشيئته وإرادته، كما قال الرضا عليه السلام: «فالمشيئة والإرادة والإبداع أسماؤها ثلاثة ومعناها واحد»[تحف العقول ـ الحسن بن شعبة الحراني: ص٤٢٣]، وروى الصدوق في التوحيد بسنده عن الرضا عليه السلام، أنه قال: «المشيئة والإرادة من صفات الأفعال، فمن زعم أن الله سبحانه لم يزل شائياً مريداً فليس بموحد»[بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٤ ب٤ ص١٤٥]). [شرح المشاعر ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٢ ص٢٤].

(٣) التوحيد ـ الشيخ الصدوق: ب٤/ تفسير قل هو الله أحد... بيانه في معنى التوحيد والموحد ص٩٠ ح٤.

(٤) يقول السيد كاظم الحسيني الرشتي قدس سره: (إيّاك وإيّاك أن تتوهم من كلامنا الظل والسنخ، وأن تكون الموجودات على مثال الحق وصورته، نعوذ بالله من هذا الاعتقاد، وأنا براء منه، وممن يقول به.

كيف لا، وإن الله تعالى لا ظل له، ولا شيء يشبهه، ومن سنخه، وهو الواحد، المتفرد في أزليته، لا يشبهه شيء، ولا يخالفه شيء، ولا يضاده شيء، ولا يناده شيء، ولا يشاركه شيء، ولا هو من شيء، ولا في شيء، ولا كشيء، ولا عن شيء، ولا منه شيء. وهو الأحد، الفرد الصمد، الذي ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[سورة الإخلاص٤ ـ الآيتان: (٣ـ٤)]. ولا يعلم كيف ذلك، ولا يدري ما هنالك). [تفسير آية الكرسي ـ السيد كاظم الرشتي: ج١ ص١٨٤ـ١٨٥].

وكل ما وقع عليه اسم شيء ما خلا الله ﷻ فهو مخلوق، والله تعالى خالق كل شيء، تبارك الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير»[١].

فذاته ليست علة للأشياء، بل أن الأشياء صادرة بفعله[٢]، كما قال عليه السلام ـ في الخطبة المسماة باليتيمية ـ: «علة ما صنع صنعه، وهو لا علة له»[٣]، وكوْن الفعل هو العلة الحقيقية للموجودات، لا يعني بأنه المحدث لها، أي: الخالق للأشياء؛ بل أن الله ﷻ هو المحدث والموجد لها به[٤].

وهو جوهر*[٥] خلقه الله ﷻ بنفسه؛ لئلا[٦] يلزم الدور أو التسلسل،

---

(١) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج١ ك/ التوحيد ب/إطلاق القول بأنه شيء ص٨٣ ح٤.

(٢) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (وأما أن الله تعالى علة، فباطل؛ لأن الله سبحانه ليس علة لشيء، بل كل شيء علته صنعه، وهو فعله وصنعه علة نفسه بالله، كما قال الصادق عليه السلام: «خلق الله المشيئة بنفسها، ثم خلق الخلق بالمشيئة»... إن إطلاق العلة عليه على نحو الحقيقة، غير جائز إلا على معنى أنه فاعل بفعله لا كما يقولون أنه فاعل بذاته، بل على معنى أن الأشياء بجميع أنحائها من موادها وصورها، وجوداتها وماهياتها، مقبولاتها وقابلياتها، وكل شيء منها ولها، مستندة إلى فعله تعالى خاصة). [شرح المشاعر ـ الشيخ الأوحد: ج٢ ص٣٥٤].

(٣) مجموعة رسائل (ملي): ص٢٨٨.

(٤) يقول العلامة الشيخ محمد بن أبي خمسين قدس سره: (وربما توهم بعض القاصرين عن المعارف الإلهية، بأن الفاعلية لو كانت من صفات الفعل؛ للزم التعطيل في الذات، وهذا توهم كاسد، وخيال فاسد؛ لأن الفاعل ليس إلا الله سبحانه، وليس فاعلاً سواه، لكن هذه الصفة ليست ذاتية له؛ بل أوجدها بفعله وهي في رتبة فعله، وهو الفاعل بفعله لا بذاته). [نجاة الهالكين ـ الشيخ محمد بن أبي خمسين: ص١٩٩].

(٥) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (أن الوجود هو الفائض عن فعل الله سبحانه لا من شيء، فيجب أن يكون جوهراً، إذ لو لم يكن جوهراً لكان عرضاً، للانحصار فيهما، ولو كان عرضاً؛ لاستلزم سبق معروضه، والوجود منه خلق جميع المخلوقات). [شرح الفوائد ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٢ ص١٣٨].

(٦) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (خلق الله الفعل ـ الذي هو المشيئة ـ بنفسه، إذ لا يحتاج في إيجاد الإيجاد إلى إيجاد آخر، لاستغنائه بنفسه عن غيره، لا لئلا يلزم الدور أو التسلسل؛ لأن لزوم الدور أو التسلسل ليس هو الدليل الذي نشأ عنه ذلك. نعم، هو دليل في المناقضة لإبطال دعوى المخالفة، وكما كان مخلوقاً بنفسه لا بفعل آخر. كذلك كان قائما بنفسه لا بشيء آخر، إذ ليس شيء غيره إلا الفاعل تعالى، والفعل لا يقوم بالفاعل قياماً ركنياً؛ لأنه المراد هنا). [شرح الفوائد ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٣١٠].

فهو مستغني عن غيره؛ بمعنى: أن قيامه كان بنفسه لا بشيء آخر إلا الفاعل سبحانه وتعالى.

فأمَّا أنه ﷻ خلقه بنفسه، أي: خلقه لا من شيء كان، فهذه جهة تعيّنه من ربه، فهو أمره ﷻ، كما في قوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[١]، وهو الوجود المطلق[٢]، والكلمة التي انزجر لها العمق الأكبر، أي: الإمكان[٣]، والمشيئة والإرادة والإبداع[٤]، فعن أبي عبد الله عليه السلام، أنه قال: «خلق الله المشيئة بنفسها، ثم خلق الأشياء بالمشيئة»[٥]، وقال مولانا الرضا عليه السلام ـ في مناظرته لعمران الصابي ـ: «واعلم أن الإبداع والمشيئة والإرادة معناها واحد وأسماؤها ثلاثة. وكان أول إبداعه وإرادته

---

(١) سورة يس ـ الآية: (٨٢).

(٢) يقول آية الله العظمى السيد كاظم الحسيني الرشتي قدس سره: (ولما أراد أن يعرف، وأحب أن يعبد، خلق الوجود المطلق، لا من شيء، ولا كشيء، بل اخترعه اختراعاً، وابتدعه ابتداعاً، وهو الفعل، والولاية المطلقة، والأزلية الثانية، وعالم (فأحببت أن أعرف) [بحار الأنوار: ج٨٤ ب١٢/ كيفية صلاة الليل والشفع... ص١٩٩ ح٦]). [تفسير آية الكرسي ـ السيد كاظم الرشتي: ج١ ص١٨٥].

(٣) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (اعلم أن المشيئة أول خلق خلقه الله تعالى بنفسه، وهي الكاف المستديرة على نفسها، تدور على نفسها على خلاف التوالي، ونفسها تدور عليها على التوالي، وهي وإن كانت مراتبها أربع، إلا أنها واحدة؛ لأنه فعل الواحد سبحانه، وهي الكلمة التي انزجر لها العمق الأكبر، وهو الإمكان، ولا ممكن لا يمكن تعلقها). [الرسالة القطيفية (جوامع الكلم) ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص١١٥].

(٤) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (المشيئة هي الذكر الأول، يعني أن الفاعل إذا أراد صنع شيء، أول ما يذكره وتتوجه إليه العناية؛ هو المشيئة. وإذا تأكد ذلك العزم سمي إرادة... والإبداع هو الفعل، وهو خلق ساكن لا يدرك بالسكون، كما قال الإمام الرضا عليه السلام؛ يعني أنه ساكن، أي: غير متغير، لا أنه ساكن بالسكون الذي هو ضد الحركة؛ لأن هذا السكون محدث به، ولا يجري عليه ما هو أجراه). [شرح الفوائد ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٢٨٢ـ٢٨٥].

(٥) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج١ ب/ الإرادة إنها من صفات الفعل ص١١٠ ح٤.

ومشيئته، الحروف التي جعلها أصلاً لكل شيء، ودليلاً على كل مدرك، وفاصلاً لكل مشكل.

إلى أن قال عمران: يا سيدي، ألا تخبرني عن الإبداع أخلق هو أم غير خلق؟

فقال عليه السلام: بل خلق ساكن لا يدرك بالسكون، وإنما صار خلقاً لأنه شيء محدث، والله الذي أحدثه فصار خلقاً له، وإنما هو الله عز وجل وخلقه لا ثالث بينهما»[1].

وأمّا قيامه بنفسه، أي: جهة تعيّنه بالنسبة إلى ما سواه من المفعولات، فتحققه وظهوره متوقف على وجود محل يتقوّم به من نفسه، أي: على مظهر له، وهو أثره، وصفته التي لولاه لما ظهر؛ لكونه غيباً هو بحاجةٍ إلى محلٍ يُظهِره.

فأثر الفعل مخلوق من استعداد الفعل نفسه لا من شيء غيره، وهما ـ الفعل وأثره ـ كالكسر والانكسار، فإن الانكسار فعل من الكسر وصفة له؛ إلا أن ظهوره متوقف على الانكسار نفسه[2]، قال الله عز وجل: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء﴾[3].

---

(١) التوحيد ـ الصدوق: ب٦٥/ ذكر مجلس الرضا بيانه في علة إرادته تعالى بالعبد سوءا ص٤٣٨ ح١.

(٢) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (اعلم: أن وجود محمد صلى الله عليه وآله هو أول فائض عن فعل الله تعالى، وهو أثرها، وهو متعلق المشيئة الذي لا يظهر إلا به، فهو كالانكسار، والمشيئة هو كالكسر، وهو الانفعال الراجح المشار إليه بالزيت الذي يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار كناية عن راجحيته في الوجود والظهور). [رسالة الآخوند (جوامع الكلم) ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٢ ص٨١].

(٣) سورة النساء ـ الآية: (١).

ولهذا فإن اختلاف صور المشيئة ـ أو أثر الفعل ـ كان بحسب كل رتبة من مراتب تنزلاتها، وتكثر أسماءها كان باعتبار المفعولات المتعلقة بها، أي: باعتبار متعلقاتها وآثارها[١]، فيطلق عليها من هذا الباب بعدة إطلاقات منها:

الهيولى: أو المادة الأولى التي أوجدها لا من شيء كان، ومنها صدرت وجودات الأشياء كلها[٢]، فعن حنان بن سدير، عن أبيه، عن أبي إسحاق الليثي، قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام: «يا إبراهيم إن الله تبارك وتعالى لم يزل عالماً خلق الأشياء لا من شيء، ومن زعم أن الله عز وجل خلق الأشياء من شيء فقد كفر، لأنه لو كان ذلك الشيء الذي خلق منه الأشياء قديماً معه في أزليته وهويته كان ذلك أزلياً بل خلق الله عز وجل الأشياء كلها لا من شيء»[٣].

---

(١) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (أقول: إنما تعددت هذه المراتب في نفسها، بالقياس إلى هيئة تعلقاتها بمتعلقاتها؛ لما بينها من المشابهة، كما بين حركة يد الكاتب وبين الحروف من المشابهة في الهيئات، وذلك باعتبار كشف الفوائد، لا في نفسها؛ لأنها في نفسها في كمال البساطة الإمكانية). [شرح الفوائد ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٣٠٨].

(٢) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (اعلم أن سبحانه خلق الأشياء لا من شيء، أي: لا من مادة كانت معه غير مكونة، وإلا لكانت مخلوقة من حصص قديمة لم تزل، تعالى ربي عن ذلك علواً كبيراً، بل خلق لها مادة اخترعها لا من شيء سبق، وإنما هي تأكيد فعله وأثره، مثل: (ضرباً)، الذي هو الحدث من (ضَرَب)، وذلك هو هيولى الأشياء ووجودها.

وهو الذات التي ذوت منه ومن أشعته الذوات؛ لأن ذلك جوهر، والجوهر إن كان جسماً فهو متقوم بصفاته، وأعراض أفعاله، التي هي منشأ قابليته للتكوين والظهور في أعيان رتبته، وإن كان مجرداً فهو متقوم بما تلبس وأمكن فيه من صفات أفعاله، وأعراض رتبته من الكون، وإلى هذا المعنى إشارة بقول أمير المؤمنين عليه السلام: «والذي بالجسم ظهوره فالعرض يلزمه» [الخطبة اليتيمية، راجع كشكول المصنف: ج٢ ص٣٥٩]). [شرح الفوائد ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٣ ص١١].

(٣) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٥٤ ب١/ حدوث العالم وبدء خلقه... ص٧٦ ح٥١.

الماء أو النور[١]: كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[٢]، وقولهم عليهم السلام: «أول ما خلق الله الماء»[٣]، «أول ما خلق الله النور»[٤].

الحقيقة المحمدية[٥]: لكون وجود أشرف المخلوقات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم،

---

(١) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (وما يحصّله من نور الاعتقادات الصحيحة، التي أتت بها الشريعة المحمدية، لأنه من النور الذي خلق منه المؤمن؛ أعني المادة المنيرة بنور الإمتثال، المشفوع بصحيح الإعمال، والمراد به الوجود؛ أعني مادة المؤمن، فالنور الذي يستنير به القلب في الحقيقة هو ما كان من نور المادة، أعني الوجود الذي هو شعاع من نور النبوة، ومن نور الصورة، أعني الماهية المطمئنة، التي هي من هيئة الولاية). [شرح العرشية ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٥].

(٢) سورة الأنبياء ـ الآية: (٣٠).

(٣) عيون أخبار الرضا ـ الشيخ الصدوق: ج١ ب١١/ في وقوف الأئمة... ص١١٠ ح٣٣.

(٤) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج١ ك/ العقل والعلم والجهل ب٢/ حقيقة العقل وبدء خلقه ص١٠٥.

(٥) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (أقول: الحقيقة المحمَّديَّة لها عندنا إطلاقان:

[الأول] قد نُطلقها ونريد لها المقامات التي هي اسم الفاعل، كـ(القائم) الذي هو اسم فاعل القيام، والقائم مركب في الحقيقة من فعل متقوَّم بفاعله تقوُّم صدروه من أثر فعله، وهو القيام الذي هو الحدث، وهذا المقام أعلى ما يحصل في الإمكان الراجح. ومثالها: الحدية المحماة بالنار، فإنه لا فرق بين النَّار في تأثيرها وبين الحديدة المحماة بها؛ لأنها إذا أثَّرت فتأثيرها إنما هو تأثير النَّار بها، أي: جعلت النار فعلها في الحديدة، والحديدة محلٌّ فعلها، وهذا الفعل أحدثته النار به لا بفعل غيره، فمجموع الفعل وأثره كـ (القائم)؛ كـ (الحديدة المحماة بالنار). فهذه الرُّتبة أوَّل التعينات وأعلاها، وهو المثل الأعلى ـ بفتح الثاء ـ، والمثل الذي ليس كمثله شيء ـ بكسر الميم وسكون التاء ـ؛ لأن الله سبحانه خلقه آية له، لا يدل على غيره تعالى، ولا يدل على نفسه؛ ولو كان مثله شيء لدل عليه، ولو دل على غير الله تعالى؛ لزم التشبيه وارتفع التوحيد، وهذا هو التوحيد الخالص.

[الثاني] وقد نُطلقها ونُريد بها أثر المشيئة الكونية، وهو أوَّل صادر من مشيئة الله، وهو الوجود، وهو الماء الذي جعل منه كلَّ شيء حي، وهو العنصر الأول لكل محدث، وهو نور الأنوار، والمادة الأولى التي خلق الله كل شيء من شعاعها، وهي بمنْزلة القيام.

فعلى المعنى الأوَّل لا إشكال؛ إذ لم يكن قبل ذلك الشيء. وعلى المعنى الثَّاني؛ فعلى حصر الاصطلاح لأقسام الوجود في الثَّلاثة الأقسام، فهل يكون هذا النُّور الذي هو أول صادر عن الفعل لاحقاً بالمطلق؛ لعدم تقييده بشيء، كما لا يتقيد الفعل، أم لا يكون لاحقاً، بل هو من المقيد؛ لأنه متوقف على قابليته وانفعاله، وهو غيره؟ فيه احتمالان. وقد يُستفاد من بعض الأخبار إلحاقه بالأوَّل، والله سُبحانه أعلم). [شرح الفوائد ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٢٨٥ ـ٢٨٦].

هو أول فائض عن فعله سبحانه وتعالى، ومن ثم أهل بيته عليهم السلام[١].

الرحمة الكلية[٢]: كما في قوله عز وجل: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[٣]، وكما في دعاء الجوشن الكبير: «يا من ليس كمثله شيء، يا من لا يعزب عن علمه شيء، يا من هو خبير بكل شيء، يا من وسعت رحمته كل شيء»[٤].

فالفعل الذي يعبر عنه بالأمر[٥]، وبالكلمة التي انزجر لها العمق الأكبر، وبالمشيئة وبالإرادة وبالإبداع وبالاختراع، وبغيرها من التعبيرات

---

(١) يقول العلامة الشيخ محمد بن أبي خمسين قدس سره: (وأول من حدث منه الحقيقة المحمدية، التي هي محله ومظهره، لأنه بدون المظهر لا يظهر؛ لكونه غيباً، والغيبي لا بد له من مظهر يظهر فيه، كالإحراق، الذي هو فعل النار، فإنك ترى ظهوره يتوقف على وجود محل يحل فيه، ومظهر يظهر فيه أو به، فأول صادر عن فعله تعالى هو مظهر فعله، ومحل مشيئته. والله سبحانه يحدث ويوجد بفعله، فأول شيء أحدث تلك الحقيقة الرفيعة المقدسة، لتكون مظهراً لفعله، ومترجمة لفيضه). [مفاتيح الأنوار ـ الشيخ محمد بن أبي خمسين: ج١ ص٣٦٧ـ٣٦٨].

(٢) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (ـ قلت: والرحمة الكلية ـ أقول: إشارة إلى مبدأ الكون؛ المشتمل على الفضل والعدل، فإنه صفة الرَّحمان العامة، وهي التي استوى بها على عرشه، وهي التي وسعت كل شيء، والرَّحمة الخاصة صفة الرحيمً، المختصة بالمؤمنين. فالرحمة الكلية لها إطلاقان: أحدهما: يُراد منه الفعل والمشيئة، كما هو هنا. وثانيها: يراد منه أوَّل صادر عنه، وهو الحقيقة المحمَّديَّة). [شرح الفوائد ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٢٨٠ـ٢٨١].

(٣) سورة الأعراف ـ الآية: (١٥٦).

(٤) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٩١ ب٥٢/ الاحتجابات المروية عن الرسول صلى الله عليه وآله وما يناسب... ص٣٩٦ ح١.

(٥) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (وعندنا عالم الأمر هو عالم الفعل بجميع أصنافه؛ كالمشيئة والاختراع، والإرادة والإبداع، والجعل والتقدير، والقضاء والإمضاء والإذن. وعالم الخلق سائر المفعولات، من جميع الأشياء. وقد يطلق عالم الأمر على ما كان مَحلاً لفعْلِ الله، من سائر الأشياء، وهي في أنفسها مختلفة، باعتبار قربها من المبدأ وعظمها، فما كان لا يتحقق الفعل إلا به، صدق عليه الأمر، ويقال: إنه من عالم الأمر؛ لكونه مَحلاً للأمر، كالحقيقة المحمَّدية صلى الله عليه وآله؛ لأنها محل مشيّئة الله، ولا تتقوّم المشيئة إلا بها، وإن كانت بالمشيئة كانت فيتحقق فيهما التساوق والتضايف، كالكسر والانكسار. فالفعل عالم الأمر الذي قام به كل شيء من الممكنات قيامَ صدور، والنور المحمدي صلى الله عليه وآله عالم الأمر الذي قام به كل شيء من الممكنات قيام تحقّق). [شرح العرشية ـ الشيخ الأوحد: ج١ ص٣٠٠ـ٣٠١].

والإطلاقات، هو قائِمٌ بنفسه، وظاهرٌ في هيئة تعلقاته من المفعولات التي تكون محلاً له، كالحقيقة المحمدية وغيرها من مفعولاته؛ فجميعها يطلق عليها بعالم الأمر لتحقق الفعل بها.

وإن قلت: إنّ إنوجاد الفعل لا من شيء كان يستلزم أن تكون المخلوقات صادرة من اللا شيء، أي: أنها صادرة من العدم!

قلت: إنّ هذه الشبهة نابعة من مخيلتنا في فهم لفظ صُنع أو خَلق، فنحن نعتقد أنه لا بد من وجود شيء يمكن إجراء التغييرات والتعديلات عليه لصنع شيء آخر؛ فمن أجل صنع باب مثلاً، يتعين وجود الخشب الذي سيعمل عليه النجار ليحوله إلى باب، فنقول حينئذٍ: أنه صَنع الباب.

وعندما نقول: أنّ الله ﷻ صَنع العالم، يتبادر إلى أذهاننا أنَّه كانت هناك مادة استخدمها ﷻ في صنعه؛ لأنه إن لم تكن هناك مادة فكيف لهُ ـ سبحانه وتعالى ـ أن يخلقه[1]؟

والحقيقة أنّ هذه الأفكار الساذجة والخاطئة ناتجة مما ألفناه من أعمالنا وأفعالنا البشرية؛ فإننا لا نستطيع إدراك أن هناك شيئاً يمكن أن يوجد بقدرته لا من شيء كان!

---

(١) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (أن الصانع إذا أراد أن يصنع شيئاً لابد له من مادة يصنع منها الشيء، فغير الله سبحانه يأخذ مادة مطلوبه مما صنع الله ﷻ. وأما الله سبحانه فلم يكن عنده في ملكه شيء إلا ما صنعه، فإذا أراد أن يخلق خلقاً، خلق مادة ذلك المخلوق، وصنعه من تلك المادة، كالكاتب فإنه يصنع المداد أولاً، ثم يكتب منه ما شاء، فالخلق الأول: هو صنع المادة. والخلق الثاني: هو الصنع من تلك المادة، كما مثلنا). [شرح الفوائد ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٣٤٥].

ومن المعلوم بأن إدراك عقولنا لا يتم إلا عن طريق الالتفات إلى الحواس أولاً، أي: أنه من أجل إدراك شيء ما بعقولنا، لابد من إدراك المصداق الحسي لذلك الشيء بواحدة من حواسنا الظاهرة أو الباطنة، ومن ثم نقوم بتجريد المفهوم الجزئي الذي حصلنا عليه لذلك الشيء؛ لنحصل بالنتيجة على مفهوم عامّ ومعقول له.

فإدراكنا العقلي يعتمد بشكل أو بآخر على الحس، فمن يقول: بأنه يستطيع أن يدرك فعل الله ﷻ، فلابد أن يكون قد أدركه سابقاً بالحس؛ ومن البديهي أن الذات الحق ﷻ وفعله غير قابلا للإدراك، لا من خلال الحس ولا غيره؛ لكونهما غيباً.

بل كيف يمكننا إدراك حقيقته ﷻ، أو حقيقة فعله، ونحن لا نستطيع إدراك حقائق أنفسنا، أو حقائق الأمور المادية التي تحيط بنا[1]؟!

---

(١) يقول العلامة الشيخ محمد بن أبي خمسين ﷺ: (لأن الله ـ سبحانه ـ لما خلق المشاعر للإدراك جعل لكل مشعر مدركاً لشيء، مثلاً خلق الحواس الظاهرة لإدراك المحسوسات الظاهرة من الشامة والذائقة واللامسة والباصرة والسامعة.

وخلق الحواس الباطنة لإدراك المحسوسات الباطنة، مثلاً خلق الحس المشترك لإدراك الصورة المثالية، والمتخيلة لإدراك الصور المجردة، والواهمة لإدراك المعاني الجزئية، والمفكرة لتفرق بينها وترتيبها، والحافظة لحفظها، والعاقلة لإدراك المعاني الكلية.

ولا يمكن إدراك المعاني مطلقاً بغير العاقلة والواهمة من الحواس الباطنة، ولا العكس، أي ولا يمكن إدراك باقي مدركاتها بهما، ولا المعاني الباطنة بأنواعها بالحواس الظاهرة، ولا العكس، لأن كل مدرك إنما يدرك ما هو من جنسه وسنخه، ولذا قال الإمام عليه السلام: «إنما تحد الأدوات أنفسها، وتشير الالآت إلى نظائرها» [نهج البلاغة: ص١٩٨ خطبة رقم (١٨٦)]. فكما أنه ـ تعالى ـ لا يدرك بالحواس الظاهرة؛ لأنه ليس من سنخها، فكذلك لا يدرك بالباطنة عقلاً). [مفاتيح الأنوار ـ الشيخ محمد بن أبي خمسين: ج١ ص١٥٦ـ١٥٧].

فعلى الرغم من تطور البشرية وتقدم وسائل البحث العلمي لديها ؛ إلا أنه لازالت عاجزة عن فهم الأشياء التافهة على حقيقتها، كالنملة والبعوضة، ونحن نراهما بالعين المجردة ؛ وعليه، فمن الأولى أن نعجز عن إدراك ما لا يُرى بالبصر، كالذات المقدسة وفعلها التي لها الخلق والأمر كله.

وإن قلت: أنَّ الأحاديث الواردة في الصادر الأول عن الله ـ سبحانه وتعالى ـ تُبيّن في صريح منطوقها أنّ الأشياء صدرت من ذاته لا من فعله[١]!

قلت: إنَّ هذا التوهم بضاعة كاسدة تستلزم العلاقة بين القديم والحادث ؛ سواء كان ذلك في الوجود بأن يكون حقيقة واحدة، أو في باقي الصفات كالعلم والقدرة وغيرها[٢].

---

(١) من قَبِيّل: عن أبي حمزة قال: سمعت علي بن الحسين عليه السلام يقول: «أن الله خلق محمداً وعلياً وأحد عشر من ولده من نور عظمته» [الكافي ـ الشيخ الكليني: ج١ ك/ الحجة ب١٨٣/ ص٦٠٩ ح٦]. وعن محمد بن مروان، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: «إن الله خلقنا من نور عظمته». [الكافي ـ الشيخ الكليني: ج١ ك/الحجة ب/ خلق أبدان الأئمة وأرواحهم... ص٣٨٩ ح٢].

(٢) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (ويريدون أن الوحدة حقيقة واحدة، كالوجود، والعلم والقدرة وغيرها، فصرف الوحدة التي لا يشوبها شيء غيرها، هي وحدته جل جلاله، وهي عين ذاته تعالى، وسائر الوحدات شؤون لها، قائمة بها، انحطت بما عرض لها من نقائص مراتب تنزلها، من غير أن تلحق تلك النقائص لها لذاتها، بل هي في ذاتها مبرأة عن شوب النقائص، وكذلك صرف العلم الذي لا يشوبه جهل، وصرف القدرة التي لا يشوبها عجز، وصرف الوجود الذي لا يشوبه عدم، وكذا سائر الصفات ما خلص وصفاً فهو الواجب تعالى، وما كان مشوباً فهو ما ينسب إلى الممكن، من غير أن يلحق الشوب شيئاً منها لذاته، فما ثبت للوجودات من الوجود ثبت للوحدات من الوحدة الحق، ولسائر العلوم من العلم الذي هو حقيقة العلم، ولسائر القدرة من القدرة التي هي صرف حقيقة القدرة، وهكذا سائر الصفات... وأما على ما نقوله نحن تبعاً لأئمتنا عليهم السلام، من أن الذات البحت لا يلزمها شيء، ولا تلتزم شيئاً، ولا تكون فعلاً، ولا إرادة، ولا مشيئة، لئلا تكون مستندة إلى غيرها، أو مستنداً لغيرها، ولا تدخل مع غيرها تحت مفهوم، ولا في قيد لفظ أو معنى، بل هي مبرأة من كل ما يجوز على غيرها، فلا توصف إلا بالوحدة الحقيقة، التي لا يكون منشؤها متوقفاً على شيء غيرها. [شرح العرشية ـ الشيخ الأوحد: ج١ ص١٤٠].

وقد ذهب إلى هذا الإعتقاد مجموعة من المدارس الفكرية في الإسلام، ومنها ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ مدرسة الحكمة المتعالية.

حيث قال مؤسسها الملا صدرا الشيرازي[١]: (بأن النسبة بين وجود الحق والوجود الحادث هي نسبة العينية ـ الاشتراك المعنوي ـ والعلاقة بينهما هي علاقة السنخية، أي أن الوجود ليس إلا واحد حقيقي مشكّك وهو وجود الحق، وأما وجود المخلوق ليس إلا تجلياً من تجلياته)[٢].

وقال تلميذه ـ الفيض الكاشاني ـ[٣]: (كما أن وجودنا بعينه هو وجوده سبحانه، إلا أنه بالنسبة إلينا محدث، وبالنسبة إليه ﷻ قديم، كذلك صفاتنا من الحياة والقدرة، والإرادة وغيرها، فإنها بعينها صفاته سبحانه، إلا أنها بالنسبة إلينا صفة لنا، ملحقة بنا، والحدوث اللازم لنا لازم لوصفنا، وبالنسبة إليه سبحانه قديمة، لأن صفاته لازمة لذاته القديمة)[٤].

والمتكلمون ومن سار على منهج المدرسة المشائية ـ أيضاً ـ قالوا: بأن العلاقة بينهما هي علاقة العلة بالمعلول[٥]، وهذا باطل؛ لأنه على فرض كون

---

(١) هو الملا محمد بن إبراهيم بن يحي الشيرازي ﷺ، الملقب بـ(ملاّ صدرا وبصدر الدين). ولد في شيراز سنة (٩٧٩هـ) أو (٩٨٠هـ) في عهد الملك طهماسب. من مؤلفاته: الأسفار، العرشية، الشاعر، المبدأ والميعاد وغير ذلك من مصنفاته. توفي عام (١٠٥٠هـ) في البصرة، ودفن في النجف الأشرف. [فلاسفة الشيعة: ص٣٨٦].

(٢) كتاب المبدأ والمعاد ـ الملا صدرا: ص١٦٨.

(٣) هو المولى محمد بن الشاه مرتضى الشهير بملا محسن الفيض الكاشاني، توفي في بلدة كاشان سنة (١٠٩١هـ) ودفي فيها، له تصانيف عديدة منها: الكلمات المكنونة، الوافي، الصافي في تفسير القرآن، وغير ذلك. [روضات الجنات: ج٦ ص٧٣. والكني والألقاب: ج٣ ص٣٩].

(٤) الكلمات المكنونة ـ الفيض الكاشاني: ص١٣٨.

(٥) كشف المراد في تجريد الإعتقاد ـ الخواجة نصير الدين الطوسي ـ شرح العلامة الحلي: العقول المجردة ص١٥٥.

الله ﷻ هو علة الأشياء؛ فالعلة إما أن تكون تامة، وإما أن تكون ناقصة، والقول بكلاهما يترتب عليه مفاسد متوالية[١].

فالعلة التامة: هي التي يستحيل تَخَلُّفِ المعلول عنها؛ وإلا لَما كانت تامة. ولو كان ﷻ هو العلة التامة للممكنات؛ لاستلزم أن يكون فاعلاً بالاضطرار لا بالاختيار، ومحلاً للحوادث، فتندرج الممكنات في ذاته، وهذا باطل.

وعلى فرض كونه علة ناقصة ـ أي: محتاجة إلى مدد يمدها ـ؛ لاستلزم حدوثه ﷻ؛ لاحتياجه إلى مدد يمده ويعينه، وهذا أيضاً باطل.

والقول الحق هو[٢] ما ذهب إليه علمائنا العظام ـ تقدست أسرارهم ـ، طبقاً لرواياتهم عليهم السلام، وللعقل المستنير بهم، من أن جميع الأشياء

---

(١) يقول آية الله الميرزا حسن كَوهر قدس سره: (إنه لا يصح إطلاق العلة على الله؛ أما أولاً: فلأن أسماء الله توقِّيفية للأدلة الدالة على توقِّيفية الأسماء... وأما ثانياً: فلأن العلة إما تامة أو ناقصة. فالأولى: هي التي يستحيل تخلف المعلول عنها، وإلا لم تكن تامة، فلو كان الواجب علة تامة لوجود الإمكان، لما جاز تخلف الإمكان عنه، فيلزم أن يكون فاعلاً موجباً لا مختاراً، ويلزم أن يكون من لوازم ذات الواجب؛ لوجوب عدم التخلف، فيلزم أولاً اقترانه بالإمكان، وثانياً كونه مَحلاً للحوادث؛ لأن الملزوم محل اللازم، ثالثاً: كون الإمكان مندرجاً في الواجب؛ لأن اللوازم مندرجة في الملزومات ذكراً، إن لم نقل باندراجها عيناً على ما يزعمون. والثانية: هي التي لا تستقل في الإحداث إلا بمدد يمدها، فلو كان الواجب ـ سبحانه ـ علة ناقصة؛ للزم استكماله واحتياجه إلى ممد يعينه ويمده، وذلك يستلزم حدوثه). [المخازن ـ الشيخ حسن كَوهر: ص٣٢ـ٣٣].

(٢) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (أنه لا تكون الذات فاعلاً، وإنما الفاعل مثالها، ألا ترى زيداً مرة يفعل، ومرة لا يفعل، ولو كانت ذاته بنفسه هي الفاعلة، لكانت الفاعلية عين حقيقتها، فلا تتحقق إلا فاعلة، ولكنها إذا لم تفعل فهي الذات حقيقة، وإذا فعلت فهي حينئذٍ قد لبست ثوباً، أعني المثال الذي هو ظهورها بالفعل، أي فعلها لما ظهرت به، وذلك المثال من الذات بمنزلة القائم من زيد، والقائم من زيد إذا فتشت عن حقيقته وجدته اسماً لفاعل القيام لا لذات زيد، فهو في الحقيقة مصاغ من فعل زيد للقيام، ومن القيام الذي هو أثره، فجعل اسماً لفاعل القيام، ومثاله كالحديدة المحماة بالنار، فإن ذلك فاعل الإحراق، لأن الحرارة التي هي فعل النار هي المحرقة، والحديدة محلها الحامل لها، فالعالم العارف بالله سبحانه ينتهي عنده الكلام إلى أمر يكون هو بفعله فاعلاً لا بذاته). [شرح العرشية ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص١٣٤ـ١٣٥].

صدرت بفعله لا من ذاته، وأفعالهُ كلها في رتبة الحدوث لا في رتبة الذات[١].

وأمَّا بالنسبة إلى الإضافة (من نور عظمته) فهي بيانية تشريفية، وليست إضافة ذاتية. فالله ﷻ نسب بعض الأشياء لنفسه لبيان شرافتها لا لصدورها منه[٢]، فقال بيتي في الكعبة لتشريفها: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[٣]، وقال روحي: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[٤]؛ والروح هي من عالم الأمر لا من ذات الحق، كما قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾[٥]، وكما ورد عن محمد بن

---

(١) يقول العلامة الشيخ محمد بن أبي خمسين قدس سره: (إن الذات البحت البات لا يجوز أن تكون بذاتها فاعلاً وعلة للمكنات، وذرات الكائنات لتقدس الحق وتنزهه عن هذه الصفات في رتبة الذات؛ لعدم كونها من صفات الكمال في رتبتها، فليست فاعلاً ولا مفعولاً، وليست علة ولا معلولاً، وليست صفة ولا موصوفاً، وهذه الاعتبارات إنما هي حدود خلقه وصنعه، ومسميات آثار قدرته ومشيئته، فلا يجري عليه ما هو أجراه في بريته، ولا يعود إليه ما هو أنشأه في خليقته). [نجاة الهالكين ـ الشيخ محمد بن أبي خمسين: ص٢٠٠ـ٢٠١].

(٢) يقول آية الله العظمى السيد كاظم الحسيني الرشتي قدس سره: (وأما قوله: (من نور ذاته)، ليس المراد أنهم قطعة من ذات الحق ـ جل وعلا ـ أو جزء لها، أو منفصل منها، كانفصال الأشعة من الشمس، لا، تعالى ربي وتقدس عن مشابهة المخلوقين والمحدثين، والاقتران بهم، أو الاتحاد معهم، بل المراد أن الله سبحانه خلق ذلك النور العظيم، المالئ جميع الإمكان والأعيان، الذي هو ظاهر الحق في الخلق لهم، وشرفهم به، وأكرمه لهم بانتسابه إلى نفسه، مثل ما قال تعالى: الكعبة ﴿بَيْتِي﴾ [سورة الحج ـ الآية: (٢٦)]، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [سورة الحجر ـ الآية: (٢٩)]، تعالى ربي وتقدس عن أن يكون له مكان، أو أحاط به شيء). [تفسير آية الكرسي ـ السيد كاظم الرشتي: ج٢ ص٢٤٠].

(٣) سورة الحج ـ الآية: (٢٦).

(٤) سورة الحجر ـ الآية: (٢٩).

(٥) سورة الإسراء ـ الآية: (٨٥).

مسلم قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾[١]، كيف هذا النفخ؟

فقال عليه السلام: «إن الروح متحرك كالريح، وإنما سمي روحاً لأنه اشتق اسمه من الريح، وإنما أخرجه على لفظة الروح لأن الروح مجانس للريح، وإنما أضافه إلى نفسه لأنه اصطفاه على سائر الأرواح كما اصطفى بيتاً من البيوت فقال: بيتي، وقال لرسول من الرسل: خليلي وأشباه ذلك، وكل ذلك مخلوق مصنوع محدث مربوب مدبر»[٢].

فنسبة خَلق نور النبي صلى الله عليه وآله من نوره عز وجل لا يستلزم تركيب الخالق ولا اتحاده مع المخلوق؛ لأن النور الذي خُلِق منه صلى الله عليه وآله يرجع إلى أثر الفعل الحادث، وهو غير الذات.

فلا إشكال في تكثر الممكنات؛ لأنها صادرة من مشيئته الحادثة التي تنتهي إليها جميع الأشياء، أي: أنها صادرة من الفعل المحدث لا من ذات الحق[٣]، فقد قالت مولاتنا الزهراء عليها السلام في خطبة فدك: «ابتدع الأشياء لا من

---

(١) سورة الحجر ـ الآية: (٢٩).

(٢) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج١ ك/ التوحيد ب/ الروح ص١٣٣ ح٣.

(٣) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (ونحن نريد أن المنتهي والمنتهي إليه حادث، ولا يلزم التسلسل؛ لأنها تنتهي إلى الفعل المحدث؛ أعني المشيئة، والمشيئة جعل نهايتها إلى نفسها، وأقامها بنفسها، وقد نبه عليه السلام على ذلك الغافلين، فقال: «خلق الله المشيئة بنفسها، ثم خلق الأشياء بالمشيئة»[التوحيد: ب١١/صفات الذات وصفات الأفعال ص١٤٧ ح٢٩]، فجعل الخلق منتهياً إلى المشيئة، والمشيئة منتهية إلى نفسها؛ لأنها ظاهراً هي الحركة الإيجادية، والحركة الإيجادية لا تحتاج في إيجادها إلا إلى حركة إيجادية، وهي بنفسها حركة إيجادية، فلا تحتاج إلى أزيد من نفسها، فخلقها تعالى بنفسها). [شرح العرشية ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص ٤٦٦].

شيء كان قبلها، وأنشأها بلا احتذاء أمثلة امتثلها، كونها بقدرته، وذرأها بمشيئته»[١]، وكلمة (ذرأ) تستخدم في باب تكاثر الموجودات، يقال: ذرأ الحرث والأنعام، وذرأ الله الخلق: أي كثَّرها[٢]، كما في قوله تعالى: ﴿مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[٥].

فالمشيئة والإرادة من الصفات الفعلية لا من الصفات الذاتية؛ لصحة سلبها عن الذات، فيمكن أن يقال: شاء ولم يشأ، أراد ولم يرد، رزق ولم يرزق، خلق ولم يخلق؛ ولو فُرِض كونها من صفات الذات لما صح السلب[٦]، فعن صفوان بن يحيى قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام: أخبرني عن الإرادة من الله عز وجل ومن الخلق؟

---

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٢٩ ب١١/ نزول الآيات في أمر فدك ص٢٢١ ح٨.

(٢) انظر: تاج العروس ـ الزبيدي: ج١ مادة (ذرأ) ص١٥٦.

(٣) سورة الأنعام ـ الآية: (١٣٦).

(٤) سورة المؤمنون ـ الآية: (٧٩).

(٥) سورة الشورى ـ الآية: (١١).

(٦) يقول آية الله العظمى السيد كاظم الرشتي الحسيني قدس سره ـ في الصفات الفعلية ـ: (أن الآثار تنبي عن الصفات الكمالية المنسوبة إلى المبدأ؛ لكن فيها اقتران وارتباط ونسبة. والاقتران والنسبة والارتباط تستلزم الكثرة، فحيث امتنعت الكثرات بكل الجهات في الذات البحت البات تعين أن تكون تلك الصفات للفعل؛ على أنه تثبت مرة وتنفي أخرى وتثبت الضد أخرى؛ وما هذا شأنه يمتنع أن يكون في الذات القديمة الأزلية، فتكون تلك الصفات ثابتة للفعل وذلك: كالمشيئة والإرادة، كما تقول سأفعل كذا إن شاء الله وإن أراد الله، وقولك هذا دليل على أنه لم يشأ ولم يرد، كما قال ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾[سورة ـ التكوير: (٢٩)]). [رسالة عبد الله بيك ـ السيد كاظم الرشتي: ص٢٠ـ٢١].

فقال عليه السلام: «الإرادة من المخلوق الضمير وما يبدو له بعد ذلك من الفعل، وأما من الله عز وجل فإرادته إحداثه لا غير ذلك؛ لأنه لا يروي ولا يهم ولا يتفكر، وهذه الصفات منفية عنه، وهي من صفات الخلق، فإرادة الله هي الفعل لا غير ذلك، يقول له: كن، فيكون بلا لفظ، ولا نطق بلسان، ولا همة، ولا تفكر، ولا كيف لذلك، كما أنه لا كيف له، فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون»[١].

واعلم أنَّ أول تعيّنات الفعل وأعلاها في عالم الإمكان، هو نور الحقيقة المحمَّدية صلى الله عليه وآله[٢]، ثّم نور وصيه عليه السلام، ثّم أنوار ذريته عليهم السلام.

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إن الله تبارك وتعالى أحد واحد تفرد في وحدانيته، ثم تكلم بكلمة فصارت نوراً، ثم خلق من ذلك النور محمد صلى الله عليه وآله وخلقني وذريتي، ثم تكلم بكلمة فصارت روحاً فأسكنه الله في ذلك النور وأسكنه في أبداننا، فنحن روح الله وكلماته»[٣].

فأول مَخلُوقٍ خُلِق قبل تنفس كل موجود من المجرة إلى الذرة، هو نور

---

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٤ أبواب الصفات ب٤/ القدرة والإرادة ص١٣٧ ح٤.

(٢) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (خزانة المكونات، وهي طبق المشيئة الكونية، والمشيئة الكونية هي المشيئة الإمكانية، وإنما اختلف الاسم باعتبار المتعلق، ووقتها السرمد؛ لأنها هي الأول، ووقت متعلقها المقيد الدهر للعقول أوله، وللنفوس أوسطه، وللمواد آخره، وللأجسام الزمان أعلاه لمحدد الجهات، وأوسطه للسماوات، وأسفله للجمادات والنباتات. وأول متعلقها الحقيقة المحمدية صلى الله عليه وآله، ووقتها وجهه الأعلى من السرمد، ووجهه الأسفل من الدهر، فهو برزخ بين عالم الأمر وعالم الخلق، وكذلك عالم المثال برزخ بين المجردات والجسمانيات). شرح العرشية ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص ٩٨ـ٩٩.

(٣) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج١٥ ب١/ بدء خلقه وما جرى له في الميثاق... ص١٠ ح١٠.

نبينا الأعظم ﷺ[١]، كما قال الله ﷻ: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾[٢]، ثم[٣] خُلِق

---

(١) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (اعلم أن وجود محمد ﷺ هو أول فائض عن فعل الله تعالى، وهو أثرها، وهو متعلق المشيئة الذي لا يظهر إلا به، فهو كالانكسار، والمشيئة هو كالكسر، وهو الانفعال الراجح المشار إليه بالزيت الذي يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار كناية عن راجحيته في الوجود والظهور، وهو المقام الجامع لمعانيه سبحانه، أي معاني أفعاله، فما بعثه فعل الله وكلمته إلى أرض الجرز، يعني القابلية، ظهر بها الفعل، فإن هذا الوجود بمنزلة الماء، والقابلية بمنزلة الأرض الجرز، والأرض الميتة، فنزل عليها أي نزل الوجود المحمدي ﷺ الذي هو الماء إلى أرض الجرز الذي هو الماهية والقابلية التي ظهر منها العقل الكلي الذي هو البلد الطيب، فوجوده ﷺ أثر المشيئة ومفعولها، وبه وبالقابلية ظهر العقل، أي عقل الكل). [رسالة الآخوند ـ الشيخ الأوحد: ج٢ ص٨١].

(٢) سورة طه ـ الآية: (٤١).

(٣) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (والذي يترجح عندي في تفضيل الأربعة عشر معصوماً ﷺ، أن أفضلهم وسيدهم رسول الله ﷺ وهذا معلوم، ثم من بعده أميرهم علي بن أبي طالب عليه السلام، ثم الحسن، ثم الحسين عليهما السلام، لحديث: «سيِّدا شباب أهل الجنة». [بحار الأنوار: ج٢٥ ب٩/ ص٢٤٩]، وتفضيل الحسن على الحسين عليهما السلام بالنص الخاص عن الصادق عليه السلام. روى الصدوق ـ رحمه الله ـ في إكمال الدين بإسناده إلى هشام بن سالم قال: قلت للصادق جعفر بن محمد عليه السلام: الحسن أفضل أم الحسين؟ فقال: «الحسن أفضل من الحسين عليه السلام، قلت: فكيف صارت الإمامة من بعد الحسين في عقبه دون ولد الحسن؟ فقال: إن الله تبارك وتعالى لم يرد ذلك إلا أن يجعل سنة موسى وهارون جارية في الحسن والحسين عليهما السلام، ألا ترى أنهما كانا شريكين في النبوة، كما كان الحسن والحسين شريكين في الإمامة؟ وإن الله ﷻ جعل النبوة في ولد هارون ولم يجعلها في ولد موسى وإن كان موسى أفضل من هارون» [إكمال الدين: ج٢ ب/٤٠ ص٤١٦] انتهى. ثم القائم ـ عجل الله فرجه ـ لحديث: «وتسعة من ذرية الحسين عليه السلام تاسعهم قائمهم أعلمهم» [بحار الأنوار: ج٣٦ ب٤١/ ص٣٧٢]، رواه المقداد في شرح الباب الحادي عشر. وفي أخرى: «تاسعهم قائمهم أعلمهم أفضلهم» [متشابه القرآن: ج٢ ص٥٤]. وحديث الوصية في قول النبي ﷺ لعلي عليه السلام في أمر الوصية: «وأنا أدفعها إليك يا علي، وأنت تدفعها إلى وصيك، ويدفعها وصيك إلى أوصيائك من ولدك واحداً بعد واحدٍ حتى تدفع إلى خير أهل الأرض بعدك» [بحار الأنوار: ج٤ ب١٧ ص١٤٨] الحديث. خرج تفضيل الحسن والحسين عليهما السلام بحديث «سيدا شباب أهل الجنة» وبقي الباقي، وفي معانيه روايات كثيرة. ثم الأئمة الثمانية عليهم السلام كلهم في الفضل سواء، ومما تحمل أحاديث المساواة على ذلك. ثم فاطمة الزهراء عليها السلام كما يشير إليه ما رواه في الفقيه فيما أوصى محمد علياً عليهما السلام وعلى آلهما: «يا علي إن الله ﷻ أشرف على الدنيا فاختارني منها على رجال العالمين، ثم اطلع ثانية فاختارك على رجال العالمين، ثم اطلع ثالثة فاختار الأئمة من ولدك على رجال العالمين، ثم اطلع رابعة فاختار فاطمة عليها السلام نساء العالمين». [بحار الأنوار: ج٤٣ ب٥ ص٩٩]. وهو يشعر بتفضيلهم عليها ـ عليهم وعليها السلام ـ. ومثل حديث الأنوار التي تزهر بها لعلي عليه السلام فإنها بقيت كذلك إلى أن ولدت الحسنين عليهما السلام). [شرح المشاعر ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٢ ص٣٨٥ـ٣٨٦ـ٣٨٧].

من نوره صلى الله عليه وآله نور وصيه أمير المؤمنين عليه السلام، ثم خُلِق من نور وصيه أمير المؤمنين عليه السلام نور الإمام الحسن عليه السلام ونور الإمام الحسين عليه السلام، ثم خُلِق من نور الإمام الحسين عليه السلام نور الإمام القائم المنتظر عليه السلام، ثم خُلِق أنوار الأئمة الثمانية عليهم السلام من نور الإمام القائم، ثم خُلِق ظرف هذه الأنوار ووعاءها، وهو نور أمهم فاطمة الزهراء عليها السلام، وتأخرت لمقام التعريف لهم عليهم السلام.

فترتبهم هنا[1] قائم على سبقهم في رتبة الخلق شرفاً، فالنبي الأعظم

---

(١) يقول العلامة الشيخ محمد بن أبي خمسين قدس سره: (وأما قول بعض العلماء أن فاطمة عليها السلام أفضل من أولادها، لأنها أمهم، لقوله عليه السلام: أن نور الحسن والحسين عليهما السلام اقتبس من نور فاطمة عليها السلام، كما يؤخذ الشعاع من السراج، فليس بصحيح. أما أولاً فنقول: هذا الحديث لا يجوز إبقاءه على ظاهره؛ لأن الضرورة دلت على أن الحسن والحسين عليهما السلام ليسا من شعاع فاطمة عليها السلام حتى عند من يقول بأفضليتها؛ لأنه مخالف للأخبار المتواترة، وللمشهور الذي عليه العلماء الإلهيون، والحكماء الربانيون، وهو كون بعضهم من بعض كالضوء من الضوء، والسراج من السراج، كما هو مفاد قول الأمير المتقدم. وإذا عرفت هذا، فنقول: أن معنى الحديث أن النور نورهما، وهي حاملة له، ومحل له، فلما أراد الله ـ سبحانه ـ إظهار الحسنين واطلاع ذلك الفرقدين، أخذ كما يؤخذ الشعاع من السراج. بدليل القضية التي جرت في زمان النبي صلى الله عليه وآله، أن أهل المدينة يرون نوراً أصفراً، يغشى أبصارهم في كل وقت ظهر، ولا يعلمون من أين هو؟، وما سببه؟ فيمضون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، ويسألونه عنه، وعن سببه، ويأمرهم بالمضي إلى دار فاطمة عليها السلام. فإذا راحوا إلى بيتها، يرونها قائمة في محرابها تصلي، والنور يتلألأ من جبينها. ووقت المغرب يرون نوراً أحمراً، فيمضون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله. ويسألونه عنه، ويأمرهم بالرواح إلى بيت فاطمة عليها السلام أيضاً، فيمضون، ويرونها كما رأوها في وقت الظهر قائمة تصلي يتشعشع من جبينها النور. وفي وقت الصبح نوراً أبيض، وهكذا، وكان هذا النور مستمراً فيها إلى أن ولد الحسين عليه السلام، فذهب ذلك النور الذي كان يظهر قبل توله. فبان أنه نورهما عليهما السلام، وهي ظرف لهذه الأنوار، ومظهر لهذه الأسرار، وأرض لهذه الأشجار، والشيء أفضل من محله ومظهره يقيناً، وأدنى من أصله، ومبدئه ومنبعه، وإن كان على شاكلته.

فظهر من هذا التقرير التام: أن الأئمة الكرام أفضل منها، وإن كانت هي سبقتهم في هذا العالم، الذي هو عالم الظهور؛ لأنها أرض الولاية، ولا بد من سبقتها فيه، وسبقيتها فيه ليس في دلالة على أفضليتها.

كأبينا آدم عليه السلام، فإنه أسبق في هذا العالم من جميع الأنبياء، ومع أنهم ـ يعني أولي العزم ـ أفضل منه، ثم محمد صلى الله عليه وآله أفضلهم مع أنه آخره. والحاصل، سبقية الظهور في هذا العالم ليس فيه دلالة على أفضلية، ولا على أدونية). [مفاتيح الأنوار ـ الشيخ محمد بن أبي خمسين: ج١ ص٣٩٨ـ٣٩٩ـ٤٠٠].

محمد ﷺ أفضل من أمير المؤمنين عليه السلام، وأمير المؤمنين عليه السلام أفضل من الإمام الحسن عليه السلام، والإمام الحسن عليه السلام أفضل من الإمام الحسين عليه السلام، والإمام الحسين عليه السلام أفضل من الإمام القائم المنتظر عليه السلام، والإمام القائم المنتظر عليه السلام أفضل من باقي الأئمة عليهم السلام، وهم أفضل من أمهم فاطمة الزهراء عليها السلام.

فالمقصود من ترتيبهم في بعض الأحاديث الواردة عنهم عليهم السلام، هو ترتيب تنزلهم في عالم الإمكان، لا تنزلهم في عالم الشهادة؛ وإلا فالأنبياء قد نزلوا لهذا العالم قبل النبي محمد ﷺ، وبالضرورة كونه أفضل منهم.

كذلك الزهراء عليها السلام قد نزلت لهذا العالم أولاً لكونها الوعاء الحامل لشجرة الولاية، فاقتضى نزولها قبلهم عليهم السلام، وسبقها عليها السلام في النزول لهذا العالم ليس بالضرورة أن يكون دليلاً على أفضليتها عليهم عليهم السلام.

وقد كانوا ـ صلوات الله عليهم ـ أشباح أنوار حول العرش يسبحون الله عز وجل ويحمدونه، ويقدسونه ويمجدونه، روي عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ، أنه قال: «يا ابن مسعود، اعلم أن الله تعالى خلقني وخلق علياً من نور عظمته قبل أن يخلق الخلق بألفي عام إذ لا تقديس ولا تسبيح، ففتق نوري، فخلق منه السماوات والأرض، وأنا والله أجل من السماوات والأرض. وفتق نور علي بن أبي طالب عليه السلام، فخلق منه العرش والكرسي، وعلي بن أبي طالب أفضل من العرش والكرسي. وفتق نور الحسن عليه السلام، فخلق منه اللوح والقلم، والحسن أفضل من اللوح والقلم. وفتق نور الحسين عليه السلام، فخلق منه الجنان والحور العين، والحسين والله أجل من الجنان والحور العين. ثم أظلمت

المشارق والمغارب فشكت الملائكة إلى الله تعالى أن يكشف عنهم تلك الظلمة، فتكلم الله جل جلاله بكلمة فخلق منها روحاً، ثم تكلم بكلمة فخلق من تلك الروح نوراً، فأضاف النور إلى تلك الروح، وأقامها أمام العرش، فزهرت المشارق والمغارب، فهي فاطمة الزهراء، ولذلك سميت الزهراء؛ لأن نورها زهرت به السماوات»[١].

ثم خُلِق[٢] من شعاع نورهم عليهم السلام نور الأنبياء عليهم السلام، ومن شعاع نور الأنبياء عليهم السلام خُلِقت أنوار المؤمنين من الأنس، ومن شعاع أنوار المؤمنين من الإنس خُلِقت أنوار المؤمنين من الجن، ثم الحيوانات، ثم النباتات، ثم المعادن، ثم الجمادات.

---

(١) الفضائل ـ ابن شاذان القمي: خبر خلق الأنوار الخمسة ص١٢٩.

(٢) يقول العلامة الشيخ محمد بن أبي خمسين قدس سره: (ثم اعلم يا أخي ـ أيقضك الله عن سنة الغفلة ـ أني لما تتبعت بعض الأخبار، وآثار أئمة الأطهار ـ عليهم سلام الله ما ناح قمري على الأشجار ـ ظهر لي وتحقق أنه سبحانه أول فتحه الوجود بمحمد صلى الله عليه وآله، وهو السراج الوهاج. ثم خلق من ذلك السراج المنير نور علي عليه السلام، ثم خلق من نوره الحسن عليه السلام، والحسين عليه السلام، ثم خلق من نور الحسين القائم عليه السلام، ثم خلق الأئمة الثمانية عليهم السلام خلقهم من نور القائم دفعة واحدة، ثم خلق فاطمة بعدهم عليهن السلام... ثم خلق الأنبياء عليهم السلام ـ يعني نورهم ـ وهم مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبي، من شعاع أجسام آل محمد عليهم السلام، وبقوا يسبحون الله، ويقدسونه ويحمدونه، ويهللونه، ويكبرونه، ألف دهر. ثم خلق من شعاع حقيقة الأنبياء كافة، بعد استجماعها لمراتب تنزلها، وقبل تحصصها إلى آدم عليه السلام، ونوح، وموسى، وعيسى عليهم السلام، وغيرهم. ثم خلق أنوار المؤمنين من الإنس، وبقوا كما ذكر ألف دهر، يسبحونه ويقدسونه، ويحمدونه. ثم خلق من أنوارهم أشعة المؤمنين من الجن، بعد حصول التنزل إلى مرتبة الكمال، لأن الشيء قبل كماله لا يظهر منه أثر، ثم خلق من أنوارهم أنوار المؤمنين من الحيوانات، ثم النباتات، ثم المعادن، ثم الجمادات، وهكذا، وهؤلاء الطيبون.

وأما الخبيثون، مثل كفار الإنس والجن، والشياطين المبغضة، والنباتات المرة، والأراضي السبخة، والمياه المالحة، فخلقوا من عكوسات الأنوار المذكورة، يعني كل خلق من عكس نوره الذي في رتبته). [مفاتيح الأنوار ـ الشيخ محمد بن أبي خمسين: ج١ ص٣٩٥ـ٤٠٢].

وخُلِق كفار الأنس، وكفار الجن، والشياطين، والمسوخ، والنباتات المرّة، والأراضي السبخة، والمياه المالحة، من أظلة تلك الأنوار وعكوساتها.

أما الملائكة فخُلِقوا من كل رتبة بحسب جنسها:

أولاً ـ الملائكة العالون[١] ـ حملة العرش ـ في رتبة النبي محمّد وآله عليهم السلام، وهم أربعة[٢]:

اثنان يطلق عليهم بالروح إذا نسبا إلى أمر الله عزّ وجلّ، وهم:

١ـ العقل الكلي المسمى بالقلم، ويستمد منه ميكائيل الموكل بركن الرزق.

٢ـ الروح الكلي المسمى بروح الكل، ويستمد منه إسرافيل الموكل بركن الحياة.

---

(١) يقول آية الله العظمى السيد كاظم الرشتي الحسيني قدس سره: (وأول ما ترجموا وبلغوا [أي: الأئمة عليهم السلام] للملائكة العالين، الذين ما سجدوا لآدم، قال تعالى: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾[سورة ص ـ الآية: (٧٥)].

وهم أربعة حملة العرش، الذي هو أنفسهم، النور الأبيض الذي من ابيض البياض، والنور الأصفر الذي منه اصفرت الصفرة، والنور الأخضر الذي منه اخضرت الخضرة، والنور الأحمر الذي منه احمرت الحمرة.

وهم أربعة ملائكة: روح القدس، والروح من أمر ربي، والنفس التي لا يعلم ما فيها عيسى عليه السلام، والروح على ملائكة الحجب). [تفسير آية الكرسي ـ السيد كاظم الرشتي: ج٢ ص٢٥١].

(٢) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (اعلم أن الروح يطلق على ملكَيْن من العالين. إذا نسب إلى أمر الله، وأمر الرب، أحدهما: على النور الأبيض من أركان العرش، وهو الأيمن الأعلى، وهو العقل الكلي؛ أي عقل الكل، المسمى بالقلم. وثانيهما: على النور الأصفر من أركان العرش، وهو الأيمن الأسفل، وهو الروح الكلي؛ أي: روح الكل.

ويطلق على ملكين أُخر من العالين أيضاً؛ أحدهما: على النور الأخضر من أركان العرش، وهو الأيسر الأعلى، وهو النفس الكلية، أي: نفس الكل، المسمى باللوح المحفوظ. وثانيهما: على النور الأحمر من أركان العرش، وهو الأيسر الأسفل، أي الطبيعة الكلية؛ أي: طبيعة الكل.

فالأولان: هما الروح من أمر الله. والأخيران: هما الروح الذي على ملائكة الحجب). [شرح العرشية ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٢ ص٣١].

واثنان يطلق عليهم بالروح إذا نسبا إلى الملائكة الذين على ملائكة الحجب، وهم:

١ ـ النفس الكلية المسمى باللوح المحفوظ، ويستمد منها عزرائيل الموكل بركن الموت.

٢ ـ الطبيعة الكلية: المسمى بطبيعة الكل، ويستمد منها جبرائيل الموكل بركن الخلق.

ثانياً: الملائكة الكروبيون في رتبة الأنبياء[١]، فعن أبي عبد الله عليه السلام، أنه قال: «إنّ الكروبيين قوم من شيعتنا من الخلق الأوّل، جعلهم الله خلف العرش، لو قسم نور واحد منهم على أهل الأرض لكفاهم.

ثم قال عليه السلام: إنّ موسى عليه السلام لما سأل ما سأل ـ الله تبارك وتعالى ـ أمر رجلاً من الكروبيين فتجلّى للجبل فجعله دكاً»[٢].

ثالثاً: الملائكة الصديقون المخلصون في رتبة المؤمنين.

رابعاً: الملائكة المقربون في رتبة الجن، وهكذا.

وكل عال باب الفيض للسافل، أي: أن كل ملائكة تتلقى الفيض من ملائكةِ الرتبةِ التي قبلها، فملائكة الجن تتلقى الفيض من ملائكة المؤمنين من

---

(١) يقول آية الله العظمى السيد كاظم الرشتي الحسيني قدس سره: (والثاني للملائكة الكروبيين، وهم أرباب الأنبياء بالله، أي تجلى الحق لهم بهم، وظهوره لهم، وهم الذين لما تجلى واحد منهم لموسى هلكت بنو إسرائيل، وخر موسى صعقاً، كما أخبر عنه تعالى بقوله ـ حكاية عن موسى ـ: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَـكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً﴾[سورة الأعراف ـ الآية: (١٤٣)]). [تفسير آية الكرسي ـ السيد كاظم الرشتي: ج٢ ص٢٥٢].

(٢) السرائر ـ ابن إدريس الحلي: مستطرفات كتاب السيّاري ص٩٢ ح٦.

الإنس، وملائكة المؤمنين من الإنس تتلقى الفيض من ملائكة الأنبياء، وهكذا. وهذا ينطبق أيضاً على باقي رتب السلسلة الطولية في تلقي الفيض[١].

هذه هي السلسلة الطولية في خلق الخلق، كما ذكرها أعلامنا ـ رضوان الله عليهم ـ؛ لا ما يقوله أصحاب المعقول ـ وغيرهم ـ: من أن الوجود كله من طينة واحدة، والتغاير والاختلاف بين المخلوقات وقع في رتبها التنزلية؛ بسبب الحدوث الذي اكتسبته من نقائصها وشوائبها بالشدة والضعف، كتعدد نور السراج الواحد، فكلما بَعُدَ النور عن المصدر ضَعُفَ وجوده، وكلما قَرُب كان أشرف، وإذا ألقى عن نفسه تلك الشؤون، أي: النقائص والشوائب، ترقى في صعوده حتى يكون في رتبة ذاته[٢].

فعندهم[٣]: مادة النبي صلى الله عليه وآله، ومادة أهل البيت والأنبياء عليهم السلام، ومادة

---

(١) يقول العلامة الشيخ محمد بن أبي خمسين قدس سره: (والملائكة التي في رتبة المؤمنين هم الصديقون المخلصون. والملائكة التي في مقام الجن هم المقربون، وهكذا إلى آخر المراتب. والملائكة التي في رتبة الأنبياء تتلقى الفيض عن ملائكة العالين، الذي هم في مقام آل الله، والملائكة التي في مقام المؤمنين تستمد وتتلقى الفيض عن الملائكة الكروبيين، الذين هم في مراتب الأنبياء، وهكذا). [مفاتيح الأنوار ـ الشيخ محمد بن أبي خمسين: ج١ ص٤٠٣].

(٢) العرشية ـ الملا صدرا الشيرازي: ص١١.

(٣) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (اعلم أن الوجود الممكن ذهبت فيه أكثر الحكماء والعلماء من أهل الملل والنحل: إلى أن هذه الموجودات المتكثرة المتعددة المختلفة كلها من طينة واحدة، وإنما اختلف باختلاف معيناتها وتغايرها، وتكثر بتكثر مراتبه من جهة القرب إلى المبدأ والبعد، كما تكثرت مراتب نور الواحد من جهة قربه من السراج وبعده، فأقواها نوراً وحرارةً ما كان أقرب إلى السراج، وأضعفها نوراً وحرارةً ما كان أبعد منه، وما بينها بالنسبة... وهذا غلط وباطل، وزبد مجتث زائل، إذ لو كان كذلك لأمكن في الناقص أن يلحق بالكامل، مع بقاء نقصانه الذاتي، فيجوز للمؤمن الصالح العامل بما أمر به أن يسأل الله تعالى أن يجعله نبياً؛ لأنه على هذا القول إنما لم يكن نبياً لأنه ناقص في بعض ما يتعلق به التكليف، وإلا فطينة الأنبياء عليهم السلام وطينة المؤمن واحدة، وليس كذلك). [شرح الفوائد ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٣ ص٥١ـ٥٢].

الإنسان والحيوان والحجر ـ إلى آخر السلسلة ـ، هي مادة واحدة أطلقوا عليها بجنس الأجناس، والتغاير بينهم يكون بالمشخصات فقط، أي: بالفصل المميز لكل نوع، فالإنسان يتميز بالناطقية، والفرس بالصاهلية، والحجر بالحجرية، وهكذا، وهذا مما لا شك في بطلانه.

والحق أن كل رتبة مختصة بخلقها وتوحيدها، ولا نصيب لمن بعدها فيها، كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾[١]؛ لأن ظهور أثر الفعل في كل شيء يكون بحسب مادته وقابليته[٢]، فرتبة الأئمة عليهم السلام مختصة فيهم، ورتبة الأنبياء عليهم السلام مختصة فيهم، وهكذا. فلا يستطيع شيء تجاوز رتبته إلى رتبة الأعلى منه، أي: لا أحد يستطيع الوصول إلى رتبة مبدئه أو تجاوزها؛ لأن السافل مخلوق من شعاع العالي، ولا شيء يمكنه إدراك ما وراء مبدئه[٣].

---

(١) سورة الصافات ـ الآية: (١٦٤).

(٢) يقول السيد كاظم الحسيني الرشتي قدس سره: (فقولنا أن الشيء يترقى كالعقل، ليس مرادنا أنه يتجاوز مقامه، ويصل إلى مقام الوجود، وهو يتجاوز عن مقامه، ويصل إلى مقام الكلمة التامة، وهي تتجاوز عن مقامها فتصل إلى مقام الحروف العاليات، وهي تتجاوز عن مقامها، فتصل إلى مقام الألف والنفس الرحماني، وهي تتجاوز عن مقامها فتصل إلى مقام النقطة، وهي تتجاوز عن مقامها فتصل إلى مقام الأزلية، مقام الوجود، فتنقطع السلسة أو تذهب إلى غير النهاية؛ لأنه باطل وكفر وزندقة؛ لأنه يلزم إما التسلسل، أو حدوث الوجوب، أو قدم العالم، وكل ذلك باطل مردود، ولا يحتاج إلى البينة في هذا المقام؛ لأن كتب أهل الحكمة وأهل الكلام مشحونة بذلك.

بل نقول: إن الشيء يحصل له الترقي وهو في مكانه وزمانه، ووقته وكونه، وكمه وكيفه، بحيث إذا رأيته حكمت عليه بأنه هو). [تفسير آية الكرسي ـ السيد كاظم الرشتي: ج٢ ص١٤٠ ـ ١٤١].

(٣) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (فكل شيء لا يدرك ما وراء مبدئه؛ لأن الإدراك إن كان بالفؤاد الذي هو أعلى مراتب الشيء ـ أي: الذات ـ أدرك نفسه، ولم يدرك ما فوق نفسه، إذ ليس فوق نفسه شيء منه ليميل إلى ما منه، فلو نظر ما وراءه ـ أي: ما فوقه ـ لم يجد نفسه، فلا نظر هناك ولا يجد غيره مما يكون أعلى منه). [شرح الفوائد ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٢ ص٢١٠]

فالإنسان مهما ترقى في مراتب الكمال لا يستطيع أن يكون نبياً، والأنبياء والرسل لا يستطيعوا أن يصلوا إلى رتبة أهل البيت عليهم السلام، وأهل البيت عليهم السلام لا يستطيعوا أن يصلوا إلى رتبة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، والنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لا يستطيع أن يصل إلى رتبة الله عز وجل. أما ترى كيف جبرئيل عليه السلام ـ في معراج النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ لما وصل إلى حجاب سدرة المنتهى قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «تقدم يا رسول الله، ليس لي أن أجوز هذا المكان، ولو دنوت أنملة لاحترقت»[١].

وأما بالنسبة لقول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «سلمان منا أهل البيت»[٢]، فليس المراد منه أن سلمان المحمدي رضي الله عنه ترقى في كمالاته حتى أصبح في رتبة الأئمة عليهم السلام؛ بل أن المراد منه هو الإشارة إلى أن سلمان رضي الله عنه من أتباعنا، ومن خواص شيعتنا، ومن حاملي سرنا، فالإضافة هنا إضافة تشريفية فقط، فمثلاً أنت تجيب: هذا منا، أو من عائلتنا، أو من أقربائنا، حينما يسألك أحد ما عن إنسانٍ عالمٍ من قرابتك، فتنسبه إلى نفسك شرفاً.

نعم، سلمان ازداد مقامه في نفس رتبة مؤمني الإنس، أي: ازداد مقامه في السلسلة العرضية من نفس الرتبة، وهذا سوف يأتي بيانه لاحقاً.

كما أن أهل البيت عليهم السلام قالوا هذه المقولة ـ(منا أهل البيت)ـ لمن هو أقل من سلمان رضي الله عنه مقاماً في رتبِ الكمال، فقد قالها رسول صلى الله عليه وآله وسلم لأبي ذر الغفاري: «انعم وأكرم بك يا أبا ذر إنك منا أهل البيت»[٣]، وقالها الإمام الصادق عليه السلام

---

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج١٨ أبواب احواله ص من البعثة... ب٣/ إثبات المعراج ومعناه... ص٣٨٢ ح٨٦.

(٢) عيون أخبار الرضا ـ الشيخ الصدوق: ج٢ ب٣١/ فيما جاء الرضا من الأخبار المجموعة ص٧٠ ح٢٨٢.

(٣) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٧٤ ب٤/ ما أوصى رسول الله إلى إبي ذر ص٧٤ ح٣.

في أبي عبيدة، حينما جاءت امرأته بعد موته وقالت: إنما أبكي وهو غريب. فقال لها عليه السلام: «ليس هو بغريب، إن أبا عبيدة منا أهل البيت»[١]. فتأمل، فإن المطلب دقيق جداً، وقد أظهرناه بتحقيق أنيق من كتبهم ـ تقدست أسرارهم ـ؛ لينتفع به المحب الموالي لهم عليهم السلام.

السلسلة العرضية للموجودات

اعلم ـ عزيز القارئ ـ إن تجلي الله عز وجل لكل شيء يكون بفعله لا بذاته ـ كما فصلناه في مباحثنا سابقاً ـ، وظهوره لهم يكون بهم، كما قال عليه السلام: «الحمد لله المتجلي لخلقه بخلقه»[٢]، وأن هذا الظهور أو التجلي أو الإشراق يكون بمقتضى قابلية المخلوقات في رتبها، فزيادتها أو ترقيها بعد التصفية والتزكية يكون في محلها ومكانها[٣].

وليس مقصودنا من الترقي هنا الترقي في رتب السلسلة الطولية، الذي هو صعود السافل من رتبته إلى رتبة العالي إلى أن يصل إلى مقام الحقيقة الكلية؛ بل أن مقصودنا هو ظهور تلك الحقيقة للمخلوق في نفس رتبته، وذلك لأن

---

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٧٤ ب١١/ أحوال أصحابه وأهل زمانه صلوات الله عليه ... ص٣٤٥ ح٣٨.

(٢) نهج البلاغة ـ الشريف الرضي: ج١ خطبة له في الملاحم ص٢٠٦ خطبة رقم(١٠٨).

(٣) يقول آية الله العظمى السيد كاظم الحسيني الرشتي قدس سره: (فإذا صفّوا تلك الأرض وأخلوها من الرذائل والقبائح، تترقى وتحيي، وتظهر روحها الكامنة فيها، فيحيى الأموات، فتفعل فعل الشمس في خارج المركز، فيفعل الواحد في المائة، وهذا تمام الإكسير، ثم إذا سقوه يزداد فعله، وكلما زاد السقي يزيد فعله، إلى أن يبلغ إلى مقام يكون الواحد على ألف ألف. وهكذا يترقى عند تزايد السقي). [تفسير آية الكرسي ـ السيد كاظم الرشتي: ج٢ ص١٤٣].

وجود الممكنات ليس متحداً في الرتبة، إذ لو كان كذلك للزم حدوث القديم، أو قدم العالَم، وهذا مما لا شك في بطلانه[١].

فإشراق الحقيقة الكلية في السلسلة الطولية يكون من العالي إلى السافل، أي: أن السافل خُلِق من شعاع العالي، وشعاع العالي مُعد لظهورِ السافل، ولا يظهر السافل قبل ظهور العالي، ولا يمكن للسافل أن يصعد لرتبةِ العالي. فالأنبياء خُلقوا أولاً من شعاع الحقيقة المحمدية، ومن أثر شعاعهم خُلق مؤمني الأنس، ومن أثر شعاعهم خُلق مؤمني الجن، وهكذا لنهاية المراتب.

أمّا في السلسلة العرضية فإن إشراق الحقيقة الكلية يكون لكل مخلوق وهو في رتبته، وظهورها له يكون بحسب استعداده وقابليته، حتى لا يلزم التكليف بما لا يطاق.

وترقيه أو سيره إلى مبدئه الحادث بعد كشف سبحات نفسه، أي: بعد تجريدها من كل شيء حتى من الإشارة، يكون إلى ما لا نهاية في مقامات

---

(١) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (والحق أن الوجود الممكن ليس متحداً في الرتبة الذاتية، ولا في الرتبة التنزلية، كما ذكره الأكثرون، من أن تعدده في الرتبة التنزلية، كتعدد نور السراج الواحد في مراتبه التنزلية، مع أن رتبته الذاتية واحدة.

فقولنا: (أن وجودات الممكنات ليست متحدة في الرتبة الذاتية)، نريد به أن الرتبة الأولى مختصة بالخلق الأول، وليس لمن بعدهم فيها نصيب بوجه من الوجوه، إلا ربط العلية بالمعلولية، فالوجود الذي خلقت منه العقول لم تخلق منه النفوس، لا من صفوته، ولا من باقيه، وإنما خلقت النفوس من أثر ما خلقت منه العقول، بمعنى: أنها خلقت من شعاع ما خلقت منه العقول...

وهكذا مراتب الوجود في تراميها من النور المحمدي ﷺ إلى التراب، كلٌّ سابق منير، وما بعده شعاعه ونوره، وكل نور جزء من سبعين جزء من نور منيره السابق عليه). [شرح الفوائد ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٣ ص٥٤ـ٥٥].

رتبته[١]، وهذا معنى ما ورد في الحديث القدسي: «ليس لمحبتي غاية ولا نهاية»[٢]؛ فالحقيقة الكلية تظهر في كل مظهر بظهور من الظهورات، وفي كل قابلية بطور من الأطوار، وتعدد مراتب التوحيد ما هو إلا باعتبار تعدد مراتب الموحدين[٣]؛ ولهذا قال الرسول ﷺ: «الطريق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق»[٤].

ونستخلص مما تقدم:

أن ظهور أو تجلي الذات يكون بالفعل في رتبة الفعل لا الذات، والفعل يحتاجُ إلى وعاءٍ لحمله، أي: مظهر يظهره، ووعاءه هو النبي

---

(١) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (واعلم أن الإنسان نزل من مكان عالٍ، وهو الآن عائد إليه، فهو يترق بلا نهاية في سيره إلى مبدئه الحادث الممكن، الذي كان في رتبة ذات الحق ﷻ ممتنع الوجود عدماً محضاً، لا ذكر له، ولا رسم، ولا اسم... والإنسان يسير صاعداً إلى مبدئه الكوني، وهو لا ينتهي في الأكوان، ولا يصل إلى مبدئه أبداً). [شرح الفوائد ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٢ ص٢١٣].

(٢) إرشاد القلوب ـ الديلمي: ب٥٤/ فيما سأل رسول ﷺ الله ربه ليلة المعراج ص١٩٩.

(٣) يقول آية الله العظمى السيد كاظم الحسيني الرشتي ﷺ: (ولما كان الخلق على أطوار متعددة مختلفة، متفاوتة في القرب والبعد، والنورانية والظلمانية، والتجرد والمادية، والعلو والسفل، وأمثال ذلك، وقس عليها اختلاف لغاتهم، وإدراكاتهم، ومشاعرهم، وأفهامهم، وعقولهم، وحقائقهم، وما جرى الخلق على طور واحد؛ بل خلقهم بمقتضى القابلية، وصف نفسه لهم ـ أي لكل واحد منهم ـ على قدر فهمه، ومقدار عقله، ووفق لسانه، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾[سورة إبراهيم ـ الآية: (٤)]. وإلا يلزم التكليف بما لا يطيق الخلق، فعرف كل واحد من الخلق توحيد الحق وصفاته وأسمائه وآثاره، على ما هو عليه في مراتبه وأطواره وأحواله، من الوجود والعقل والنفس والطبيعة والمثال والجسم، وهو قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾[سورة الرعد ـ الآية: (١٧)]، أي أنزل من سماء التجلي ماء التجلي، فسالت الأودية قوابل الممكنات الموجود المتحققة حين الإنزال بقدرها، فاختلاف مراتب التوحيد باعتبار مراتب الموحدين. فظهر أن التوحيد الذي للقريب غير الذي للبعيد، وإلا لكان القريب والبعيد على حال سواء، فتجلى الحق سبحانه للبعيد من فاضل تجليه للقريب، وظهر له بشعاع ظهوره). [تفسير آية الكرسي ـ السيد كاظم الرشتي: ج١ ص٣٠٢ـ٣٠٣].

(٤) تفسير المحيط الأعظم: ج١ ص٢٣٦.

الأعظم محمد وأهل بيته ـ صلوات الله عليهِ وعليهم ـ، فلا يظهر فعله في شيء من الموجودات إلا بواسطتهم، والظاهر من أثره ما هو إلا صفة استدلال لا صفة تكشف عنه.

وأن ترقي الإنسان في مراتب الكمال يكون في السلسلة العرضية فقط، وبحسب استعداده وقابليته تظهر له صفة التوحيد المستودعة فيه، وهي المثل الذي ظهر به الحق للخلق، وهي هيئة وجه الفعل عند التعلق، فقد قال أمير المؤمنين عليه السلام ـ حينما سئل عن العالم العلوي: «صور عالية عن الموادّ، عارية من القوّة والاستعداد، تجلّى لها ربها فأشرقت، وطالعها فتلألأت، وألقى في هويّتها مثاله، فأظهر عنها أفعاله، وخلق الإنسان ذا نفس ناطقة، إن زكاها بالعلم والعمل فقد شابهت جواهر أوائل عللها، وإذا اعتدل مزاجها، وفارقت الأضداد، فقد شارك بها السبع الشداد»[١].

وكذلك يبطل لديك[٢] قول الصوفية[٣]: من أن الإنسان يستطيع أن يكون أفضل من الأنبياء عليهم السلام، أو حتى من أهل البيت عليهم السلام؛

---

(١) غرر الحكم ـ للآمدي: ج١ ص٤٥٩ حرف الصاد ح٧٥.

(٢) يقول العلامة الشيخ محمد آل أبي خمسين قدس سره: (أن الجمادات لا تكون نباتات وإن ترقت غاية الترقي، ولا النباتات حيوانات وإن ترقت غاية الترقي، ولا هي إنسان كذلك، ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾. [سورة الصافات ـ الآية: (١٦٤)]. فلا تلتفت إلى خرافات بعض الصوفية، وبعض الحكماء، من أن الجمادات تترقى شيئاً فشيئاً حتى تكون نباتات، وهي تترقى حتى تكون حيوانات، وهي تترقى حتى تكون إنساناً، لأنه عاطل باطل، لاستلزام ذلك كون الأثر مؤثراً وبالعكس، وهو باطل بالضرورة، لأن الأثر ـ وإن بلغ ما بلغ ـ لا يخرج عن حده ورتبته من الوجود؛ لأن كل شيء له مقام معلوم، والأدوات إنما تحد أنفسها، والآلات إنما تشير إلى نظائرها). [مفاتيح الأنوار ـ الشيخ محمد آل أبي خمسين: ج٢ ص٤٢ـ٤٣]

(٣) الفتوحات المكية ـ ابن عربي ـ تحقيق/ عثمان يحيى: ج٢ ص٣٦٣.

حينما يترقى في مراتب الكمالات، أو أن بإمكانه أن يصل إلى حضرة القدس، أو أن يرى الحق ﷻ بعد قطع المقامات عندهم.

فمهما حصل للإنسان من معرفة اعتقادية فترقيه في مراتب كمالاته الإيمانية، لا يمكنه أن يتعدى مراتب السلسة العرضية، أي: أن زيادة كماله يكون في مقاماتِ رتبته نفسها، ومهما اجتهد في العبادة والعمل، لا يمكنه الوصول إلى رتبة الأنبياء عليهم السلام، أو رتبة الأئمة عليهم السلام، أو رتبة الذات الحق، فتأمل.

الحب الإلهي معيار الكمال

إنّ الحب الإلهي كما يعبر عنه الحكماء وأصحاب السير والسلوك في كتبهم، أو مدى القرب من الله ﷻ، هو المعيار الذي من خلاله يترقى الإنسان في مراتب كمالاته الإلهية.

فالإنسان لما نزل من مبدئه الممكن الحادث إلى عالم الأعيان والصور، تراه يسير صاعداً إليه عن طريق هذا الحب، وكلما قرب منه زادت رتبة قابليته وكماله[1]، أي: زادت معرفته بربّه.

يقول رسول الله ﷺ: «إنّ الله تعالى يقول: من تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً، ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً، ومن أتاني مشياً أتيته هرولة»[2].

وتحقيق هذا الحب يستنِد على عدة أمور أهمها:

---

(١) يقول آية الله العظمى السيد كاظم الحسيني الرشتي تدّثُ: (والإيمان قابل لجميع الخيرات الممكنة في حق المؤمن لا مطلقاً، تظهر فيه على قدر تصفية القلب وتزكيته؛ لأن مراتب الإيمان والمؤمنين متفاوتة...

فإن الله سبحانه إذا علم الإقبال من العبد إليه تعالى بطبيعته وذاته وحقيقته يقبل إليه، «من أقبل إلى الله شبراً يقبل الله إليه ذراعاً» [عوالي اللآلي: ج١ ص٥٦]، «وأعلم أنك للداعين بموضع إجابة، وللملهوفين بمرصد إغاثة» [بحار الأنوار: ك/الصوم ب٦/الأعمال وأدعية مطلق ليالي شهر رمضان... ص٩٥ ح٨٣]، فيزداد نوراً وفضلاً منه تعالى؛ لأن قابليته في المرتبة الأولى كانت أقل مما هي في الثانية). [تفسير آية الكرسي ـ السيد كاظم الرشتي: ج٢ ص١٤٨ـ١٤٩].

(٢) عوالي اللئالي ـ ابن أبي جمهور الأحسائي: ج١ المقدمة ف٤/ ص٥٦ ح٨١.

الأول: معرفة النفس

أنّ السير المعرفيّ الذي يجعل العارف يترقى في مراتب الكمال، هو السير المعرفيّ التحققيّ، أو ما يسمى بدليل الحكمة عند الحكماء والعرفاء؛ لأن ما يسعى إليه الإنسان من معرفة كمالية هو أمر يتجاوز المعرفة التحقيقيّة ـ أي المعرفة الكسبية ـ، التي لا تتجاوز نتائجها دائرة الذهن والوجود الصوري[١].

فالمعرفة التحققيّة هي التي تكشف لنا حقائق الأشياء وظهوراتها، وما يتجاوز قضايا المادة لا يستطيع السقف المعرفيّ التحقيقي منحنا إياه تماماً، حتى لو استعنا بوسائل العلم الحديثة[٢]. نعم، يمكننا اعتبار المعرفة التحقيقيّة بمثابة الأداة التي تساهم في الوصول إلى المعرفة التحققيّة.

وبما أنه ﷻ خَلَقَنا لنعرفَهُ، كما ورد في الحديث القدسي: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أُعرف فخلقت الخلق لكي أُعرَف»[٣]، وبما أن الطريق إلى

---

(١) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (فالأشياء هي ظهور الواجب بها لها؛ لأنه تعالى لا يظهر بذاته، وإلا لاختلفت حالتاه، ولا يكون شيء أشد ظهوراً وحضوراً وبياناً من الظاهر في ظهوره؛ لأن الظاهر أظهر من ظهوره، وإن كان لا يمكن التوصل إلى معرفته إلا بظهوره. مثل القيام والقعود، فإن القائم أظهر في القيام من القيام، وإن كان لا يمكن التوصل إليه إلا بالقيام، فتقول: يا قائم!، ويا قاعد!، فأنت إنما تعني القائم لا القيام؛ لأنه بظهوره لك بالقيام غيب عنك مشاهدة القيام أصلاً، إلا أن تلتفت إلى نفس القيام فيحتجب عنك القائم بالقيام. فبهذا الاستدلال الذي هو من دليل الحكمة؛ يكون سبحانه عند العارف أظهر من كل شيء، كما قال سيد الشهداء عليه السلام: «أ يكون لغيرك من الظهور ما ليس لك، حتى يكون هو المظهر لك» [إقبال الأعمال: ص٣٤٩]، وتحصل به المعرفة الحقة، ولا تحصل بغيره أصلاً). [شرح الفوائد ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٢٠٦].

(٢) رحلة عقل ـ د. عمرو شريف: ص١٢٩.

(٣) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٨٤ ص١٩٩ ح٦.

معرفته ﷻ مسدود والطلب مردود، اقتضت حكمته تعريف نفسه لنا بنا، كما هو مفاد قوله ﷻ: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[١]، ومفاد ما ورد في دعاء السحر: «بك عرفتك، أنت دللتني عليك، ودعوتني إليك، ولولا أنت لم أدرِ ما أنت»[٢]، فكان الدليل إليه آياته ومظاهر تجلياته؛ لأنه سبحانه في أزل الأزل لا ينزل إلى رتبة الإمكان، ونحن لا يمكننا الصعود إليه في رتبة ذاته[٣].

وهذا التعرّف والتعريف الذي هو ذات العبد، أي: نفسه، أحدثه اللّه ﷻ بفعله ليعرفه به، ولو لم يُعرِّف نفسه لنا به لما أمكن معرفته؛ لاستحالة وصول الحوادث إلى رتبة أزله[٤]، فمفتاح المعرفة التحققيّة هي معرفته ﷻ بالنفس من حيث أنها صفته، وآية توحيده. ونقصد بالنفس هنا: مظهر الفؤاد[٥].

---

(١) سورة الذاريات ـ الآية: (٢١).

(٢) الصحيفة السجادية ـ الأمام زين العابدين عليه السلام: في سحر كل ليلة من شهر رمضان ص٢١٤.

(٣) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (أقول: يعني أنه تعالى لما كان هو الأزل، وجب أن يكون ما سواه غير الأزل، وغير الأزل ممكن، ولما ثبت أن غيره لا يساويه، ولا يصل إليه، وجب أن لا يعرف غيره لذاته، فإذا كان كذلك وأراد أن يعرفه عباده، وصف نفسه لهم؛ لأنهم لم يصلوا إليه ولم يدركوه، ولم يروه ليعرفوه بذلك الوصف، الذي وصف نفسه به؛ لأنه هو الذي يُعرِّف نفسه). [شرح الفوائد ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٢٥٦].

(٤) يقول الأوحد (أعلى الله مقامه): (أقول: يعني أنَّ وصفه نفسه هو نفسه، لعدم المغايرة هناك، لاستلزامها الكثرة، المستلزمة للحدوث، فيكون وصف الحق للحق تعالى حقاً، لأنه هو هو، وما وصل إلينا من ذلك التَّعريف فهو حادث بحدوثنا، فهو في الحقيقة ذواتنا، وذلك الوصف أثر فعله؛ لأنه فعله لنا لنعرفه به، فهو آية فعله، وفعله آية علمه، الذي هو ذاته؛ فلذا قلنا: (وقع علينا وصفه خلقاً)؛ لأنه هو حقائقنا، لأن أنفسنا أنموذج هيكل توحيده، فتدل أنفسنا على ذلك الهيكل، لأنه أثره، والأثر يشابه صفة المؤثر من جهة التأثير). [شرح الفوائد ـ الشيخ الأحسائي: ج١ ص٢٥٧].

(٥) يقول العلامة الشيخ محمد بن أبي خمسين قدس سره ـ في أطلاقات النفس ـ: (ومرة تطلق ويراد بها مظهر الفؤاد، الذي هو المراد من خلق الصور والمواد، أعني العقل). [الرسالة الخراسانية ـ الشيخ محمد بن أبي خمسين: ص٨٥].

وهذه المعرفة التي مستودعها ومحلها الفؤاد[١]، كما بيّنه الصادق عليه السلام في قوله: «وإذا تجلى ضياء المعرفة في الفؤاد هاج ريح المحبة، وإذا هاج ريح المحبة استأنس في ظلال المحبوب»[٢]؛ هي عين معرفته[٣]، كما قال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»[٤].

ومقدار ما قد يتعقّله الإنسان من العلم عن طريق آلة تحصيله، أي: عن طريق العقل، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «بالعقل استخرج غور الحكمة، وبالحكمة استخرج غور العقل»[٥]؛ لا يمكن أن يعتد بكثرته من دون انطباعه في الفؤاد الذي هو أثر الحقيقة، أو النور أو الوجود[٦]، أي: هو الوجود

---

(١) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (الفؤاد: وهو محل المعارف الإلهية، المجردة عن جميع الصور والنسب، والأوضاع والإشارات، والجهات والأوقات، ويقابله الإنكار، فهو إذن أعلى مشاعر الإنسان). [شرح الفوائد ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٢٠٩].

(٢) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٦٧ ب٤٣/حب الله تبارك وتعالى ورضاه ص٢٣ ح٢٢.

(٣) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (فاعلم أن النفس هي حقيقتك من ربك إذا عرفتها فقد عرفت ربك، أنه لما كان لا يعرفه أحد غيره إلا بما وصف به نفسه، وأراد بكرمه عليك ورحمته بك أن تعرفه وصف نفسه، وألبسه صورة قبوله، وأنزله في رتبته من أكوان الإمكان، فظهر بإياك، فأنت ذلك الوصف بذاتك وحقيقتك التي هي نفسك هي ذلك الوصف، فإذا كانت نفسك هي وصف الله الذي وصف به نفسه لك، وكان من عرف الوصف عرف الموصوف؛ لأن الموصوف لا يعرف إلا بوصفه؛ كنت إذا عرفت نفسك عرفت ربك). [رسائل الشيخ ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص١٥ـ١٦].

(٤) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٦٧ ب٤٤/ القلب صلاحه وفساده... ص٣٥ ح١.

(٥) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج١ ك/العقل والجهل ص٢٨ ح٣٤.

(٦) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (أعني الشيء من حيث كونه أثراً لفعل الله تعالى، فإن الشيء له اعتباران: اعتبار من ربه: وهو أنه آية الله، وأثر فعله. واعتبار من نفسه: وهو هويته من حيث نفسه، وهو الماهية الثانية. ويحتمل أن يراد بالفؤاد: ما ذكرناه بالمعنى الأول، وهو أول فائض من فعل الله، وهو عندنا هو المادة المطلقة، وانفعاله عند فعل الله؛ هو الماهية الأولى، التي هي القابلية). [شرح الفوائد ـ الشيخ الأوحد: ج١ ص٢٠٧].

من دون القيود، الذي هو الجزء الأول من أجزاء الإنسان، وجزءه الثاني هو الماهيّة؛ لأن كل شيء مخلوق لابدّ له من مادة أو وجود يكون بها بقاؤه وتحققه وثبوته ومن صورة أو هيئة يكون بها ظهوره وتشخصه وتعيّنه[١].

فهذا التركيب قائم في جميع الممكنات منذ وجودها في الخلق الأول[٢]،

---

(١) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (أن الشيء المخلوق لا يتحقق إلا بفعل وانفعال، والفعل من الفاعل، والانفعال من نفس المخلوق، وذلك مثل: (خلقه فانخلق)، فالوجود الذي هو المادة من (خلق)، وهو الذي من ربه، والماهية التي هي الصورة من (انخلق)، وهو الذي من نفسه، وحيث لا يتحقق الفعل إلا بالانفعال، كالكسر مع الانكسار، لا يتحقق الوجود إلا بالماهية). [شرح الفوائد ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٢ ص١٤٤].

(٢) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (اعلم أن الواقعة التي قام عليها عبادته تعالى لتكليفهم بما فيه نجاتهم في عالم الذر، حين كلف الأرواح كان ذلك في موضعين؛ الأول: جمعهم عند الركن العراقي من الكعبة المشرفة، والخلائق حِصَص موادّ متميزة غير مصورة، وجعل فيهم التمييز والاختيار متساوين في جهة التكليف فيهما، كما قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾[سورة البقرة: (٢١٣)]، ليجري التكليف على الاختيار، ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾[سورة الأنفال: (٤٢)]، ثم كشف لهم عن عليين، كتاب الأبرار من نفس فلك البروج، وقال لهم: عبادي هذه صور طاعتي، من أجابني وأطاعني ألبستُه صورة إجابة منها. ثم كشف لهم عن سجين كتاب الفجار، من نفس الصخرة التي تحت الأرضين السبع، وقال لهم: يا عبادي هذه صورة معصيتي، من لم يجبني وعصاني ألبستُه صورة معصيته منها، ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[سورة ق: (٢٩)]، ثم قال لهم: ألست بربكم، ومحمد نبيكم؟ قالوا: بلى بأجمعهم، إلا أن إجابتهم مختلفة في مقاصدهم، فالمؤمنون قالوا: بلى بألسنتهم وقلوبهم، فخلقهم الله بصور الإسلام ظاهراً وباطناً. والمنافقون والكفار قالوا: بلى عند قوله: ألست بربكم بألسنتهم. وعند قوله: ومحمد نبيكم، قالوا: بلى متوقفين منتظرين؛ يعني بمعنى سكتوا، فخلقهم بصور الإسلام ظاهراً، ولم يخلق بواطنهم؛ لأنهم لم يقولوا: بلى بقلوبهم، وإنما قالوا: بلى على جهة الوقف، فوقف تعالى كما وقفوا، وإليه الإشارة بقوله في التأويل: ﴿ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾[سورة هود ـ: (١٢٢)]. ثم جمعهم أيضاً في عالم الذر مرة ثانية في الموضوع الثاني، في غدير خمّ، من الذر الأول، فقال لهم: ألست بربكم. ومحمد نبيكم، وعلي وليكم وإمامكم، والأئمة من ولده أئمتكم؟ فقال المؤمنون: بلى بألسنتهم وقلوبهم، فخلقهم الله بصورة إجابتهم، صورة الإيمان، ظاهراً وباطناً. وقال المنافقون والكفار: بلى بألسنتهم، مستهزئين منكرين جاحدين، فأنزل الله على نبيه ﷺ ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[سورة البقرة: (١٥)]، وأنزل ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾[سورة النمل: (١٤)]، فتمت كلمته، وبلغت حجته، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[سورة فصلت: (٤٦)]. [شرح العرشية ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٢ ص١١٣ـ ١١٤].

أي: في حال التكليف الإجمالي[١]؛ إلا أنها مُرَكَبة فيه من المادة والصورة البسيطتين النوعيتين، وهما الهيولي وصورته[٢] ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾[٣]. وفي الخلق الثاني، أي: في حال التكليف التفصيلي، مُرَكَبة من حصة من المادة النوعية، ومن الصورة الشخصية التي لحقت بالمكلف بحسب مقتضى اختياره، والتي عليها صُبِغَ الكافر بالصورة الشيطانية، وصُبِغَ المؤمن بالصورة الإنسانية[٤]، كما قال عليه السلام: «إن الله خلق المؤمنين من نوره وصبغهم في رحمته، وأخذ ميثاقهم لنا بالولاية، فالمؤمن أخو المؤمن لأبيه

---

(١) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (فاعلم أنه إنما تم الخلق الأول الذي هو المشيئة والإرادة المعبر عنه بالكون والعين، الذي هو الهيولى للخلق الثاني، كالخشب لما يعمل منه من السرير والباب والصنم، وغير ذلك بالتكليف الإجمالي المتوجه إلى المكلفين على الوجه الكلي، وقبوله كقبوله، وذلك كالصلوح الكلي في نوع الخشب من كل جزء منه للسرير والباب والصنم والسفينة وما أشبه ذلك. فخرجوا في الوجود العيني بالتكليف الكلي الإجمالي متمايزين في ظواهرهم بالمشخصات الكونية متفقين على الصلوح النوعي). [رسالة في جواب السيد أبي القاسم اللاهيجاني (جوامع الكلم) ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٣٩].

(٢) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (أن الخلق الأول هو خلق المادة النوعية، فتكون مركبه من مادة بسيطة، ومن ماهية أولى، وهي انفعاله وقبوله الإيجاد بفعل الله تعالى كالخشب، فإنه مركب من مادة بسيطة، وهي الحصة من العناصر، ومن صورة نوعية، وهي الحصة الخشبية). [شرح الفوائد ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٢ ص٦٨].

(٣) سورة الذاريات ـ الآية: (٤٩).

(٤) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (وأما الماهية الثانية: فهي صبغ الرحمة في خلق المؤمن، كحصة صورة السرير في إيجاد السرير، وهو صبغ الغضب في خلق الكافرين، كحصة صورة الصنم في إيجاد الصنم، وصبغ الرحمة هو الصورة الإنسانية؛ لاشتمالها حدود الطاعات، التي هي جنود العقل، كما في حديث هشام في الكافي، وصبغ الغضب هي الصورة الشيطانية؛ لاشتمالها حدود المعاصي، التي هي جنود الجهل). [شرح الفوائد ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٢ ص٦٨].

وأمه، أبوه النور وأمه الرحمة، وإنما ينظر بذلك النور الذي خلق منه»[١]، أي: أنّ كل مؤمن مركب من شيئين هما: النور والرحمة[٢]، أو المادة والصورة، أو الوجود والماهيّة.

فهذا الصبغ قد لحق بالمكلف في عالم الذر حينما جُمعت المخلوقات مرة ثانية في غدير خمّ ـ أي: في الخلق الثاني ـ، وقال لهم داعي الله ﷺ: ألست بربكم؟ ومحمد نبيكم؟ وعلي وليكم وإمامكم؟

فمن أجاب منهم: ببلى، وقالها بلسانه وقلبه، وهو معتقداً مؤمناً بها، خلق الله ﷻ مادته من شعاع نور نبيه محمد ﷺ، وصُبغ بحسب إجابته من طينة الطاعة المخلوقة من رحمته من أعلى الجنة ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَبَ لاَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾[٣]، وهي الصورة الإنسانية النورانية في المؤمن. وأمّا من أنكر منهم، أي: أجاب بلسانه، وقلبه منكر مكذب بها، صُبغ من طينة المعصية المخلوقة من عدله من طينة سجين ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَبَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾[٤]، وهي الصورة الحيوانية الشيطانية في المنافق والكافر.

---

(١) بصائر الدرجات ـ الصفار: ب١٢/ ما أخذ الله مواثيق الخلق لأئمة آل محمد بالولاية لهم ص١٠٠ ح٢.

(٢) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (والمراد بقوله عليه السلام: (أبوه النور)؛ أي: المادة، (وأمه الرحمة)؛ أي: الصورة، وهذا بخلاف ما اشتهر عن الحكماء؛ من أن الأب هو الصورة، والأم هي المادة، وهذا غلط؛ لأنه قال عليه السلام: «السعيد من سعد في بطن أمه، والشقي من شقي في بطن أمه... إلخ»[التوحيد: ب٥٨ ص٣٥٦ ح١٣]، ولا يصح أن تكون السعادة والشقاوة في المادة، وإنما تكون في الصورة). [شرح العرشية ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٢ ص١٢٠].

(٣) سورة المطففين ـ الآية: (١٨).

(٤) سورة المطففين ـ الآية: (٧).

وقد خُلِقَ ظاهرهم في الدُّنيا على مقتضى الصورة الإنسانية؛ لإجابتهم بألسنتهم، وتسلب عنهم هذه الصورة في يوم القيامة، وتظهر صور بواطنهم الحقيقية؛ لأن كل شيء يعود إلى ما منه بدأ، أي: يعود إلى أصله[١]، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾[٢]. وأمّا من توقف عن الإجابة، أي: قالها بلسانه، وقلبه واقف، خُلِقَ ظاهره في الدُّنيا على الصورة الإنسانية؛ لإجابته بلسانه أيضاً، وصبغ من طينة البرزخ، وهي طينة من الطينتين. وهؤلاء هم المستضعفين في الأرض، أمرهم متوقف بسبب موانع طينتهم؛ فإمّا أن تضمحل تلك الموانع في الدُّنيا، وإمّا أن يقروا في البرزخ، وأما يمهلوا إلى يوم القيامة فيجدد لهم الخطاب؛ فإن أقروا أُلحقوا بالمؤمنين، وإن أنكروا الحقوا بالكافرين[٣].

---

(١) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (وإنما كانت في الدنيا صور المنافقين والكفار صور الإنسان؛ لأنهم أجابوا بألسنتهم خاصة، التي هي أدنى آلات المدارك والتبليغ. فإذا كان يوم القيامة، وانتقل الخلق عن الدنيا، تخلف عنهم ما ينسب إليها، فتسلب عنهم الصورة الإنسانية، وتظهر صورهم الحقيقية، التي هم عليها في نفس الأمر وفي الواقع؛ لأن كل شيء يرجع إلى أصله). [شرح الفوائد ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٢ ص١٦٣].

(٢) سورة الغاشية ـ الآية: (٢٥).

(٣) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (أقول: هؤلاء هم القسم الثالث، وهم الذين لم يقروا بقلوبهم ولم يجحدوا، سواء أجابوا من غير معرفة بالكل، أم أجابوا بالبعض عن غير معرفة، إلا أنهم مجتمعون على وقف قلوبهم، وهؤلاء عرضت لهم موانع في طينتهم، وهذه الموانع العارضة لها هي عوارضها الذاتية والفعلية والنسبية. وهذه العوارض مختلفة في الشدة والضعف: فمنهم من موانعه ضعيفة، فتضمحل في الدنيا، فيقر في الدنيا بقلبه، ويلحق بالسابقين، أو ينكر في الدنيا به، فيلحق بأضدادهم. ومنهم من موانعه متوسطة في القوة والضعف، فيقر بقلبه في البرزخ، أو ينكر ويلحق كل بنوعه. ومنهم من موانعه شديدة، فيلهى عنه إلى يوم القيامة، حتى تأخذ الأرض ما فيها من موانعه، مع ما تعلقت به من الأجسام الظاهرية والتعليمية، فيجدد له الخطاب التكليفي... فإما مؤمن، وإما كافر). [شرح الفوائد ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٢ ص١٦٥-١٦٦].

كما أنّ المقصود بالأخوة ـ في الحديث السابق ـ:

ليس ـ فقط ـ أخوة الإيمان التي يفهمها العوام وأهل الظاهر؛ بل هي الأخوة الناتجة من أبينا النور وأمنا الرحمة. فأنا أخوك أيها المؤمن وأنت أخي؛ لأننا من أب واحد وأم واحدة، أي: من وجودٍ وماهيّةٍ واحدة. وأبونا النور: هو النبي محمَّد صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأن حقيقة وجود الممكنات هي من شعاعه، وأمّنا الرحمة: هي أمير المؤمنين عليه السلام؛ لأن حقيقة الماهية ـ أو الصبغة أو الولاية ـ التي هي الصورة الإنسانية النورانية منه، أي: من ولايته عليه السلام؛ فهما أبوانا الحقيقيان[1]، وهذا مصداق قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا وعلي أبوا هذه الأمة»[2].

على أي حال، إن الغوص في هذه الأحاديث يعتبر من غور الحكمة، وإظهار معانيها يحتاج إلى مقدمات حكمية مطولة، وعقد فصول عديدة فيها؛ إلا أن الكلام بالكلام يذكر، وما يدرك جلّه في المقام لا يترك كله.

فالمؤمن مادته من شعاع المادة الأولى للأشياء، التي هي علة العلل، أي: من نور المشيئة، كما روي عن أبي عبد الله عليه السلام، أنه قال: «خلق الله المشيئة بنفسها، ثم خلق الأشياء بالمشيئة»[3]، ووعاء المشيئة وصورتها وظهورها وتعيّنها لا يكون إلا بهم عليهم السلام، فوجود المؤمن هو من شعاع أنوارهم عليهم السلام

---

(١) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه) ـ في معنى: أنا وعلي أبوا هذه الأمة ـ: (وذلك لأن كل مولود له ستة آباء، أبوان لعقله، وهما: محمد وعلي ـ صلى الله عليهما وآله ـ. محمد صلى الله عليه وآله أب العقل أي مادته؛ فإن مادته من صفة نوره صلى الله عليه وآله، وعلي عليه السلام الأب الثاني؛ فإن صورة العقل من صفة نوره عليه السلام والصورة هي الأب الثاني؛ أي الأم).[شرح الزيارة الجامعة ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٤ ص١٢٠].

(٢) علل الشرائع ـ الشيخ الصدوق: ج١ ب١٠٦/ العلة التي من أجلها سمي النبي محمد صلى الله عليه وآله... ص١٢٧ ح٢.

(٣) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج١ ب/ الإرادة إنها من صفات الفعل ص١١٠ ح٤.

وليس من بقايا طينتهم ؛ فهم العلة المادية للموجودات، كما بيَنا سابقاً في بحث السلسلة الطولية[١].

وأما حقيقة ماهيته فهي الصورة الإنسانية النورانية التي لحقته بعد إجابته: ببلى، أو ما يعبر عنها في الفلسفة بحدود الوجود أو قالبه.

فإن قلت: إن كانت مادة المؤمن مخلوقة من شعاعهم عليهم السلام، وصورته هي الصورة الإنسانية النورانية التي طباعها الميل نحو مبدئها، أي: نحو الطاعة.

فكيف تصدر المعصية من المؤمن في الدُّنيا؟

وكيف تلبس مادته صورة المعصية؟

قلت: إن ما يجري عليه من المعصية في هذا العالم ليس من حقيقته الناطقة القدسية، التي هي اعتباره من ربه، وأثر فعله، ومادة وجوده ؛ بل هو من تزيين وإغواء الشيطان له، أي: من حقيقة نفسه الحيوانية، أو نفسه الأمارة بالسوء التي هي اعتباره من نفسه، وصورته، وماهيته ؛ لأن المؤمن له صورة إنسانية نورانية تلائم مادته النورية، وتنجذب نحو ما هي عليه، أي: نحو

---

(١) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (أن الله سبحانه خلق بفعله الوجود، وهو الماء الذي به حياة كل شيء، وهو نور محمد وأهل بيته الثلاثة عشر صلى الله عليهم لم يخلق منه شيء غيرهم، ولم يبقى منه شيء بعد وجودهم، وكان تعالى قد ملأ به العمق الأكبر في المرتبة الثانية من الإمكان، وهو الوجود الكوني على الحقيقة الأولى، وخلق تعالى من فاضله ؛ يعني: من شعاعه، نوراً وسماه وجوداً، كما سمى نور الشمس بالشمس، وقسمه مائة وأربعة وعشرين ألف قسم، وذلك بعد خلق الأول بألف دهرٍ، فجعل كل حصة منه روح نبي ورسول، ثم خلق من فاضل هذا النور ؛ يعني: من شعاعه، نوراً بعده بألف دهر، فخلق منه أنوار المؤمنين، ثم خلق من شعاع أنوار المؤمنين وأرواحهم أرواح الملائكة والجان من مؤمنيهم، ثم خلق من شعاعه أرواح الحيوانات، ومن فاضل الحيوانات النباتات، ومن فاضل النباتات المعادن، ومن فاضل المعادن الجمادات). [رسالة في شرح الرسالة العلمية للملا محسن الفيض (جوامع الكلم) ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٢ ص١١٠].

مبدئها المنير، فلا تقبل هذه المادة النورانية صور المعصية المنبعثة من النفس الحيوانية، أو من النفس الأمارة بالسوء[١].

وإن قلت: هل للإنسان إلا نفس واحدة؟

قلت: الإنسان حصلت له نفوس عديدة في طي تنزلاته من عالم المجردات إلى عالم الماديات، وقد بيّن أمير المؤمنين عليه السلام ذلك في حديث كميل رضي الله عنه لما سأله عن النفس، فقال عليه السلام:

«يا كميل! وأي الأنفس تريد أن أعرفك؟

قلت: يا مولاي هل هي إلا نفس واحدة؟

قال عليه السلام: يا كميل إنما هي أربعة: النامية النباتية، والحسية الحيوانية، والناطقة القدسية، والكلية الإلهية، ولكل واحدة من هذه خمس قوى وخاصيتان.

فالنامية النباتية لها خمس قوى: ماسكة، وجاذبة، وهاضمة، ودافعة، ومربية، ولها خاصيتان: الزيادة والنقصان، وانبعاثها من الكبد.

والحسية الحيوانية لها خمس قوى: سمع وبصر، وشم، وذوق، ولمس، ولها خاصيتان: الرضا والغضب، وانبعاثها من القلب.

---

(١) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (أن الحصة الحيوانية القدسية لا تقبل صور الحيوانات، لعلو رتبتها عن تلك الصور، ولأن تلك الصور آثار صورتها، والشيء لا يجري عليه لذاته ما هو أجراه، وإنما تقبل ما هو منها، أعني: صورتها، وهي حصة من الناطقية؛ لأن الأولى نور، والنور يقبل الحدود التي من نوعه، كالعلم والحلم، والتقوى والإيمان، والأعمال الصالحة.. وما أشبه ذلك، وهذه الحدود تكون الهندسة منها حصة ناطقية، فتلائم الحيوانية القدسية). [شرح فوائد الحكمة ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٢ ص٨٧ـ٨٨].

والناطقة القدسية لها خمس قوى: فكر، وذكر، وعلم، وحلم، ونباهة، وليس لها انبعاث، وهي أشبه الأشياء بالنفوس الفلكية، ولها خاصيتان: النزاهة والحكمة.

والكلية الإلهية لها خمس قوى: بهاء في فناء، ونعيم في شقاء، وعز في ذل، وفقر في غناء، وصبر في بلاء، ولها خاصيتان: الرضا والتسليم، وهذه التي مبدؤها من الله وإليه تعود، قال الله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾[١]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾[٢]، والعقل في وسط الكل»[٣].

وقد بيّن أيضاً ذلك عليه السلام في حديث الأعرابي الذي سأله عن النفس حيث قال له: يا مولاي هل النفس أنفس عديدة؟ فقال عليه السلام: «نفس نامية نباتية، وحسية حيوانية، وناطقة قدسية، وإلهية كلية ملكوتية.

قال: يا مولاي ما النباتية؟

قال عليه السلام: قوة أصلها الطبائع الأربع، بدء إيجادها عند مسقط النطفة، مقرها الكبد، مادتها من لطائف الأغذية، فعلها النمو والزيادة، وسبب فراقها اختلاف المتولدات، فإذا فارقت عادت إلى ما منه بدأت عود ممازجة لا عود مجاورة.

فقال: ما النفس الحيوانية؟

---

(١) سورة الحجر ـ الآية: (٢٩).

(٢) سورة الفجر ـ الآية: (٢٧).

(٣) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٥٨ ب٤٢/ حقيقة النفس والروح وأحوالهم ص٨٤.

قال عليه السلام: قوة فلكية وحرارة غريزية أصلها الأفلاك، بدء إيجادها عند الولادة الجسمانية، فعلها الحياة، والحركة والظلم، والغشم والغلبة، واكتساب الأموال، والشهوات الدنيوية، مقرها القلب، وسبب فراقها اختلاف المتولدات، فإذا فارقت عادت إلى ما منه بدأت عود ممازجة لا عود مجاورة فتعدم صورتها ويبطل فعلها ووجودها فيضمحل تركبها.

فقال: ما النفس الناطقة القدسية؟

قال عليه السلام: قوة لاهوتية، بدء إيجادها عند الولادة الدنيوية، مقرها العلوم الحقيقية الدينية، موادها التأييدات العقلية، فعلها المعارف الربانية، سبب فراقها تحلل الآلات الجسمانية، فإذا فارقت عادت إلى ما منه بدأت عود مجاورة لا عود ممازجة.

فقال: ما النفس اللاهوتية الملكوتية؟

فقال عليه السلام: قوة لاهوتية، وجوهرة بسيطة، حية بالذات، أصلها العقل، منه بدأت وعنه دعت، وإليه دلت وأشارت، وعودتها إليه إذا كملت وشابهت، ومنها بدت الموجودات وإليها تعود بالكمال، فهي الذات العليا وشجرة طوبى، وسدرة المنتهى وجنة المأوى، من عرفها لم يشق أبدا، ومن جهلها ضل وغوى.

فقال السائل: ما العقل؟

قال عليه السلام: جوهر دراك محيط بالأشياء من جميع جهاتها، عارف بالشيء

قبل كونه، فهو علة للموجودات ونهاية المطالب»[١].

فالمراد بالنفس هنا: هي النفس الناطقة القدسية التي هي أخت العقل، لا الصورة الهندسية للشيء؛ لأن النفس لها إطلاقات عديدة، فتارة تطلق ويراد بها المادة أو الفؤاد، وتارة تطلق ويراد بها العقل أو مظهر الفؤاد[٢].

وهي تنقسم باعتبار ذواتها إلى أربعة نفوس ـ بناءً على كلام أمير المؤمنين عليه السلام في الحديث السابق ـ:

١ـ النفس النامية النباتية[٣]

---

(١) التعليقات على الفوائد الرضوية ـ القاضي سعيد القمي: الفائدة الثانية ـ المبحث الثاني/ ما المتكثر المتوحد ص١١١.

(٢) يقول العلامة الشيخ محمد بن أبي خمسين قدس سره ـ في تعدد إطلاقات النفس ـ: (ومرة تطلق ويراد بها الفؤاد الذي هو أعلى مشاعر الإنسان.

ومرة تطلق ويراد بها النفس الناطقة القدسية، التي هي أخت العقل، كما هو صريح قول سيد الموحدين عليه السلام: «خلق الإنسان ذا نفس ناطقة، فإن زكاها بالعلم والعمل فقد شابهت أوائل جواهر عللها، فإذا اعتدل مزاجها، وفارقت الأضداد، فقد شابه بها السبع الشداد» [مناقب آل أبي طالب: ج١ ب/درجات أمير المؤمنين عليه السلام ف/في المسابقة بالعلم ص٣٢٧].

ومرة تطلق ويراد بها مظهر الفؤاد الذي هو المراد من خلق الصور والمواد، أعني العقل). [الرسالة الخراسانية ـ الشيخ محمد آل أبي خمسين: ص٨٤ـ٨٥].

(٣) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (وأما النفس إذا أطلقت فلها أربع حقائق:

الأولى النباتية: وهي نفس نامية تكونت من العناصر الأربعة، حيث امتزجت معتدلة، ومعنى امتزاجها: أن الجزء الناري استحال هواء وركد هو والجزء الهوائي فكانا ماء مع بقاء كيفهما، وجمدا هما مع الجزء المائي وهو جزءان في الجزء الترابي، وذاب الجزء الترابي معها، فكرت عليها عبيطات العناصر حتى كانت الأربعة شيئاً واحداً في دورين، وهو معنى اعتدالها، فكانت غذاءً معتدلاً فجرى فيه أثر أشعة الشعور والإحساس والاختيار، فتحرك ونما بفاضل تلك الصفات الحيوانية، وهذه مقرها الهاضمة من الكبد، وتستمد من لطائف الأغذية، التي كانت كيموساً إن كانت في الحيوان وانبعاثاً من الكبد؛ لأن ذلك الكيموس هو الحافظ لها، وأن كانت في النبات فمن اللطائف التي كانت كيلوساً، إذ لا كبد لها، وإنما القوة الهوائية بمعونة عبيطات العناصر تهيئ كيلوساً يكون غذاء لتلك النفس النامية النباتية، فافهم). [رسالة أبي الحسن الجيلاني "جوامع الكلم" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٥ـ٦].

وهي مركبة من العناصر الأربعة، أي: من النار والتراب والهواء والماء. وتكون في سائر النباتات وفي الحيوانات وفي الإنسان، وَمَبدئُها يكون من شجرة المزن[١]، كما روي عن أبي عبد الله عليه السلام، أنه قال: «إن في الجنة لشجرة تسمى المزن، فإذا أراد الله أن يخلق مؤمناً أقطر منها قطرة، فلا تصيب بقلة ولا ثمرة أكل منها مؤمن أو كافر إلا أخرج الله عزّ وجلّ من صلبه مؤمناً»[٢].

ثم تقع على النباتات، فيأكل الإنسان هذا النبات، فتتكوّن منه نطفة المني، وهي حارة يابسة، فإذا أنزل هذه النطفة في رحم المرأة امتزجت مع نطفتها التي هي باردة رطبة؛ ولما بينهما من التنافر والتضاد، فالعقد يحصل بينهما بأمر الله عزّ وجلّ، فيمج الملك بين النطفتين جزء من تراب الموضع الذي يدفن فيه صاحبها إذا مات، وهو بارد يابس، فيحصل التوافق بين النطفتين بأمر الله عزّ وجلّ، وهو مفاد قوله عزّ وجلّ: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾[٣]، وإذا

---

(١) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (والمزن: شجرة تحت العرش تقع منها النطفة فتسري في النبات، وتجري منها في الأغذية قوى لطيفة تبقى في قبرها مستديرة تحفظها الطبيعة، فتجري تلك القوى في الطعام، فإذا طبخت المعدة ما هنالك صعدت مع الكيلوس، فإذا طبخت ثانية انقسم قسمين: أعلاه كيموس هي الإنسان الآدمي، وأسفله تدفعه القوى إلى أعلى الطور فينبت شجرة تنبت بالدهن في عالم الأدوار وصبغ للآكلين. وهذه الشجرة هي التي تفصل حتى يطير غرابها ويرتفع حجابها، فإذا فعلت بها ما ذكر حتى تنزل ماء حصل منها المني الملقح وظهرت البيضة التي أشار إليها ابن رافع رأس، فربها في بطن أمها ذات الوقود نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظاماً، ويكسى لحماً وينفخ فيه الروح، وهو الإنسان الفلسفي الخير الكريم الشجاع العالم الناطق بالحق والصواب). [رسالة في شرح عبارات الشيخ علي بن عبد الله بن فارس في علم الحرف (جوامع الكلم) ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٢٦٨].

(٢) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج٢ ك/ الإيمان والكفر ب/ إذا أراد الله عزّ وجلّ أن يخلق مؤمناً ص١٤ ح١.

(٣) سورة نوح ـ الآية: (١٧).

اكتمل هذا الطبخ ظهرت النفس النباتية، التي تقوم بإيصال الغذاء إلى المواد الطبيعية العنصرية، ومكان انبعاثها يكون من الكبد.

ولا تفهم من أن النفس نشأت من الأجزاء الطبيعية؛ بل هي كامنة في غيبها موجودة بالفعل، وظهرت حينما تهيأت أسبابها.

وهذه الصورة الجسمية البشرية هي ظاهر الإنسان النباتي النامي، وحامل طبيعته؛ لأن النفس جسم مجرد عن المواد العنصرية، والجسم البدني عنصري نباتي، فالنفس نفس والجسم جسم، وتعلق النفس بالجسم تم من دون اتحاد. والمراد بالجسم: هو الإنسان الظاهر ذو الجسد الذي خلق من بشرة الأرض.

ثم تترقى هذه النطفة الظاهرة النباتية إلى علقة، ثم مضغة، ثم عظاماً، ثم لحماً، قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[1].

وسبب اعتلالها هو اختلاف المتولدات من الغذاء والشراب بالزيادة أو النقصان، وإذا مات الإنسان عادت عناصرها إلى ما منه بدأت عودة ممازجة لا عودة مجاورة، أي: عاد كل عنصر من عناصرها إلى أصله[2].

---

(١) سورة المؤمنون ـ الآية: (١٤).

(٢) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (وهما [أي: النفس الحيوانية والنفس النباتية] إذا فارقتا بسبب تحلل آلاتهما عادتا إلى ما منه بُدئتا عود ممازجة لا عود مجاورة؛ لأن النباتية تعود إلى الطبائع الأربع، وما فيها من آثار الشعور والإحساس والاختيار تعود إلى النفوس الحيوانية، وتلحق بها لأنها آثارها، كما يلحق نور الشمس المنبسط على الأرض بالشمس إذا غربت. والحيوانية تعود إلى نفوس الأفلاك لأنها آثارها كذلك). [رسالة أبي الحسن الجيلاني "جوامع الكلم" ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٧].

٢ـ النفس الحسية الحيوانية[١]

وهي من النفوس الفلكية، وتكون ذاتية في الحيوانات، وعرضية في الإنسان والنبات[٢].

وهذه الحصة الحيوانية ـ التي هي المادة ـ لا تقبل الصورة الإنسانية، وتقبل صور الحيوانات: السبع والشاة والطير والفرس، وغيرها.

---

(١) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (النفس الحيوانية: وهي نفس حسية تكونت من قوى الأفلاك، وذلك لأن العلقة الدم التي في تجاويف القلب الصنوبري، التي هي بمنزلة الفتيلة للسراج، فيها دم أصفر قد استجنت فيه الطبائع الأربع: الحرارة، والرطوبة، والبرودة، واليبوسة.

فيتألف عنها من الدم الأصفر الذي هو بمنزلة الدهن للسراج أبخرة في تلك الطبائع، من كل طبيعة جزء ومن البرودة جزءان، فتنضج بما فيها من تلك الطبائع بمعونة القوى الفلكية نضجاً معتدلاً، حتى يحصل منها شيء واحد معتدل نضجه بما وقع عليه من الأفلاك من قواها وأشعة كواكبها، متهيئ لقبول تأثيرات تلك النفوس الفلكية، وذلك في ثلاثة أدوارٍ، فهو بمنزلة الدخان الذي قد استحال بالنار من الدهن حيث تهيأ لتعلق النار به، وانفعاله بالاستضاءة عن النار، والحافظ له الأجزاء الدهنية المقاربة للدخانية بمجاورة النار.

كذلك ذلك البخار المعتدل نضجه، بمنزلة الدخان المنفعل بالاستضاءة، والحافظ له ما يتهيأ له من الأبخرة المصاحبة لتلك الطبائع التي تعلقت بالعقلة في القلب، فانبعاثها من القلب، وهو مقرها، لاستمدادها من الحافظ لها مما يتهيأ له من تلك الأبخرة، فينفعل هذا البخار عن النفوس الفلكية لارتباطها به، وتعلقها كارتباط النار بالدخان بالحركة والشعور والإحساس والاختيار التي هي آثار تلك النفوس، فتتعلق بهذا البخار لما بينها من المشاكلة والمقاربة.

ومعنى تهيأ ذلك البخار لقبول تلك القوى من تلك النفوس أن اعتدل نضجه يقتضي تهيأه بهيئات تلك النفوس المستلزمة لتعلق آثارها به بواسطة ذلك التهيئ، وتلك الآثار هي قواها الفعلية التي هي صفات ذواتها من الحركة والشعور والإحساس والاختيار، واقتضى ذلك النضج المعتدل لذلك التهيئ لقربه منها ومشاكلته لها لكمال النضج والاعتدال). [رسالة أبي الحسن الجيلاني (جوامع الكلم) ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٦ـ٧].

(٢) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (فالحساسة الفلكية ذاتية في الفرس، وعرضية في الإنسان، بمعنى: أن الإنسان ذاتيُّه الحقيقي هو الحصة الحيوانية القدسية، ولكنه إذا تنزل إلى الأجسام ليتحصل منها ما يتكمل به من العلم والعمل، لا يمكنه إلا بالحصة الحيوانية الحسية الفلكية، فهي فيه لأجل تحصيل ما يتكمل به). [شرح الفوائد ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٢ ص٨٢].

وحُكمُ كل صورة يكون بحسب قبولها ؛ فإذا قبلت صورة الكلب كانت نجسة ، وإذا قبلت صورة الشاة كانت طاهرة[١].

وتظهر النفس الحيوانية في الإنسان من غيب النباتية عند تمام النطفة أربعة أشهر ، فهي مغيبة في المواد الجسمانية[٢] ، أي : أن هذا الإنسان البشري مغيب في جوفه الإنسان الحيواني الحسيّ الفلكي ، وظهوره يسمى بالولادة الجسمانية. وتبطل بعد الموت ، ويضمحل تركيبها ، وتعود إلى نفس الفلك الذي منه بدأت.

---

(١) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه) : (أن الحيوانية الفلكية الحساسة ، وهي الحصة الحيوانية ، التي هي المادة لا تقبل الصورة الإنسانية...

ولكن تلك الحصة تقبل صور جميع الحيوانات ، فحصة الحيوانية الحساسة الفلكية تقبل صور السباع والشاة ، والطير والفرس... وهكذا ؛ لأنها من رتبة واحدة ولا تنافيها ، كما يقبل الحجر الكثيف الكمد لون الحمرة والبياض ، والصفرة والخضرة ، ويلزم تلك الحصة الواحدة حكم كل صورة قبلها ، فإذا قبلت صورة الكلب ، كانت نجسة ، وطبيعتها الحرارة واليبوسة ، وحالها الغضب ، وإذا قبل صور الشاة ، كانت طاهرة ، وطبيعتها الهون والاطمئنان ، وهكذا صور سائر الحيوانات). [شرح الفوائد ـ الشيخ أحمد الأحسائي : ج٢ ص٨٣ـ٨٤].

(٢) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه) : (فلما خاطب النفوس ، وسعد بالإجابة من سعد ، وشقي بالإنكار من شقي ، رجعهم إلى الطين ، يعني كسر صيغتهم وأذابهم ، فكانوا طبيعة واحدة.

ثم حصصهم ؛ أي : جعلهم حصصاً ، كل حصة لشخص ، وأجراهم في الماء والسحاب ، والأرض والنبات ، فخرجوا ، في غيب المطاعم والمشارب ، ثم انتقلوا إلى النطف والنفوس ، ثم إلى الغيب ، ثم إلى العلق ، ثم إلى المضغ ، ثم إلى العظام.

والنفوس في كل هذه الأطوار غيب كامن ، فلما كسيت العظام لحماً ودماً ، وشعراً وبشراً ، بعد ما نسجت العظام مخها ، وعصبها وعروقها ، ظهرت النفس الحسية الفلكية ، وهي الولادة الجسمانية ؛ يعني أن الجسم ولد ما كان حاملاً له في جوفه.

فلما تمت مدة الحمل وولدته أمه ، وهي الولادة الدنياوية ، ظهرت النفس الناطقة). [شرح العرشية ـ الشيخ أحمد الأحسائي : ج٢ ص١٨ـ١٩].

٣ـ النفس الناطقة القدسية[١]

وتسمى بالإنسانية النورانية، خُلِقت من النفس الكلية الإلهية، أي: من الحقيقة المحمدية، وبدء ظهورها عند تمام الحمل، أي: عند الولادة الدنياويّة. والنفس الناطقة القدسية كامِنَة في النفس النباتية[٢]، وقاهرة للنفس

---

(١) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (الحقيقة الثالثة: النفس الناطقة القدسية، وهي الشيء أي الإنسان حقيقة، وأصله مركب من تركيبيّن، في الخلق الأول من وجود وماهية، وفي الخلق الثاني من مادة وصورة، أي من وجود ثان، وهو الخلق الأول كالخشب، فإنه مركب من مادة وصورة نوعية، وأما الصورة فهي الماهية الثانية كالسرير المركب من الخشب والهيئة الشخصية، فالإنسان كالسرير وهو النفس الناطقة، وهو المعبر عنه بأنا والمعني أنت، وذلك هو الذي من عرفه فقد عرف ربه...

وحقيقة النفس الناطقة، أنها مثال فعل الله سبحانه أي المشيئة، فهي الصورة في نفسها، وإليه الإشارة بقول علي عليه السلام: «وألقى في هويتها مثاله فأظهر عنها أفعاله» [غرر الحكم: ص٢٣١]، وليس المثال غير الهوية كما يتوهم من العبارة، بل هو نفس الهوية وهو معنى قولنا فهي الصورة في نفسها، فهي للمشيئة كالنور من المنير، وكالصورة في المرأة للشاخص، وكالكلام للمتكلم، وإنما مثلت بالثلاثة؛ لتعرف أن الثلاثة واحد في المثال، فما خفي عليم من شيء في أحدها، فطلبه في الآخر. وإلى ما ذكرنا من أن المثال نفس الهوية، الإشارة بقول علي عليه السلام: «تجلى لها بها وبها امتنع منها»[نهج البلاغة: ج٢ ص١١٥ خطبة رقم (١٨٥)]، وهذه النفس جوهرة أصلها الألف المبسوط والكتاب المسطور، أبرزتها مشيئة الله من كتابه المكنون، فظهرت باسمه البديع من اسمه الباعث مشرقة على قدر عددها من الألف القائم في مراتب تعيناتها ومشخصاتها، كما تبرز النار بحركة القادح بحك الزناد على الحجر، فتظهر النار مشرقة على حسب يبوسة الزناد وصلابة الحجر وتلزز أجزائه واعتدال الحك وقوته وضعفه، وهذه النفس قد سكنت أرض الحياة وهي المشار إليها بقول أمير المؤمنين عليه السلام: «مقرها العلوم الحقيقية»). رسالة أبي الحسن الجيلاني (جوامع الكلم) ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٨-٩].

(٢) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (إنها [أي النفس الناطقة القدسية] هبطت إلى البدن، من المحل الأرفع؛ وهو عالم الملكوت، وكانت غيباً في النفس النباتية التي في النطفة، لخراب مسكنها بعد التكليف الأول، وتبقى كامنة في النباتية، والنباتية تبني لها مسكنها وهي مجتمعة، قد وضعت رأسها بين ركبتيها ونامت، فإذا تم بناء بيتها رفعت رأسها، وتربعت على الطبائع الأربع، وأخذت شيئاً فشيئاً تقتنص أطيار الأفكار، فإذا علمها العقل مما علمه الله، حل صيدها له؛ لأنها إذا تعلمت وأرسلها صعدت إلى ما فوق السماوات، وأتت له بالصيد الحلال المذكى، وإن لم يعلمها أو لم تتعلم سقط ريشها). (شرح العرشية ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٢ ص٩٩]

الحسية الحيوانية بعد ظهورها[١] ؛ فإذا تعلقت نفسه بالطاعات عادت الناطقة القدسية إلى ما منه بدأت، وشابهت أوائل جواهر عللها، كما قال عليه السلام: «خلق الإنسان ذا نفس ناطقة، إن زكاها بالعلم والعمل فقد شابهت أوائل جواهر عللها، وإذا اعتدل مزاجها وفارقت أضدادها فقد شارك بها السبع الشداد»[٢] ؛ وإذا تعلقت بالمعاصي والشرور ظهرت صورة النفس الحسية الحيوانية عليه، فإذا غضب لبس صورة السبع أو الكلب، وإذا مشى بين الناس بالنميمة لبس صورة العقرب، وهكذا. فهو لا يزال يلبس صورة ويخلع صورة، وهي مستورة عن أعين الناس ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾[٣] ؛ إلا عن الإمام عليه السلام، والملائكة، والكُمل من البشر.

---

(١) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (أن الحصة الحيوانية الفلكية إذا جامعت الحصة الحيوانية القدسية تكون مقهورة تحتها، ليس لها اختيار، إلا أن ذلك إذا كانت الحيوانية القدسية مؤيدة بالعلم والعمل. وأما إذا لم تكن كذلك، لم تكن الحيوانية الفلكية مقهورة تحتها، بل تكون مهملة الناصية، فتلبس ما تشاء من الصور الحيوانية وتخلع، وتلزمها أحكام ما لبست.

وأما ما خلعت ؛ فإن كانت عن توبة محى الله سبحانه ذلك الحكم يوم القيامة ؛ وإلا بقى لازماً لها، لزوم الظل للشاخص ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[سورة الأنعام ـ الآية: (١٣٩)]، ﴿وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[سورة الأنبياء ـ الآية: (١٨)]، فقد تلبس الصور المتعددة على التعاقب، إلا أنها لا تظهر في الدنيا لحكم قوله تعالى: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾[سورة طه ـ الآية: (١٥)]، فتكون ما لبسته مستورة عن أعين الناس، والمعصوم عليه السلام يشاهده، وإن لم يتب عنه يحشر يوم القيامة في تلك الصورة. وهكذا تكون في الحصة الحيوانية ؛ لأنه لما كان جامعاً، كان ما لحقه بفضل جامعيته جامعاً، فإذا غضب لبس صورة السبع أو الكلب، وإذا سعى بين الناس بالنميمة لبس صورة العقرب، أو الحية.. وهكذا). [شرح الفوائد ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٢ ص٨٥ـ٨٦].

(٢) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٤٠ ب٩٣/ علمه ع وأن النبي علمه ألف باب وأنه محدثا ص١٦٥ ح٥٤.

(٣) سورة طه ـ الآية: (١٥).

٤ـ النفس الكلية الإلهية[١]

وهي أول فائض من المشيئة، وهي الحقيقة المحمدية، وهي الذات التي تذوت منها الذوات، أي: العلة الأولى لجميع الموجودات.

فالإنسان له نفوس عديدة، ولكل نفس صورة من نوعها: فالنفس الناطقة القدسية لها الصورة الإنسانية النورانية، واستمدادها يكون من النفس الكلية الإلهية، والنفس الحسية الحيوانية لها الصورة الحيوانية الشيطانية، واستمدادها يكون من النفس الحيوانية الفلكية، وهكذا في باقي النفوس.

وهناك نفس[٢] تكون بإزاء النفس الناطقة القدسية ومغايرة لها،

---

(١) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (اعلم أن الحصة الملكوتية الإلهية التي هي مادة حقيقته ﷺ، أعني: بها في محمد ﷺ، وأهل بيته عليهم السلام الحقيقة المحمدية، وهي أول فائض من مشيئة الله الكونية، وهي كل الفيض من المشيئة الكونية بلا واسطة، إذ لم يفض من المشيئة بلا واسطة غيرها، وكل ما سواها إنما حدث بواسطتها...

وهذه الصورة: هي الجامعة التي تفرعت عنها هياكل التوحيد، يعني: أن الحيوانية الملكوتية الإلهية هي الذات، أي: المادة التي تقبل صورة التوحيد الأعلى، التي تنزلت بهياكل التوحيد، وهذه الهياكل ظهرت آثارها على القواعد بالتوحيد في قابلية القابل، وبالشرك في قابلية المشرك، وبالإيمان في قابلية المؤمن، وبالكفر في قابلية الكافر). [شرح الفوائد ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٢ ص٨٩-٩٠].

(٢) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (وبإزاء هذه النفس الصالحة نفس أمارة؛ وهي الكلب من أهل الكهف، ولها سبع مراتب: الأولى: أمارة مغايرة لتلك الصالحة، وهي كلب الهراش. الثانية: الملهمة أو اللوامة على الخلاف. الثالثة: هي اللوامة أو الملهمة على الخلاف. الرابعة: وهي المطمئنة؛ وهي حين تعلّمتْ مما علّمها العقل مما علمه الله تعالى، فإذا أرسلها طارت صاعدة إلى ما فوق السماوات، واصطادت له الصيد الحلال المذكى. وفي المرتبة الثالثة والثانية تصطاد مرة من السماوات، صيداً حلالاً مذكى، ومرة تصاد من الأرضين حراماً ميتاً. وفي الأولى تصطاد بغير إرسالٍ من تحت الأرضيين السبع، حراماً أو ميتاً لا غير. والمرتبة الخامسة: تكون راضية. والسادسة: تكون مرضية. والسابعة: تكون كاملة. وفي هيه المراتب الأربع الأخيرة، تتحد بالنفس الصالحة). [شرح العرشية ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٢ ص ٩٩-١٠٠].

وهي النفس الأمارة بالسوء التي هي أخت الجهل، وهي أول ظهور للنفس في طبيعتها، وتتغير بحسب مقتضى أفاعيل الإنسان إلى:

١ـ نفس لوَّامة، وهي التي تلومه على فعل الطاعة، وتلومه على فعل المعصية.

٢ـ نفس ملهمة؛ لإلهامها حبّ الطاعة.

٣ـ نفس مطمئنة؛ لاطمئنانها بأفعال العقل؛ أي: الأفعال الصالحة.

٤ـ نفس راضية؛ لرضاها بما أجرى الله ﷻ عليها.

٥ـ نفس مرضية؛ لاستقامتها في رضا الله ﷻ.

٦ـ نفس كاملة.

فإذا وصلت النفس لرتبتها الكاملة صارت أخت العقل، أي: شابهته في كماله، وهو كمال النفس الناطقة القدسية؛ فحينئذٍ تظهر الصورة الحقيقية لمادة المؤمن، وهي الصورة الإنسانية النورانية. أما إذا انهزم لنفسه الأمارة بالسوء ظهرت عليه الصورة الشيطانية، ولبست ما كان يلائمها من الصور.

فالإنسان المؤمن إذا مال نحو الطاعة لبس الصورة الإنسانية النورانية، وهي الملائمة للحصة الناطقية القدسية، وإذا مال نحو المعصية لبس الصورة الحيوانية الشيطانية، وهي الملائمة للحصة الحسية الحيوانية، وإذا مال نحو الشرور لبس الصورة الشيطانية، وهي الملائمة لحصة النفس الأمارة بالسوء.

فالنفس الأمارة بالسوء، والنفس الحيوانية الحسية، هما الباعثتان للأفعال التي تنشأ عنها الملكات المغيرة للصورة الإنسانية إلى صورة شيطانية أو صورة

حيوانية، وأما النفس الناطقة القدسية فلا تلبس تلك الصور، بل لها الصورة الإنسانية النورانية فقط[١].

والإنسان يبقى على هذه الحال في الحياة من كسرٍ وصوغٍ إلى وقت موته وقبض روحه؛ فإذا قُبضت روحه يُقبض على ما هو عليه من الصورة الإنسانية، أو الصورة الحيوانية، أو الصورة الشيطانية.

وإذا كان محباً لأمير المؤمنين عليه السلام وأهل بيته عليهم السلام، تبقى صورته على حقيقتها بعد التصفية، ولا يدخل النار أبداً؛ أما إذا لم يكن من أهل الشفاعة بقي على صورته الحيوانية، وعُذِّبَ وحُشِرَ بها[٢]، فعن علي بن موسى الرضا، عن آبائه، عن أمير المؤمنين عليه السلام، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، عن جبرائيل، عن ميكائيل، عن إسرافيل، عن اللوح، عن القلم، عن الله تعالى، قال: «ولاية

---

(١) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (أن الملكات النفسانية التي تغير الصورة، حتى يحشر الرجل يوم القيامة سبعاً، أو خنزيراً، ليس من ملكات الناطقة القدسية؛ لأن الناطقة لا تلبس شيئاً من صور الحيوانات، بل الناطقة كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «مقرها العلوم الحقيقية الدينية، موادها التأييدات العقلية، فعلها المعارف الربانية» [التعليقات على الفوائد الرضوية: الفائدة الثانية ـ المبحث الثاني/ ما المتكثر المتوحد ص١١١]...

وإنما هذه الملكات التي تؤدي إلى تغير الصورة من النفس التي هي الأمارة بالسوء، التي هي ضد العقل، ومن النفس الحيوانية الحسية الفلكية، التي قال فيها أمير المؤمنين عليه السلام في حديث الأعرابي: «فعلها الحياة، والحركة والظلم، والغشم والغلبة، واكتساب الأموال، والشهوات الدنيوية» [نفس المصدر السابق]). [شرح العرشية ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٢ ص٤١٩].

(٢) يقول آية الله العظمى السيد كاظم الحسيني الرشتي قدس سره: (فإذا كان على صورة الحيوانية في الظاهر والباطن، ولم يكن من أهل الشفاعة يبقى على تلك الحالة أبداً خالداً معذباً، والقول بانقطاع العذاب قول من لم يطلع على حقيقة الأمر، ولم يفهم كنه المراد. وإذا كان محباً للولي عليه السلام وإن كان عاصياً كمال المعصية، فلا يدخل النار، ولا تنقلب صورته الحقيقة؛ لأن حبه حسنة لا تضر معها سيئة، وبغضه سيئة لا تنفع معها حسنة). [تفسير آية الكرسي ـ السيد كاظم الرشتي: ج١ ص٢٤٠].

علي حصني من دخله أمن ناري»[١]، وقال النبي الأعظم ﷺ: «حرمت النار على من آمن بي وأحب علياً وتولاه ولعن الله من مارى علياً وناواه، علي مني كجلدة ما بين العين والحاجب»[٢].

على أي حال، فكل إنسان إذاً مركب من شيئين هما: وجود وماهيّة، أو مادة وصورة، أو عقل ونفس، أو روح وجسم، أو نور ورحمة، أو أب وأم، أو نور وظلمة ـ عبر بأيها شئت ـ.

وآلة الوجود هي العقل، وآلة الماهية هي النفس الأمارة بالسوء. وكل آلة تقود إلى أصلها، فالعقل يقود الإنسان إلى وجوده، وهو الطاعة التي هي نوره من ربه ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[٣]، والنفس الأمارة بالسوء تقوده إلى الماهية، وهي المعصية التي هي ظلمه من نفسه[٤] ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[٥]. فكلاهما ـ أي الوجود والماهية ـ محتاجان في بقائهما إلى المدد لحدوثهما، واستمدادهما يكون من نوعهما، فالوجود يستمد من

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٣٩ ب٨٧/ حبه وبغضه صلوات الله عليه... ص٢٤٦ ح٣.

(٢) الأمالي ـ الشيخ الطوسي: المجلس١١/ حرمت النار على محب علي عليه السلام ص٢٩٥ ح٢٦/٥٧٩.

(٣) سورة النساء ـ الآية: (٧٩).

(٤) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (للإنسان ميل ذاتي إلى جهة اليمين من الوجود وإلى جهة الشمال من الماهية؛ لأن كل جزء يطلب حاجته فيميل إلى ما من جنسه، وذلك لأنهما مخلوقتان والمخلوق لا يستغني في بقاءه عن المدد، ومدد كل شيء من جنسه. ثم إن الله ـ وله الحمد على صراط مستقيم ـ جعل للإنسان مرآتين: مرآة عن يمينه تنطبع فيها صورة وجه رأسه الخاص به من العقل الكلي، بواسطة وجوده وهو العقل، وهو وزير الوجود، ولا يميل إلا إلى الطاعة، ومرآة عن يساره تنطبع فيها صورة وجه رأسه الخاص به من جهل الكل، بواسطة الماهية وهي النفس الأمارة بالسوء، ولا يميل إلا إلى المعصية). [رسائل الحكمة ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ص٤٨ـ٤٩].

(٥) سورة النساء ـ الآية: (٧٩).

الخيرات والحسنات والطاعات ؛ لأنها من نوعه ، والماهية تستمد من الشرور والمعاصي ؛ لأنها من نوعها. فأفعال المكلف ناشئة من تضاد تركيبه ، وميل كل واحد منهما إلى أصله ، وهذا هو سر الاختيار في المكلف.

وميل الوجود إلى جانب الماهية ، أو ميل الماهية إلى جانب الوجود يكون بالعرض بسبب الإتحاد بينهما ، فمتى ما غلب جانب الوجود ضعف جانب الماهية الذاتي ، ومالت بالعرض نحوه ، ومتى ما غلب جانب الماهية ضعف جانب الوجود الذاتي ، ومال بالعرض نحوها[1].

فالإنسان يعيش في هذه الحياة في وسط حرب بين جنود العقل التي تجذبه نحو وجوده ، وغايتهم هي الطاعة ، وبين جنود النفس الأمارة بالسوء التي تجذبه نحو ماهيته ، وغايتهم هي المعصية. وجنود العقل قد جُبِلُوا على الطاعة ، أمّا جنود الماهية فقد جُبِلُوا على المعصية ؛ أما ترى أن المعاصي ـ كالزنا مثلاً ـ فعلٌ قبيحٌ ومستهجنٌ عقلاً ؛ ولكنه محبوبٌ لدى جنود الماهية.

قال الله ﷻ : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۞ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[2].

---

(١) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه) : (وأمَّا إذا مال الوجود إلى الظلمة في حال كونه مغلوباً ؛ فإنه ميل بالعرض والاعتبار الذي هو بالعرض لا بالذات ، الذي هو شأن صدوره بفعل الله ، فإنه لا يشتهي لذاته عنه إلا النور ، فإذا كان كذلك لا يشتهي من ذاته الظلمة ، إذ لا يمكن أن يشاء من ذاته عدم مشيئته لما يشاء من ذاته ، فإنه إذا كان يشاء من ذاته النور لا يشاء عدمه ، إذا يلزم أن يشاء ما لا يشاء ؛ لأن المشيئة واحدة ، فلا تنبعث لغير موجب انبعاثها ؛ لأنه ضد ، فيكون انبعاثه بموجب عدم انبعاثه ، وهو محال ، وأما بالعرض فلا بأس به ـ كما قلنا ـ ، وكذا الكلام في الماهية). [شرح الفوائد ـ الشيخ أحمد الأحسائي : ج٢ ص٤١١].

(٢) سورة الشمس ـ الآيات : (٧ـ٨ـ٩ـ١٠).

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «ما من قلب إلا وله أذنان: على إحداهما ملك مرشد، وعلى الأخرى شيطان مفتن، هذا يأمره وهذا يزجره، الشيطان يأمره بالمعاصي والملك يزجره عنها، وهو قول الله عز وجل: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[١]»[٢].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن العقل عقال من الجهل، والنفس مثل أخبث الدواب، فإن لم تعقل حارت، فالعقل عقال من الجهل»[٣].

وورد في الصحيفة السجادية ـ في مناجاة الشاكين ـ:

«إلهي إليك أشكو نفساً بالسوء أمارة وإلى الخطيئة مبادرة، وبمعاصيك مولعة، ولسخطك متعرضة، تسلك بي مسالك المهالك، وتجعلني عندك أهون هالك»[٤].

والإنسان السوي هو من يطفح ماء الوجود فيه على هوى النفس الأمارة بالسوء، فمتى ما فازت جنود عقله في حروب القرارات الحياتية انجذب نحو علته، أو نحو شعاع حقيقته الحادث، ومتى ما فازت جنود ماهيته ابتعد عن ذلك الشعاع.

والعاقبة والخسران لمن يُطرَدُ من دائرة الرحمة الإلهية بسبب هوى نفسه الأمارة بالسوء، فالانغماس في الذنوب والمعاصي نهايته نسيان جانب النور

---

(١) سورة ق ـ الآية: (١٧ـ١٨).

(٢) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج٢ ك/ الإيمان والكفر ب/ أن للقلب أذنين ينفث فيهما الملك والشيطان ص٢٦٦ ح١.

(٣) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج١ ك/ العقل والعلم والجهل ب٤/علامات العقل وجنوده ص١١٧ ح١١.

(٤) الصحيفة السجادية ـ الأمام زين العابدين عليه السلام: في مناجاة الشاكين ص٤٠٣.

الذي هو جهته من الله ﷻ، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[١]، أي: أنساهم جانب النور بسبب تعاطيهم واستهانتهم بالمعاصي، التي هي من فعل أنفسهم.

ومن هنا عقدت أبواب تهذيب النفس لمن طلب الكمال في كتب السير والسلوك والأخلاق؛ بل أنها أول خطوة يخطوها العارف نحو ربه، وهي الجهاد الأكبر، كما وورد عن أمير المؤمنين عليه السلام، أن رسول الله صلى الله عليه وآله بعث سرية، فلما رجعوا قال: «مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر، قيل: يا رسول الله وما الجهاد الأكبر، قال: جهاد النفس»[٢]

فإذا طفح ماء الوجود على الإنسان، وعرف نفسه بأنها أعظم آية خلقها الله ﷻ في كينونيته لِيَعرِفُه بها؛ فقد عرف ربه كما قال أمير المؤمنين عليه السلام:

أتزعم أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر
وأنت الكتاب المبين الذي ... بأحرفه يظهر المضمر[٣]

ومن عرف نفسه بأنها نور أودع الله ﷻ فيها آية توحيده؛ فقد عرف ربه كما قال ﷻ: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[٤].

---

(١) سورة الحشر ـ الآية: (١٩).

(٢) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج٥ ك/ الجهاد ب/ وجوه الجهاد ص١٢ ح٣.

(٣) جواهر المطالب في مناقب الإمام علي عليه السلام ـ ابن الدمشقي: ج٢ ب٦٥/في ذكر شيء من شعره عليه السلام ص١٣٦.

(٤) سورة فصلت ـ الآية: (٥٣).

ومن عرف نفسه بأنها مصنوعة، وأن لها صانعاً؛ فقد عرف ربه كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «علة ما صنع صنعه وهو لا علة له»[١].

ومن عرف نفسه بأنها أثر، وأن لها مؤثراً؛ فقد عرف ربه كما قال عليه السلام: «البعرة تدل على البعير، والروثة تدل على الحمير، وآثار القدم تدل على المسير، فهيكل علوي بهذه اللطافة، ومركز سفلي بهذه الكثافة، كيف لا يدلان على اللطيف الخبير؟»[٢].

فمن عرف ربه بهذه المعرفة الممكنة التي هي معرفة النفس حاز على المعرفة الكاملة[٣].

واعلم أن كل ما مر ذكره كان واقعاً في معرفة النفس بطريق مجمل، أما الطريق المفصل فيكون بتجريدها[٤].

فالإنسان إذا جرد نفسه من العوارض والمشخصات، حتى من النسبة

---

(١) كشكول الشيخ الأحسائي: ج٢ ص٣٦٠.

(٢) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٣ ب٣/ إثبات الصانع والاستدلال بعجائب... ص٥٥ ح٢٧.

(٣) يقول الشيخ محمد آل أبي خمسين قدس سره: (أنه من عرف نفسه بما أودع فيها سبحانه من أدلة التوحيد، وآيات المعرفة والتفريد، فقد عرف ربه بالمعرفة الممكنة في حقه، لا أنه يعرفه على ما هو عليه في القدم، تعالى عن ذلك علواً كبيراً، وإنما هي المعرفة الكاملة بالنسبة إليه، والممكنة في حقه، مما وجد من الصفة الإلهية الملقى في نفسه، والمثال المتجلي له به). [الرسالة الخراسانية ـ الشيخ محمد بن أبي خمسين: ص١١٧].

(٤) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (ولمعرفته طريقان؛ طريق مجمل وطريق مفصل. فالأول: إن وجودك بالمعنى الثاني للوجود، كما ذكرنا سابقاً؛ هو أن تجد نفسك أثراً ونوراً وصنعاً، والأثر يدل على المؤثر، والنور يدل على المنير، والصنع يدل على الصانع، فهذا إجمالي لمعرفة النفس. والثاني: أعني الطريق المفصل، أن تنفي في وجدانك جميع سبحات نفسك، حتى لا تجد إلا نفسك، وهو الحقيقة التي سأل كميل علياً عليه السلام عنها). [شرح العرشية ـ الشيخ الأوحد: ج٢ ص١٠ـ١١].

والإضافة والإشارة القلبية[١]، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «الحقيقة كشف سبحات الجلال من غير إشارة»[٢]؛ سَمَت وشابهت أوائل عللها، وكانت سبحة من سبحات الجلال، أي: كانت أثراً من آثار صنعه، والآية الدالة عليه، فتظهر صفة الأحدية فيها[٣]، وهي التي من عرفها فقد عرف ربَّه، وهو مصداق قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»[٤].

وإزالة تلك القيود والمشخصات يكون بتجريد العارف فؤاده[٥]، أو نفسه عما سواها مِن جميع الحجب، كالشؤون والصفات والأفعال، إلى أن تصل

---

(١) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (فإن العارف إذا جرد نفسه غاية التجريد المعبر عنه في الحديث بمعرفة النفس بأن العارف إذا جرد نفسه عن كل صفة ونسبة واعتبار حتى عن الإشارة وعن تجريده، بحيث لا يجدها عرف نفسه فإنها وصف نفسه الذي ليس كمثله شيء فإذا عرف الوصف عرف ربه، وذلك المثل الذي ليس كمثله شيء آيتهم عليهم السلام، كما قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ [سورة فصلت ـ الآية: (٥٣)]). [شرح الزيارة الجامعة ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٥٦٦ـ٥٦٧].

(٢) نور البراهين ـ السيد نعمة الله الجزائري: ج١/شرح حديث كميل ابن زياد في الحقيقة ص٢٢١.

(٣) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (والعارف إذا كشف سبحات الجلال من غير إشارة، ظهرت الأحدية فيه، وهي الجلال في الجواب الأول، والمعلوم في الثاني، والسر في الثالث، وهي النفس في «من عرف نفسه فقد عرف ربه»، وهي حقيقتك من ربك). [شرح حديث كميل (جوامع الكلم) ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٢ ص٣١٩].

(٤) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٦٧ ب٤٤/ القلب صلاحه وفساده... ص٣٥ ح١.

(٥) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (وبيانه على سبيل الاختصار والإشارة: أنك تمحو في وجدانك عن حقيقتك التي هي ذاتك ونفسك، الحيث والكيف واللم والمتى والأين وفي ومِن وعلى ومع ولو وما أشبه ذلك، فإنها خارجة عن ذلك، مثلاً كونك في شيء ليس هو ذاتك، ولا جزءً منها، وكونك على شيء، وداخلاً في شيء، أو خارجاً من شيء، أو مع شيء، أو مشابهاً لشيء، أو يشابهك شيء... وما أشبه ذلك من صفات الخلق. فكل هذه وما أشبهها، إذا نظرتها وجدتها غيرك حتى خطابك وغيبتك وتكلمك، فإذاً أنت شيء بسيط مغاير لكل ما سواك، فليس كمثلك شيء بعد محو هذه السبحات وما أشبهها. فإذا عرفت نفسك هكذا، بقي عندك ظهور الله لك بك، فإذا نظرت ظهور الله بدون لك وبك، عرفت صفة الله وإذا عرفت صفة الله، عرفت الله؛ لأن الشيء لا يعرف بذاته، وإنما يعرف بصفته). شرح الزيارة الجامعة الكبيرة ـ الشيخ أحمد الإحسائي: ج١ ص٢٢٢.

إلى رتبتها المحضة ؛ فإذا وصلت في تجردها إلى درجة لم يُعرف مثلها شيء، أصبحت هي أثر فعله ﷻ، وآية توحيده، أي: آيته الدالة عليه، وعرّف ربه بما وصف له به نفسه، وهو مصداق قوله ﷻ: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[١].

فمعرفة النفس في هذا المقام ما هي إلا آية يستدل بها إلى معرفته ﷻ، لا الكشف عن ذاته، فقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «صفة استدلال عليه لا صفة تكشف عنه»[٢].

فتوهم كونها محلاً، أو صورة له، كما أدعى الصوفية[٣] ـ وغيرهم بذلك ـ حينما وصلت ذواتهم لهذه المرحلة من التجريد، باطل ؛ لأن ما كُشِف لهم لم يكن على ما هو عليه في الواقع، بل كان على طبق أذهانهم وأفهامهم وحقائقهم المعوجّة[٤]، ولأن الأثر لا يلحق المؤثر في رتبة ذاته، أي: لا وجود لآثاره الممكنة بوجه من الوجود في رتبة ذاته.

---

(١) سورة فصلت ـ الآية: (٥٣).

(٢) غرر الحكم ـ للآمدي: ص١٣٣

(٣) فصوص الحكم ـ ابن عربي ـ شرح القاشاني: ص٨٥.

(٤) يقول العلامة الشيخ محمد آل أبي خمسين قدس سره: (إن المعروف بعد إسقاط المذكورات، ومحو الموهومات ـ المتقدم ذكرها ـ هو النفس، التي هي آية معرفة الرب، لا الرب تعالى، لأنا بينا سابقاً أن «الطريق إليه مسدود، والطلب مردود، دليلة آياته، ووجوده إثباته». وكيف نقول بذلك ؛ بعد تصريح سيد الأولين والآخرين بالعجز عنه، وبعد تصريح سيد الموحدين عليه السلام: بأن المخلوق لا يدرك إلا مثله، ولا ينتهي إلا إلى شكله، وبعد تصريح ابنه الصادق ابن الصادقين عليه السلام: بأن ما تدركه الأوهام والمشاعر فهو مخلوق مثلها مردود إليها... والعجب منهم ـ لعنهم الله ورسوله ـ حيث يستدلون على مدعاهم ـ وهو أنه إذا أزال الحجب المانعة من المعاينة، والنقب الحاجزة عن المشاهدة، يظهر له ذات البحت، والمجهول النعت). [الرسالة الخراسانية ـ الشيخ محمد بن أبي خمسين: ص١٩٥].

فالكشف ليس جار على الذات البحت بل على أثر آثارها، أي: على النفس؛ لأن الذات البحت لا يجري عليها الكشف ولا إحاطة الوصف.

وما ورد في الحديث القدسي: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لكي أعرف»[١]؛ لا يدل على أن الغاية من خلق الخلق هو كشف خفاء الذات؛ بل أن المراد هو الكشف عن الخفاء الصادق على عدم المعرفة بالآثار، أي: كشف ما خفي من فاعليته، أو أثر فعله؛ لأنه ﷻ لما خلقنا عُرِف بما عَرَّف به نفسه لنا[٢].

وأما قول أمير المؤمنين عليه السلام: «اعرفوا الله بالله»[٣]، أي: أعرفوا الله ﷻ بحقيقة ظهوره لا بحقيقة ذاته؛ لأن الشيء إنما يعرف بصفته[٤].

---

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٨٤ ص١٩٩ ح٦.

(٢) يقول العلامة الشيخ محمد آل ابي خمسين قدس سره: (وإنما صار معروفاً بالآثار والآيات بعد تعلقها بالإمكانات؛ لأنه بعد ذلك تعين وتميز بها عند المائز؛ لأنه أظهر سبحانه صفات فعله بعد أن كانت مخفية). [النور المضي في معرفة الكنز الخفي ـ الشيخ محمد آل أبي خمسين: ص١٠١].

(٣) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٣ ب١٠/ أدنى ما يجزي من المعرفة والتوحيد... ص٢٧٠ ح٧.

(٤) يقول العلامة الشيخ محمد بن الشيخ أحمد الأحسائي قدس سره: (والمراد أنه إذا ظهر الحق ـ أعني المعلوم ـ بمحو سبحات حقيقة الماحي من نفسها من نظر الوجدان محى حقيقتها تعرف له بتلك الصفة؛ لأن ظهور الشيء صفته، كما أن نور الشمس يفنى في ظهور الشمس به، والسبحة النور والجلال، أي آثار الجلال وصفات الأفعال، فإذا كشف عن النفس جميع سبحاتها الموصوفة بالموجود المقيد، بأن يمحو عن الوجدان كل ذات وصفة وغيرها، حتى اعتبار المحو، إذا المراد بالنفس الوجود بغير قيود، فتضمحل الإنية، ولذا قال: «اتقوا فراسة المؤمن فإن ينظر بنور الله»[الكافي: ج١ ك/الحجة ب/أن المتوسمين الذين ذكرهم الله...ص٢١٨]؛ لأن من نظر النور لم يشهد المنير، فإذا كشف سبحات الجلال من غير إشارة ظهرت فيه الأحدية، وهي الجلال والمعلوم والسر، فحقيقة المعرفة بالنفس حقيقتك من ربك). [رسالة شاة زاده ـ الشيخ محمد ابن الشيخ أحمد الأحسائي: ص١٠٣ـ١٠٤].

ونستخلص مما تقدم:

بأنك مُرَكَبٌ من: مادة وصورة. وأن المادة ـ التي هي وجودك ـ هي حقيقتك من ربك، أي: وَصْفُ الله الذي وصف نفسه لك بك لتعرفه به.

وأنك إذا جاهدت نفسك نحو ما جُبِلت عليه، أي: نحو الطاعة والأفعال الصالحة، طارت نحو مبدئها في السماوات، وتعلقت به وشابهته، ولبست ما يناسبها من صور، أي: لبست الصورة القدسية النورانية الصالحة لتلك الحصة الملكوتية؛ وأمَّا إذا تركتها راكنة لهوى النفس الأمارة بالسوء من جرّاء اجتراء الذنوب والمعاصي، نزلت لأسفل الأرضين، وانحطت وابتعدت عن منيرها، ولبست ما يناسبها من صور، أي: لبست الصورة الحيوانية، أو الصورة الشيطانية. وإذا جردتها من كل شيء حتى من الإشارة القلبية، رأيتها أثراً لفعله، والنور الذي هو من صنعه، فتكون حينئذٍ هي دليلاً عليه؛ لأن الأثر يدل على المؤثر، والنور يدل على المنير.

الثاني: الأدلة النقلية

بما أنّ غاية المعرفة التحققيّة هي السير في مراتب الكمال، وإدراك أعلى درجات الدنوّ والقرب من ساحته ﷻ؛ فمن الحكمة أن تكون هذه المعرفة قائمة على ما اقتضاه وأمر به من طرق، لا على ما تقتضيه عقولنا وأوهام نفوسنا، فقد قال أبو عبد الله عليه السلام: «من عبد الله بالتوهم فقد كفر»[1].

(١) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج١ ك/ التوحيد ب/ المعبود ص٨٧ ح١.

وبما أننا نُدِين بدينِ خاتم الأنبياء والرسل محمد ﷺ، فالقرآن والسنة هما المصدران الوحيدان لاستنباط تلك المعرفة، وغيرهما من المصادر ـ كالعقل وغيره ـ إن طابقت القرآن والسنة فالفضل يعود لهما لا إلى ذلك المصدر، وإنّ خالفتهما فلا يمكن أن يأخذ بها؛ لأن الأخذ منها لا يزيد السائر إلا بعداً، كما ورد عن طلحة بن زيد قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام، يقول: «العامل على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق لا يزيده سرعة السير إلا بعداً»[1].

وقد بينا أهمية الشرع في استنباط المعرفة الحقَّة سابقاً فراجع لتغنم.

الثالث: العمل

يتحتم على الإنسان بعد حصوله على ملكة المعرفة من جانبها موازنة كفتي سلوكه في مراتب الكمال؛ وذلك بالإتيان بالجانب العملي[2]، وهو ما

---

(١) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج١ ك/ فضل العلم ب/ من عمل بغير علم ص٤٣ ح١.

(٢) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (إن طريق الحق ونهج الصدق في الرياضة: هو ما سنّه أئمة الهدى عليهم السلام، وهو أن تسلك الطريقة المستقيمة في الأحوال والأفعال والأقوال. أمّا في الأكل والشرب: فلا تأكل حتى تجوع، فإذا أكلت فلا تشبع؛ بل تبقي من شهوتك، ولا تشرب حتى تعطش، وإذا شربت فلا ترو. وأمّا في العبادة: فتحسن وضوءك وتقرأ عنده الأدعية المأثورة وسورة القدر في أثنائه، وبعد الفراغ تقرأها ثلاثاً، وتحسن صلاتك، وتقبل عليها بقلبك، وفرّغ قلبك في صلاتك لعبادة ربك، وتصلي صلاة مودِّع. وأمّا في أحوالك: فاجعل قلبك منبراً للملائكة ولا تجعله مربطاً لحيوانات الشهوات، ولتكن ذاكراً لله كثيراً؛ بأن لا تغفل عن الله، فتذكره عند الطاعة فتفعلها وعند المعصية فتتركها، ولا تحقر شيئاً من طاعة الله فعسى أن يكون فيه رضا الله ولا شيئاً من معاصي الله فعسى أن يكون فيه سخطه. وأن تكون دائم النظر في خلق الله نظر اعتبار وتدّبر، وتتذكر الآخرة والموت وتنظر إلى الدنيا وتقلباتها وعدم دوام لذاتها. وأما أفعالك: فإن قدرت أن لا تتحرك ولا تسكن إلا بما يُوافِقُ محبة الله فافعل. فاجعل سعيك إلى المساجد ومواضع الذكر، وبطشك في ما أمر الله تعالى ونظرك وسمعك وجميع جوارحك. وأمّا أقوالك: فلا تنطق إلا فيما يعنيك في الدنيا والآخرة، وعليك بقراءة القرآن بتدبر؛ فإنه مفاتيح خزائن الغيب). [رسائل الحكمة ـ الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي: ص١٥٢].

يعرف بعلم الطّريقة لدى أصحاب السير والسلوك إلى الله ﷻ، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «أيها الناس اعلموا أن كمال الدين طلب العلم والعمل به»[١]؛ فكما أن العمل من دون علم لا ينفع، كذلك هو حال العلم من دون العمل.

وأول ما يجب على طالب القرب والدنو من ساحة نوره ﷻ، الإيمان به وتقواه في كل شيء[٢]، وتأدية ما عليه من فرائض وسنن؛ لأنها حبل الاتصال مع الله ﷻ، والباعثة على زيادة جانب النور الذي هو من ربه، ويجب عليه إخماد نار النفس الأمارة بالسوء التي هي من ظلم نفسه، بترك المعاصي، وترك اقتراف الذنوب كبيرها وصغيرها؛ لأن العبادة والمعصية ضدان، ولا ثمرة للعبادة في ظل وجود المعصية.

---

(١) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج١ ك/فضل العلم ب/فرض العلم ووجوب طلبه والحث عليه ص٣٠ ح٤.

(٢) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (ثم اعلم أن الله يقول: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُواْ إِذَا مَا اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّآمَنُواْ ثُمَّ اتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[سورة المائدة ـ الآية: (٩٣)]. فذكر الإيمان ثلاث مرات والتقوى ثلاث مرات: فالأول: الإيمان بالله والتقوى تقوى الله فيما بينك وبينه فلا تنظر غير الله إلا بالعرض. كأن تراه سبباً لفعل الله أو مظهراً لقدرته، ولا تعتمد على غير الله في شيءٍ قَلَّ أو جَلَّ؛ فإن ما سوى الله ليس شيئاً إلا بالله، ولا تثق بغير الله في كل حال؛ بل اتق الله أن تنظر لغير الله شيئيَّةٍ في كل لحاظٍ إلا به. والتقوى الثانية: أن تتقي نفسك فلا تلين لها ولا تتركها وشهواتها فتوردَك المهالك؛ بل تجعل همك في جهادها وحملها على الانقياد لأمر الله. والإيمان الثاني: أن تؤمن بذلك فإنك إذا فعلت بها كذلك غير مؤمن به انهدم ما أسست لها. والتقوى الثالثة: أن تتقي الناس بأن تجتنب ما حملوك من العادات المخالفة للشرع والآراء ومجالسة أهل الغفلة منهم والمعاصي، وأن تجتنب كلما لا يحبون منك مما لا يُرادُ منك شرعاً؛ بل تعاملهم بما تحب أن يعاملوك به، وتكون مؤمناً بذلك كما ذكرنا وتعمل وتحسن العمل فإنه تمام الأمر.

ولا تستصعب ما وصفت لك؛ بل تعمل ما تقدر عليه، ولا تترك ما تقدر عليه لأجل ما يصعب عليك، فإنك إذا فعلت ما تقدر عليه قويت على ما صعب عليك، قال الصادق عليه السلام: «بالحكمة يُستَخْرج غور العقل، وبالعقل يُستَخْرج غور الحكمة» [الكافي ـ الشيخ الكليني: ج١ ك/ العقل والجهل ص٢٨ ح٣٤]. [رسائل الحكمة ـ الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي: ص١٥٢ـ١٥٣].

وعليه المداومة على الأعمال الصالحة، والمستحبات من نوافل وغيرها[١]، وترك المكروهات بقدر المستطاع، والتقرب إلى الله ﷻ بأفضل الأعمال المشروعة وبأحمزها، فقد قال رسول الله ﷺ: «أفضل الأعمال أحمزها»[٢].

ومن تلك الأعمال ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ:

أ ـ الذكر

للذكر حكمة عميقة يفهمها أصحاب السير والسلوك إلى الله ﷻ، فهو أسرع طريق لرقة القلب، وخشية الله ﷻ، وهو وسام المؤمن ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[٣]، وباب المغفرة المفتوح، ومسلك الأجر العظيم الذي أعده الله ﷻ لخلقه ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾[٤]؛ فلا يخلوا سالك نحو الكمال من ذكر معين.

---

(١) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (وإذا داومت على الأعمال الصالحة والنوافل، انفتحت لك الأبواب، وتسببت لك الأسباب، ورفع عنك الحجاب، ورزقك الله من رحمته وعلمه ومعرفته ومعرفة أحكامه بغير حساب، قال تعالى: «ما زال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها، إن دعاني أجبته وإن سألني أعطيته» [الكافي ـ الشيخ الكليني: ج٢ ب/ من أذى المسلمين وأحتقرهم ص٣٥٢ ح٧]. فإذا تقرب العبد إلى الله بالنوافل أحبّه، فإذا أحبّه قال ﷺ: «ليس العلم بكثرة التعلّم وإنما هو نور يقذفه الله في قلب من يحب» [بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج١ ك/ العلم ب٧/ آداب طلب العلم وأحكامه ص٢٢٥ ح١٧]، فينفسح فيشاهد الغيب، وينشرح فيحتمل البلاء. قيل: وهل لذلك من علامة، قال ﷺ: «التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله» [كنز العمال ـ المتقي الهندي: ف٣/ في فضل الإيمان والإسلام ص٧٦ ح٣٠٢]. فهذه حقيقة الطريقة وطريقة الحقيقة، وهي أقرب الطرق إلى الله وأقومها). [رسائل الحكمة ـ الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي: ص١٥٣].

(٢) الحدائق الناظرة ـ المحقق البحراني: ج٦ ك/ الصلاة ب/ فضل الصلوات اليومية ص٦.

(٣) سورة الأنفال ـ الآية: (٢).

(٤) سورة الأحزاب ـ الآية: (٣٥).

ويجب في هذا الذكر أو الورد أن يكون مما يرتضيه الشارع المقدس، ومنضبط بضوابطه، ومما ورد فيه؛ لا من الأذكار والأوراد الغريبة التي لم نحصل على سند أو دليل يؤيد صحتها، كالموجودة في كتب الصوفية وغيرهم[١]. فالكثير يعتقد بأن ما ينصح به أصحاب الرياضات من أذكار وأوراد، هو من المعتبر والمعتمد لدينا، والحقيقة أن أغلبها تم تحصيله من طرق غير مشروعة، كتسخير الجن لمصالح شخصية، وأعمال الأوفاق والطلاسم بصورة غير مشروعة، وأعمال السحر والشعوذة، وغيرها من الأمور الباطلة.

والذكر ـ في شريعتنا المقدسة ـ لفظ مطلق يشمل كل ذكر يقرب العبد من الله ﷻ، وأفضله ما صدر منه كقراءة القرآن، أو ما صدر منهم عليهم السلام كالأدعية والأوراد التي ذكروها لنا.

أمَّا قراءة القرآن بتدبر وتمعن وإخلاص، فهو أكسير السلوك إلى الله ﷻ، وثمرته صفاء الروح، وتهذيب النفس، وحجب المكاره، وهو مفاد قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً﴾[٢].

---

(١) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (وأمّا ما ذكره أهل التصوف وأصحاب التقشف من الرياضات والأذكار التي لم ترد عن الأئمة الأطهار، فذلك زخرف القول يفعلونه غروراً، ولو شاء ربك ما فعلوه؛ ولكنه تركهم وخلاّهم من يد رحمته، فذرهم وما يفترون وليصغي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة من إخوانهم أهل الغواية والضلالة والملاهي؛ الذين يطلبون ما يباهون به العلماء، ويمارون به السفهاء، فيصورون الباطل في صورة الحق ليستحسنه أهل الإلحاد في أسماء الله، وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون. وهو طريق كثير الحيات والعقارب، مظلم كالليل الدامس مُسْبِع، وهو سبيل الفجار وطريق النار فاجتنبوه لعلكم تهتدون). [رسائل الحكمة ـ الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي: ص١٥٣].

(٢) سورة الإسراء ـ الآية: (٤٥).

وأما الدعاء فهو سلاح المؤمن، وبضاعته في الطلب، كما ورد في دعاء كميل: «يا سريع الرضا اغفر لمن لا يملك إلا الدعاء»[١]، وورد عن أبي عبد الله عليه السلام، أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الدعاء سلاح المؤمن وعمود الدين ونور السماوات والأرض»[٢].

ولا تتحقق مقبوليته إلا بعد إزالة الحجب والموانع التي تحول دون صعوده، كاقتراف الذنوب والمعاصي، والتهاون في فعل صغائرها، وأكل المال الحرام، وعقوق الوالدين، والمجاهرة بأفعال السوء على ظهر الملأ، وإيذاء الناس، والسعي وراء أسرارهم، وغيرها.

ولترصد مظان الإجابة دور كبير في قبوله، كجوف الليل، وعند زوال الشمس، وما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، وعند طلوع الشمس وعند غروبها، وبعد الصلوات المكتوبة، وليلة الجمعة ويومها، وغيرها.

فعن الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال: «من قام من آخر الليل فتطهر وصلى ركعتين وحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وآله، لم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه، إما أن يعطيه الذي يسأله بعينه، وإما أن يدخر له ما هو خير له»[٣].

وقال ـ أيضاً ـ عليه السلام: «إن الله تبارك وتعالى فرض الصلوات في أفضل الساعات، فعليكم بالدعاء في أدبار الصلوات»[٤].

---

(١) إقبال الأعمال ـ ابن طاووس: ج٣ ب٩/ فيما نذكره من فضل شهر شعبان ف٥١/ دعاء كميل ص٣٣٧.

(٢) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج٢ ك/ الدعاء ب٢/ أن الدعاء سلاح المؤمن ص٤٦٨ ح١.

(٣) وسائل الشيعة ـ الحر العاملي: ج٤ ب٣٠/ استحباب الدعاء في الليل... ص١١٢٤ ح٢.

(٤) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٨٢ ب٣٦/ فضل التعقيب وشرائطه وآدابه... ص٣٢٠ ح٦.

وقال رسول الله ﷺ: «إن يوم الجمعة سيد الأيام، يضاعف الله ﷻ فيه الحسنات، ويمحو فيه السيئات، ويرفع فيه الدرجات، ويستجيب فيه الدعوات»[١].

أمّا أفضل الأوراد فهو وِردُ (الصلاة على محمد وآله) في كل آن، وهو مفتاح من مفاتيح قبول الأعمال، ومصفاة النفس من دنس الخطايا والذنوب، وأجره لا يعلمه إلا الله ﷻ.

وما من عمل توضع الصلاة على محمد وآله في مقدمته ومؤخرته إلا وارتفع، فعن الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال: «من كانت له إلى الله حاجة فليبدأ بالصلاة على محمد وآله، ثم يسأل حاجته، ثم يختم بالصلاة على محمد وآل محمد، فإن الله ﷻ أكرم من أن يقبل الطرفين، ويدع الوسط، إذ كانت الصلوات على محمد وآل محمد لا تحجب عنه»[٢]، وعن الإمام الرضا عليه السلام، قال: «من لم يقدر على ما يكفر به ذنوبه فليكثر من الصلاة على محمد وآله فإنها تهدم الذنوب هدماً»[٣].

ب ـ الصلاة

تكمن أهمية الصلاة بأنها الشعرة التي بين الإسلام والكفر، فقد قال رسول الله ﷺ: «ما بين الكفر والإيمان إلا ترك الصلاة»[٤].

---

(١) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج٣ ك/ الصلاة ب/ فضل يوم الجمعة وليلته ص٤١٤ ح٥.

(٢) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٩٠ أبواب الدعاء ب١٧/ آداب الدعاء والذكر... ص٣١٦ ح٢١.

(٣) الأمالي ـ الشيخ الصدوق: المجلس١٧/ فضل الصلاة على محمد وآله ص١٣١ ح٨/١٢٣.

(٤) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٧٩ ك/ الصلاة ب١/ فضل الصلاة وعقاب تاركها ص٢١٧ ح٣٣.

وتمام العبودية فيها ـ أي: الخضوع التام بين يدي الله ﷻ ـ لا تتحقق إلا بقتل روح التكبر من خلال طأطأة الرأس في الركوع والسجود؛ لأن مرض التكبر هو العدو الأول للصلاة، وهو الذي تسبب في طرد ولعن إبليس حينما أمر الله ﷻ الملائكة بالسجود لآدم، ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾[١]، فقال ـ إبليس ـ: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾[٢].

وفي زمان النبي ﷺ، أتى جماعة من شيوخ القبائل إليه، فعرضوا عليه مقترحاً مفاده: إننا مستعدون للدخول في الإسلام، ووضع جميع ممتلكاتنا تحت إمرتك؛ بشرط أن تعفينا من السجود في الصلاة، فليس من شأننا أن نمرغ جباهنا في التراب، فقال لهم الرسول ﷺ: «لا خير في دين ليس فيه ركوع وسجود»[٣].

فإذا انكسر الكبرياء بلغ الإنسان السعادة الأبدية في العبادة، حينما يصل إلى مقام ﴿عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾[٤] ولا أملك شيء من نفسي، وهذا مفاد قول مولاتنا الزهراء عليها السلام: «والصلاة تنزيه لكم عن الكبر»[٥].

فإذا تحقق ذلك أصبحت الصلاة معراج المؤمن، ووصلته لبلوغ الغاية في كمالاته، كما يقول الله ﷻ ـ في الحديث القدسي ـ: «وما تقرب إلي عبد

---

(١) سورة البقرة ـ الآية: (٣٤).

(٢) سورة الأعراف ـ الآية: (١٢).

(٣) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج١٨ أبواب أحواله ﷺ ب١/ المبعث وإظهار الدعوة... ص٢٠٣ ح٣٣.

(٤) سورة النحل ـ الآية: (٧٥).

(٥) أعيان الشيعة ـ السيد محسن الأمين: ج١ خطبة الزهراء عليها السلام بعد وفاة النبي ﷺ ص٣١٦.

بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وإنه ليتقرب إلي بالنافلة حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، إن دعاني أجبته وإن سألني أعطيته»[١].

جـ ـ الصيام

الصيام هو قربان الإخلاص الذي يقدمه المؤمن لله ﷻ، وهو أفضل طريق لقتل النفس الأمارة بالسوء، وكبت شهواتها، وتزكيتها وتطهيرها.

فإذا صامت الجوارح باطنها وظاهرها دخلت روح الإنسان في جانب النور، وابتعد عنه الشيطان، كما قال الرسول ﷺ لأصحابه: «ألا أخبركم بشيء إن أنتم فعلتموه تباعد الشيطان منكم كما تباعد المشرق من المغرب؟

قالوا: بلى

قال ﷺ: الصوم يسود وجهه»[٢].

وروي ـ أيضاً ـ عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «قال الله ﷻ: الصوم لي وأنا أجزي به، فالصوم يميت مراد النفس، وشهوة الطبع الحيواني، وفيه صفاء القلب، وطهارة الجوارح، وعمارة الظاهر والباطن»[٣].

---

(١) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج٢ ب/ من أذى المسلمين وأحتقرهم ص٣٥٢ ح٧.

(٢) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج٤ ك/ الصيام ب/ ما جاء فضل الصوم والصائم ص٦٣ ح٢.

(٣) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٩٣ أبواب الصيام ب٣٠/ فضل الصيام ص٢٥٤ ح٢٨.

كمال العقيدة معرفتهم بالنورانية

يُعَدُّ هذا المبحث من المباحث الدقيقة في العقيدة الإسلامية بشكل عام، وفي عقيدة الشيعة الإمامية بشكل خاص[1]؛ لأنه على الرغم من وضوحه في الآيات القرآنية، وفي أخبارهم وخطبهم وأدعيتهم عليهم السلام - جملةً وتفصيلاً -؛ إلا أنه قد دارت حوله العديد من النظريات والآراء والأطروحات الفكرية، التي تشعبت نتائجها إلى عدة وجوه اعتقادية:

---

(١) يقول آية الله العظمى السيد كاظم الرشتي الحسيني قدس سره: (اعلم أن العلماء في هذه الخطبة الشريفة [الخطبة التطنجية] وأمثالها من الخطب، كخطبة البيان وخطبة الافتخار وغيرها من الأخبار: كخبر معرفتهم بالنورانية، وخبر بيان مقامات المعرفة، وغيرها، تشعبوا على أربع شعب:

الأولى: طرحوا هذه الأخبار وأسقطوها عن نظر الاعتبار، وقالوا إنها أخبار آحاد لا تفيد علماً ولا عملاً...

الثانية: توقفوا في تصديقها وتكذيبها حيث رأوا شيوع هذه الأخبار وتكررها وتواردها في كتب الفرقة المحقة، وورود الأدعية الكثيرة بمضمونها والزيارات الواردة عن أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام...

الثالثة: تلقوها بالقبول وشهدوا على حقيتها؛ لكنهم حاولوا معرفتها بالعقول ولم يستندوا فيها إلى آل الرسول - صلى الله عليه وعليهم - بباطن دعوتهم ولسان أعمالهم وإن ادعوا خلافه بظاهر مقالهم، فجروا في بيان هذه الخطب مجرى الصوفية الملاحدة القائلين بوحدة الوجود...

الرابعة: عملوا بمقتضى قوله تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً﴾. [سورة النساء - الآية: (٦٥)]، فأولئك المؤمنون الممتحنون الذين امتحن الله قلوبهم للأيمان وشرح صدورهم للإسلام، وهم المتبعون لقادة الدين الأئمة الهادين الذين يتأدبون بآدابهم وينهجون نهجهم...). [شرح الخطبة التطنجية - السيد كاظم الرشتي: ص٢٠].

الوجه الأول: أثبت لهم عليهم السلام ما منحهم عزّ وجلّ إيّاه من المقامات النورانية وغيرها، وقد قُوبِلَ بَاتهامه بالغُلُو من طرف المنكرين لها.

الوجه الثاني: أنكرها؛ إمَّا بحجة ضعف سند الأخبار التي وردت في ذلك ـ فقالوا: بأنها أخبار آحاد لا تفيد العلم، هذا من جهة من يرى أن الخبر الواحد ليس بحجة، أمّا من جهة من ذهب إلى حجية الخبر الواحد فقال: بأن حجية الخبر الواحد لا تعوّل في مثل هذه المطالب ـ، أو بحجة أن ما ورد من الأخبار في ذلك مما تخالفه العقول؛ لاستلزام إثبات الربوبية للمخلوق، والتفويض الذي أطبق العلماء على بطلانه، وتكفير القائلين به، فردوا جميع ما جاء منها.

الوجه الثالث: قَبَلَها؛ ولكن حاول أتباعه تفسيرها على مقتضى عقولهم وأوهامهم، لا على مقتضى ما ورد في كتابه الكريم، أو ما ورد منهم عليهم السلام، فقد ابتعدوا كثيراً عن معانيها وحقائقها، وَهَوَوا في قيعان الملاحدة، وصاروا فريسة في مخالب الشرك.

الوجه الرابع: توقفوا في تصديق وتكذيب ما جاء فيها من أخبار، فحملوا تصديقها على جانب الشّياع، وتواردها في كتب الشيعة الإمامية، وحملوا تكذيبها على قصور العقل عن إدراك ومعرفة مضامينها، وقالوا: بأن التوقف والسكوت فيها أولى، كما قال الإمام الصادق عليه السلام: «الوقوف عند الشبهات خير من الاقتحام في الهلكات»[1].

(١) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج١ ب/ اختلاف الحديث ص٦٥ ح١٠.

ومن أجل رفع الاشتباه الذي زلّ فيه خلق كثير، فالكلام في هذا الأمر يحتاج إلى ذكر مقدمات متوالية، من شأنها أن تساعدنا على الوصول إلى الغاية التي نصبوا إليها. فعلى ذلك نقول ـ وعلى الله التوفيق ـ:

أولاً: معرفة الله ﷻ معرفتهم ﷺ بالنورانية

اعلم ـ عزيزي القارئ بأننا قد ذكرنا مِراراً في مبحثنا ـ أنّ الله ﷻ لما أحب خلق الخلق لأجل المعرفة، ولّما لم تكن هناك طريقة بينه وبين خلقه؛ لوجوبه وإمكان خلقه، ولعدم القدرة على إحاطة كَنهِهِ؛ لقصور مخلوقاته، فهو لا يُدْرَكُ لا بالحواس ولا بغيرها، وجب عليه أن يُعرِّفَ نَفسَهُ لهم بهم؛ وإلاّ لكان عقابهم على ترك معرفته عبثاً؛ لمنافاته مقتضى الحكمة، والحكيم لا يصدر منه العبث، فوقع هذا التعريف والتوصيف على نوعين هما[1]:

١ـ تعريف حالي

وهو معرفة الشيء بنفسه لا بغيره، كما لو طلبت منك معرفة زيد

---

(١) يقول الشيخ محمد آل أبي خمسين ﷺ: (ولهذا قطعنا بوجوب كون تعريفه سبحانه لخلقه بكلا التعريفين، وتبيانه لهم بكلا التبيانين، لما في ذلك من الكمال الثابت، وهما التعريف الحالي والمقالي. وإنما اقتصرنا على وجوب ذلك عليه تعالى فقط؛ لأن طريق المعرفة والتوصيف منحصر فيهما فقط، كما لا يخفى. أما الثاني فظاهر؛ لأنه الحاصل من مدلولات آيات الكتاب التدويني، والروايات الصادرة على لسان النبي العربي، وأهل بيته، مهبط الوحي، وما يرجع إلى ذلك من مفاهيم الألفاظ، والعبارات والتوصيفات، والاستدلالات الثلاث، التي هي: المجادلة بالتي هي أحسن، والموعظة الحسنة، والحكمة البالغة. وأما الأول، فإنه الحاصل من الآيات الكونية المضروبة في الآفاق وفي أنفس الموجودات لذلك، أي لتعريفه سبحانه، وتوصيفه وتوحيده وتمجيده. وهذا النوع أشرف من الثاني؛ لأنه أنزه وأكمل، وأجلى منه، إذ هو تعريف بالكينونة، وتوصيف بالبينونة، والثاني تعريف بالألفاظ والكلمات). [النور المضي في معرفة الكنز الخفي ـ الشيخ محمد آل أبي خمسين: ص ١٨١ـ١٨٢].

فأريتني إيّاه بحقيقته. وهذه هي معرفته ﷻ بآثاره الدالة عليه، أي: بمصنوعاته، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «كل معروف بنفسه مصنوع وكل قائم في سواه معلول، بصنع الله يستدل عليه وبالعقول يعتقد معرفته»[١].

ومن فيض كرمهِ وَصْفُ نفسهِ لنا بِنا لنعرفه؛ ولذا قال ﷻ في الإنجيل: «يا بن آدم، أعرف نفسك تعرف ربك، ظاهرك للفناء، وباطنك أنا»[٢].

ومعرفة النفس[٣] الدالة على معرفته ﷻ ـ كما قلنا سابقاً في مبحثنا ونقول هنا أيضاً ـ لا تعني معرفة عين ذاته ﷻ، بل تعني معرفة آية صنعه؛ لأن المعرفة فرع الإحاطة، وهو محيط بكل شيء ولا يحاط، فلا يُعرف بنحوِ ذاته بأي وجهٍ من الوجوه، فهو الغائب في ذاته، الحاضر في تجليات وظهورات فعله، وفي رسله وشريعته، وتدبيره وعنايته ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[٤]، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «الظاهر بعجائب تدبيره للناظرين، والباطن بجلال عزته عن فكر المتوهمين»[٥].

ونحن لا نعرفه إلا بما عرَّف به نفسه لنا بِنا، وغير ذلك الطلب فيه مردود والطريق مسدود، ومهما حاولنا إدراك كُنهِهِ ﷻ فإن المتصور لنا والمدَرك إجمالاً وتفصيلاً ما هو إلا مخلوق ممكن مثلنا؛ لأن كل الأشياء في الحقيقة لا

---

(١) التوحيد ـ الشيخ الصدوق: ب٢/ التوحيد ونفي التشبيه ص٣٥ ح٢.

(٢) مشارق أنوار اليقين ـ الحافظ رجب البرسي: ف/ من عرف نفسه عرف ربه ص٢٩٧.

(٣) تكلمنا عن معرفة النفس بالتفصيل في مبحثنا سابقاً، فراجع.

(٤) سورة ق ـ الآية: (١٦).

(٥) نهج البلاغة ـ الشريف الرضي: ج٢ خطبة له في تمجيد الله ص١٩٤ خطبة رقم (٢١٣).

تُدْرك إلا نظائرها[١]، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنما تحد الأدوات أنفسها، وتشير الآلات إلى نظائرها»[٢]، و قال الإمام الباقر عليه السلام: «كلَّما ميّزتموه بأوهامكم في أدقّ معانيه مصنوع مثلكم مردود إليكم»[٣].

حتى أسماءهُ، من قبيل: الله، الكنز المخفي، صبح الأزل، الوجود الحق، الواجب، العليم، الرازق، وغيرها من أسمائهِ تعالى؛ فهي لا تدل على ذاته، بل هي من جملة مخلوقاته، خلقها عز وجل لعباده ليعرفوه بها، كما قال الإمام الرضا عليه السلام: «فأسماؤه تعبير، وأفعاله تفهيم، وذاته حقيقة، وكنهه تفريق بينه وبين خلقه»[٤].

فهي عنوانات تجلياته وظهوراته، أي: آثار فعله، مَخلوقَةٌ للاستدلال عليه لا للكشف عنه، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام ـ في خطبة الدرة اليتيمية ـ: «صفة استدلال عليه لا صفة تكشف عنه، رجع من الوصف إلى الوصف، ودام الملك في الملك»[٥].

---

(١) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (وبالجملة كل شيء لا يدرك أعلى من مبدئه، وأنت خلقت بعد أشياء كثيرة، فلا تدرك ما وراء مبدئك، ومع هذا تدرك أنك مخلوق، وتدرك أن للمخلوق خالقاً، وتدرك أن الخالق أوجدك بفعله الذي وصفته به، وقلت: خالق: وتدرك أن الخلق إيجاد وحركة، وتدرك أنها حدثت من الفاعل، وتدرك أن الفاعل هو المحدث للفعل، وتدرك أن تلك الحركة الإيجادية لم تكن قديمة ولم تنفصل من الذات؛ بل إنما أحدثت بنفسها، فتكون جهة الصفة صفة الجهة، ولا شيء مما ذكر قديم، فلا تدرك إلا نظائرك في المخلوقية، وهي الآثار). [رسائل الحكمة ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ص٦١].

(٢) نهج البلاغة ـ الشريف الرضي: ج٢ خطبة له في التوحيد ص١٢٠ خطبة رقم (١٨٦).

(٣) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٦٦ ب٣٧/ صفات خيار العباد وأولياء الله... ص٢٩٣ ح٢٣.

(٤) الاحتجاج ـ الشيخ الطبرسي: ج٢ خطبة الإمام الرضا عليه السلام في التوحيد ص١٧٦.

(٥) غرر الحكم ـ للآمدي: ص١٣٣

ومعاني تلك الأسماء واقعة على أكمل مظاهره التي خلقها وجعلها محال قدرته وإرادته، وهم مُحمَّد وآله عليهم السلام[١]؛ فهي دالة على عنوانات الذات. نعم، عند إطلاقها فالمقصود منها هو الذات[٢].

---

(١) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (وإنما قيل أن حقائقهم أسماؤه تعالى؛ لأن الاسم في الأصل علامة على المسمى، والعلامة كما تحصل في اللفظ تحصل بالمعنى الذي هو الوصف بالطريق الأولى، بل الصفة أدل في التعيين.... ولما كان الأصل في الاسم، والمقصود منه إنما علامة المسمى ليتميز من غيره، كان الأصل فيما يعرف به الله هو وصفه نفسه للمخلوق بنفس ذلك المخلوق، ولما كان الباعث إلى الإيجاد هو المعرفة؛ وجب أن تكون سابقة على ما سواها، ولا يجوز أن تكون بدون عارف فتقع لغواً، ولا على موجود فلا تكون سابقة، أو يكون هو غير محدث؛ بل يجب أن تكون هي إياه؛ لأن أول صادر يجب أن يكون أشرف مما دونه في كل شيء. ولما كان لا يجوز أن يقع على الله شيء؛ لا لفظ ولا معنى، وجب أن يكون ما يمكن أن يعرف متضمناً لأثار صفاته ليستدل به عليه، فكان الاسم المعنوي أولى من اللفظي؛ لإمكان إصدار الآثار الدالة عليه عنه. ولما كان الاسم المعنوي يحتاج إلى معرفته، لتوقف معرفة الله تعالى على معرفته، وكان مما يمكن الاسم اللفظي أن يميزه ببعض وجوهه، جاز إطلاق الاسم اللفظي عليه؛ لما بينهما من المشاركة في نوع مطلق الخلقية. ولما كان المعنوي واسعاً؛ لأنه قد وسع آثار الصفات الإلهية؛ وجب في الاسم الذي يراد منه تمييزه ببعض وجوهه أن يكون أجمع الأسماء، للدلالة على آثار الكمال المطلق، والفناء المطلق، والقدس، والعزة، والوحدة الذاتية بما له لذاته، ولا يكون ذلك إلا في الأسماء الحسنى التي اختارها لنفسه، فهي بما تضمنت من الدلالة الذاتية، تدل على تلك المعاني القدسية التي هي معانيه سبحانه. ولما كانوا هم الأسماء الحسنى التي أمر أن يدعى بها، وهم معانيه كما مر في حديث جابر، وهم ذوات معان، والأسماء الحسنى ألفاظ؛ وجب أن تكون أسماء الله ظاهرها ألفاظ وباطنها معانٍ، ووجب لابتناء أحدهما على الآخر أن تكون الأسماء اللفظية الظاهرة أسماء للأسماء المعنوية الباطنة، والمعنوية الباطنة أسماؤه تعالى، وهو لا يعرف ولا يعبد، إلا بأسمائه، فتوحد تعالى بهم عليهم السلام في عبادته، ولا يفقدهم منذ عبد بهم، فهم أركان توحيده في عبادته». [شرح الزيارة الجامعة ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٤٠٢].

(٢) يقول العلامة الشيخ محمد بن أبي خمسين قدس سره: (فالمراد بالأسماء الإلهية، والمقصود منها؛ هو الذات لا غير، لكنها ليست مسماة لهذه الأسامي، بل المسميات هي الظهورات والتجليات الظاهرة للمظاهر والمجالي بالمظاهر والمجالي، فلما ظهر بالألوهية سميناه إلهاً، ولما ظهر بالقدرة سميناه قادراً، ولما ظهر بالعلم سميناه عليماً، وبالخالقية والرازقية والرحمة والوحدة وما يضاهيها سميناه خالقاً ورازقاً ورحيماً وهكذا... فصح أن الأسماء هي للظهورات لا للذات؛ لثبوت عدم الاسم لها، لكن المقصود من الأسماء عند الإطلاق هي الذات لا غير). [نجاة الهالكين ـ الشيخ محمد بن أبي خمسين: ص٢٢٣ـ٢٢٤].

والحاصل أن هذا التعريف يكون بما أودعه ﷻ في خليقته من صفة توحيده، وهو المثال الذي ظهر به للخلق، فإذا عرفت هذه الصفة المُودعة فيكَ؛ فقد عرفتَهُ، وهي صفة استدلال لا صفة تكشف عنه.

٢ـ تعريف مقالي

وهو معرفة الشيء بصفته لا بنفسه، أي: معرفته بواسطة، والصفة تدل على الموصوف، كما لو طلبت منك معرفة زيد فأريتني ما يدل عليه من دلائله، كصورته مثلاً.

ولما كان الشيء يعرف بآياته وصفاته، كانوا هم عليهم السلام الآية الكبرى[١] الدالة عليه؛ لتمثل الجعل الإلهي في أشرف المخلوقات وأكملها، أي: في النبي الأعظم محمد ﷺ ﴿وَهَلْ طَنَعْلُكَ لِنَفْيِ﴾[٢]، وفي أهل بيته عليهم السلام؛ فهم الواسطة والوسيلة والوصلة إليه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَابْتَغُواْ إِلَيهِ الْوَسِيلَةَ﴾[٣].

---

(١) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه) ـ في معنى: «نحن الأعراف الذين لا يعرف الله إلا بسبيل معرفتنا» ـ: (يعني لا يعرف الله إلا بنا؛ يعني: نحن معرفة الله وتوحيده في كل ما يعتبره معتبر، ويجرده مجرد، لا يظهر له إلا آية الله، وهم عليهم السلام ليس لله آية أكبر منهم، ولا أدل عليه منهم، والشيء إنما يعرف بآياته وصفاته، وقد قال علي عليه السلام: «أنا الذي لا يقع عليه اسم ولا صفة». وهذا كمال التجريد والتفريد، وبه يعرف الله؛ أي: بهذا المثل الأعلى والآية الكبرى، والمثل الذي ليس كمثله شيء يعرف الله تعالى؛ فهم توحيد الله في المقامات التي لا تعطيل لها في كل مكان، وهم في الأبواب المخلصون في توحيد الله، وهم في الخلق الدالون على الله والدعاة إليه، فافهم راشداً). [شرح الزيارة الجامعة ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٣٥٩].

(٢) سورة طه ـ الآية: (٤١).

(٣) سورة المائدة ـ الآية: (٣٥).

ولما كان الأثر يشابه صفة مؤثره ؛ كانوا هم عليهم السلام أركان توحيده، وأبواب فيضه، ومحال معرفته[١]، ولولاهم لما عُرِف الله عزوجل وعُبد، كما قال أبو عبد الله عليه السلام: « بنا عُرِفَ الله وبنا عُبِد الله، نحن الأدلاء على الله، ولولانا ما عُبد الله»[٢] ؛ فمعرفته عزوجل لا تتم إلا بمعرفتهم عليهم السلام.

ولو تأملت بلبّك الكلمات الواردة في خطبهم وأدعيتهم وزياراتهم عليهم السلام، وأنت مُسَلِّمٌ معتقدٌ مذعنٌ لها، خالية روحك مما استأنَسَتهُ وألَفتهُ من قواعد وأفاعيل بشرية ؛ لوجدتها تبين لهم ذلك المقام وأكثر.

---

(١) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه) ـ في معنى كونهم محال معرفة الله ـ: (فاعلم أن كونهم محال معرفة الله ـ إذا تنزلت عن هذا المعنى الذي أشرنا إليه ـ له معانٍ أُخر:

أحدها: أن الله سبحانه جعلهم خزائن معرفة الخلق سواهم، بمعنى: أن كل من عرف ربه ؛ فإنما نزلت عليه المعرفة منهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾.[سورة الحجر ـ الآية: (٢١).

وثانيها: أن كل معرفة عند أحد من الخلق، إنما كانت صحيحة ؛ لأنها أخذت عنهم، فهم محال معرفة غيرهم.

وثالثها: أن كل معرفة إذا لم ترد عليهم لم تتجاوز إلى الله، لأنهم هم أبواب الله لا غير ؛ بمعنى: أنها غير مطابقة للمعروف، إذا المعرفة صفة، وإذا لم تكن الصفة مقترنة بجهة الموصوف كانت لنفسها أو لغيره ؛ ولا جهة لله في الإمكان غيرهم.

ورابعها: أن كل معرفة إذا لم تضف إليهم وتنسب كانت عدماً، إذ لا وجود لشيء بدون فاضل وجودهم ؛ لأنهم علة الإيجاد ؛ يعني: العلة المادية.

وخامسها: كما أن كل مادة فمن فاضل وجودهم، كذلك جميع صور الحق فمن هيئات الرحمة، وهي هم ؛ لأنهم علة الانوجاد ؛ يعني: العلة الصورة.

وسادسها: أنهم عليهم السلام إذا وردت عليهم معرفة عبدٍ فإن سقوها من حوضهم استقامت معرفته وحييت وإلا ماتت وتفرقت ولم تكن شيئاً، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً﴾.[سورة الفرقان ـ الآية: (٢٣)].

وسابعها: أنهم عليهم السلام هم المقدرون لمعارف الخلائق، والمقسمون لها بأمر الخالق، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون. فهذه الوجوه وغيرها في كلها هم عليهم السلام محال معرفة الله ؛ لأن معرفة الله حينئذٍ عندهم ومعهم، وفيهم وبهم، وإليهم ولهم). [شرح الزيارة الجامعة ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٢٨٨ـ٢٨٩].

(٢) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٢٦ ب٥ / جوامع مناقبهم وفضائلهم عليهم السلام ص٢٦٠ ح٣٨.

ومن جملة ما ورد في هذا الشأن:

روى عن الإمام الحسين بن علي عليهما السلام، أنه قال: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «إلزموا مودتنا أهل البيت، فإنه من لقي الله وهو يودنا دخل الجنة بشفاعتنا، والذي نفسي بيده لا ينفع عبداً عمله إلا بمعرفة حقنا»[١].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «أنا باب حطة من عرفني وعرف حقي فقد عرف ربه»[٢].

وورد في دعاء الندبة: «فكانوا هم السبيل إليك والمسلك إلى رضوانك»، «أين باب الله الذي منه يؤتى، أين وجه الله الذي إليه يتوجه الأولياء، أين السبب المتصل بين الأرض والسماء»[٣].

وورد في الزيارة الجامعة: «السلام على مَحالّ معرفة الله»، «إلى الله تدعون، وعليه تَدُلُّون»، «من أراد الله بدأ بكم، ومن وَحَّده قَبِل عنكم، ومن قصده توجّه بكم»، «من والاكم فقد والى الله، ومن عاداكم فقد عادى الله، ومن أحبكم فقد أحب الله، ومن أبغضكم فقد أبغض الله، ومن اعتصم بكم فقد اعتصم بالله»، «وبموالاتكم علمنا الله معالم ديننا، وأصلح ما كان فسد من دنيانا، وبموالاتكم تمت الكلمة، وعظمت النعمة، وائتلفت الفرقة، وبموالاتكم تقبل الطاعة المفترضة»[٤].

---

(١) الأمالي ـ الشيخ الطوسي: ص١٨٧، ح٣١٤.

(٢) مستدرك سفينة البحار ـ الشيخ علي النمازي الشهرودي: ج٢/ الأخبار في الحطيم ص٣٢٣.

(٣) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٩٩ ب٧/ زيارة الإمام المستتر عن الأبصار... دعاء الندبة ص١٠٤.

(٤) عيون أخبار الرضا ـ الشيخ الصدوق: ج٢ ب٦٨/ في ذكر زيارة الرضا عليه السلام الزيارة الجامعة ص٣٠٩.

وما خرج من الناحية المقدسة ـ بعد الجواب عن المسائل التي سألها مُحمَد الحميري ـ:

«بسم الله الرحمن الرحيم، لا لأمره تعقلون، ولا من أوليائه تقبلون، حكمة بالغة فما تغني النذر عن قوم لا يؤمنون، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، إذا أردتم التوجه بنا إلى الله تعالى وإلينا فقولوا ـ كما قال الله تعالى ـ: سلام على آل ياسين، السلام عليك يا داعي الله ورباني آياته، السلام عليك يا باب الله وديان دينه، السلام عليك يا خليفة الله وناصر حقه، السلام عليك يا حجة الله ودليل إرادته، السلام عليك يا تالي كتاب الله وترجمانه، السلام عليك في آناء ليلك وأطراف نهارك، السلام عليك يا بقية الله في أرضه، السلام عليك يا ميثاق الله الذي أخذه ووكده، السلام عليك يا وعد الله الذي ضمنه..»[1].

وحينما تُحَدِثُنا كلماتهم عليهم السلام عن معرفتهم المتصلة بمعرفة الله عزوجل ـ سواء كانت هذه الكلمات مستفيضة من أخبارهم أو أدعيتهم أو زيارتهم أو غيرها ـ؛ فليس المراد منها هو معرفة أسمائهم وأسماء آبائهم عليهم السلام، بل أن المراد هو معرفتهم بالنورانية!

والمقصود من معرفتهم بالنورانية:

هي معرفة مقاماتهم التي منحهم الله عزوجل إياها في النشأة ومظهرية الصفات، والآثار والأفعال الإلهية ـ سواء كان من ولاية تكوينية أو تشريعية

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٩٩ ب٧/ فيما خرج من الناحية المقدسة إلى محمد الحميري ص٨١ ح١.

أو غيرها ـ، والتصديق الجازم بها، والتولي لهم، والتبري من أعدائهم، والاعتقاد بمعارفهم وفضائلهم، والتسليم لهم في كل شيء[١].

وثمرة الإقرار بكل ما منحهم الله ﷻ إياه من مقامات، هو الوصول إلى أعلى مراتب الكمال في الدنيا، ونيل أعلى الدرجات في الآخرة.

فما تراه من تغاير بين الناس في التوفيقات والألطاف الإلهية، وظهور البركات عليهم في حياتهم، وتغاير حسابهم ومراتبهم في الآخرة؛ سببه الأساسي هو مقدار ما يملكه كل منهم من رصيد معرفي عقائدي في مقاماتهم التي منحهم الله ﷻ إياها[٢]؛ لأن معرفة حقيقتهم عليهم السلام هي معرفة

---

(١) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (أني عارف بكم بالمعرفة النورانية، يعني: عرفت بدليل الحكمة والعيان أنكم المقامات التي لا تعطيل لها في كل مكان، وأنكم معادن كلمات الله، وأركان توحيد الله، وآياته ومقاماته، وبيوت علمه وحكمه وغيبه وحقه وأمره، وأنكم جنبه ويده ولسانه وعينه وأذنه وقلبه ووجهه وظاهره وسره، وأنكم بابه وخزائنه ومفاتيح غيبه التي لا يعلمها إلا هو وكتابه المبين وصراطه المستقيم، وأنكم حججه وأولياءه والدعاة إليه وخلفاءه في أرضه والنذر الأولى والنذر الأخرى والدعاة إلى الله وإلى دينه الذين أوجب محبتهم وفرض طاعتهم.

وعرفت أيضاً بدليل الحكمة أن من خالفكم هم الضالون عن سبيل الهدى في كل موضع في كتاب الله ذكر الضالين، فإنما عناهم وأتباعهم مثل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾.[سورة الزخرف: (٣٦)]. [شرح الزيارة الجامعة ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٣ ص١٦].

(٢) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه) ـ في معنى قوله: (لئن شكرتم نعمتي التي أنعمت بها عليكم) ـ: (وولايتهم التي هي سبب سعادتكم في دنياكم وآخرتكم بأن تتولاهم وتقتدوا بهم وتلسموا لهم وتردوا إليهم جميع أموركم وتحبوهم وتنصروهم بقلوبكم وأيديكم وألسنتكم، وتؤثروهم على أنفسكم وأهليكم وتعبدوا الله باقتفاء آثارهم والأخذ عنهم وتتبرؤوا من أعدائهم، لأزيدنكم من العلوم والحكم والتوفيق للأعمال الصالحة ورفع ثقل العمل عنكم والهداية لمحبة الله ورضاه عنكم، ومن دفع البلاء السوء عنكم وسعة الرزق الحلال الذي يحصل به الكفاف والرخاء والعيش الهني). [شرح الزيارة الجامعة ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٢ ص٣٣٢].

الله ﷻ، ومعرفة الله ﷻ هي غاية العبادة التي أمرنا بها؛ فلا ﴿يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١] في معرفة هذه الحقيقة[٢].

فعن يحيى بن زكريا، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: سمعته يقول: «من سره أن يستكمل الإيمان فليقل: القول مني في جميع الأشياء قول آل محمد عليهم السلام، فيما أسروا وفيما أعلنوا وفيما بلغني وفيما لم يبلغني»[٣].

وفي رواية المفضل بن عمر، عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: «يا مفضل هل عرفت محمداً وعلياً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام كنه معرفتهم؟

قلت: يا سيدي وما كنه معرفتهم؟

قال: يا مفضل من عرفهم كنه معرفتهم كان مؤمناً في السنام الأعلى»[٤].

وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام، أنه قال ـ في حديث طويل حينما سأله سلمان وجندب رضي الله عنهما عن معرفته بالنورانية ـ: «إنه لا يستكمل أحد الإيمان حتى يعرفني كنه معرفتي بالنورانية، فإذا عرفني بهذه المعرفة، فقد امتحن الله

---

(١) سورة الزمر ـ الآية: (٩).

(٢) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (وما هيئة فعله تعالى إلا صفة رضاه، وما صفة رضاه إلا إتباع أوليائه، وموالاتهم، والتسليم لهم، والرد إليهم، ومحبتهم بالقلب واللسان والجوارح، ومعاداة أعدائهم والبراءة منهم، فإذا كان كل مخلوق هكذا؛ لأنه إنما خلقه الله ليعرفه ولا يعرفه إلا بما وصف به نفسه له، وما وصف نفسه له إلا بنفسه، ولهذا قال عليه السلام: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»، وهم عليهم السلام حقيقة كلما وصف الله نفسه لخلقه من الدرة إلى الذرة؛ لأنه سبحانه إنما وصف نفسه لكل شيء من خلقه بهم عليهم السلام؛ أي: بصفةٍ من صفاته، فوجب أن يعرفهم ويعرف حقيقتهم). [شرح الزيارة الجامعة ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٣ ص١٧].

(٣) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٢٥ ب١٣/ غرائب أفعالهم وأحوالهم عليهم السلام ص٣٦٤ ح٢.

(٤) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٢٦ ب٦/ أنهم عليهم السلام لا يحجب عنهم علم السماء والأرض... ص١١٧ ح٢٢.

قلبه للإيمان وشرح صدره للإسلام وصار عارفاً مستبصراً، ومن قصر عن معرفة ذلك فهو شاك ومرتاب.

يا سلمان ويا جندب، قالا: لبيك يا أمير المؤمنين. قال: معرفتي بالنورانية معرفة الله ﷻ، ومعرفة الله ﷻ معرفتي بالنورانية، وهو الدين الخالص، الذي قال الله ﷻ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾[1]»[2].

ثانياً: معنى الولاية والتفويض لآل محمد عليهم السلام

قد يقال: أن معرفة حقيقتهم عليهم السلام ـ أي: معرفتهم بالنورانية التي هي السبيل الوحيد لكمال عقيدة الإنسان، كما بيناه في كلماتنا سابقاً ـ يستلزم إثبات الولاية لهم، أي: إثبات شريك للباري ـ جل ربي وعلا ـ، وهذا مناف لقوله ﷻ: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾[3]؛ فالقول بمعرفتهم بالنورانية مؤداه:

إمّا القول بالتفويض لهم؛ والله ﷻ يقول: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[4]، وإمّا القول بالغلو؛ والله ﷻ يقول: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا

---

(١) سورة البينة ـ الآية: (٥).

(٢) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٢٦ ب/ نادر في معرفتهم عليهم السلام بالنورانية ص٢ ح١.

(٣) سورة الإسراء ـ الآية: (١١١).

(٤) سورة غافر ـ الآية: (٤٤).

تَغْلُوفِي دِينِكُمْ﴾[١]؛ وبالبداهة أن الولي والمتصرف الحقيقي هو الله ﷻ ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ﴾[٢].

قلت: إن رفع هذا الإشكال يحتاج إلى بيان أمرين هما:

- معنى الولاية؟

- وهل ولاية الله ﷻ قابلة للتفويض، أم لا[٣]؟

---

(١) سورة النساء - الآية: (١٧١).

(٢) سورة الكهف - الآية: (٤٤).

(٣) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (أن للتفويض سبعة معاني وكلها موافقة لشرع المحمدي الأصيل -:

أحدُها: أنه سبحانه أوْحى إليهم علوم ما يحتاج إليه الخلق وأحاكمهم، مما شاء جملة وتفصيلاً؛ منها: ليلة المعراج على محمد ﷺ، ومنها: ما ينزل في ليالي القدر، ومنها: القذف في القلوب، والنقر في الأسماع، ومنها: علم ما كان وعلم ما يكون، أي غابر ومزبور. وهو قول موسى بن جعفر عليه السلام: «مبلغُ علمنا على ثلاثة وجوه: ماضٍ، وغابرٍ، وحادث. فأما الماضي فمفسر، وأما الغابر فمزبور، وأما الحادث فقذف في القلوب، ونقر في الأسماع، وهو أفضل علمنا» [بحار الأنوار - العلامة المجلسي: ج٢٦: ص٥٩ ح١٣٢]. وأعلمهم جهات التحمل والتبليغ، فهم المؤدون إلى من أُمِروا بالأداء لا غيرهم، فقد فوض إليهم تبليغ ما أمرهم بتبليغه، كما حدده لهم، فهم بأمره يعملون. وليس معنى كلامنا أنه فوض إليهم تبليغ ما أمرهم بتبليغه ورفع يده؛ لأن هذا من التفويض الباطل الذي هو الشرك بالله؛ لأن كل شيء سواه تعالى إنما هو شيء يكون في قبضته، إذ لا وجود لشيء ولا قوام إلا بأمره، بل مرادنا به أنه فوض إليهم ذلك التبليغ، أنهم حملة أمره ونهيه بقدرته، وتراجمة وحيه بقوته ومشيئته، فافهم.

وإنما سمي هذا تفويضاً؛ لأنه تعالى خصهم به دون غيرهم، لأن غيرهم لا يقدر على تحمل ذلك، وإليه الإشارة بقوله تعالى: «لا يسعني أرضي ولا سمائي، ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن»، أي لم تقدر الأرض والسماء على تحمل أوامره ونواهيه، وجهات تصرفات نظام عالمه، وإنما قدر على ذلك قلب عبده محمد وأهل بيته ﷺ، وذلك لقرب كونهم من محدب كرة الوجود الراجح، ولهذا خلقهم قبل الخلق بألف دهر، كما تقدم في رواية الاختصاص.

وثانيها: إنه تعالى خلقهم على هيئة مشيئته، وهي صورة مقتضاها - إذا لم يحصل لها قاصر عن مقتضاها - أن تجري على طبق مشيئته، وإنما خلقهم ليجروا على مشيئته، فإذا أنهى إليهم عملاً ليبلغوه إلى من شاء، كانت إرادتهم ترجمان إرادته، ولذلك خلقهم، ومع ذلك لم يرفع يده - كما تقدم - في جميع أقوالهم وأعمالهم وحركاتهم وسكناتهم، فهم بأمره يعلمون لا بشيء من إرادتهم، ولا ميل أنفسهم... ⟸

وأنا أضرب لك مثلاً لهذا المعنى: إذا كان عندك ماء في الأرض، فإذا أردت أن تجريه إلى جهة الشرق حفرت له في الأرض طريقاً منخفضاً إلى الجهة التي تريد إجراءَهُ إليها على قدر إرادتِكَ وصرفته إليها، فيجري على حسب ما حفرت له، فهو حين صرفته فجرى، فإنك لم تمنعه مما صرفته إليه، فأنت قد فوضت إليه جريانه فيما صرفته إليه؛ ولكن هو بنفسه لم يجر، وإنما المُجرى له أنت بما حفرت له. فكذلك هم عليهم السلام خلقهم الله على صورة مشيئته، فمقتضى بنيتهم وفطرتهم الجريان على مشيئته؛ لأن الأثر لا يخالف في صفته صفة مؤثره، فلا يكون ظل الطويل قصيراً ولا العكس، ولا المعوج مستقيماً ولا العكس، وإنما خلقهم على تلك الهيئة ليجروا عليها، فهو أجراهم على ما يشاء، كما أنك أجريت الماء على ما تشاء، بما صنعت له من هيئة جريانه، فيما حفرت له، مع أنه تعالى لم يُخْلِهم في جميع أحوالهم من قبضته، كما تقدم. وكيف يقال: بأن هذا تفويض أو استقلال، وأنت لا يقال لك فيما صنعت بالماء حين قدرت له جريانه: إنك فوضت إليه الجريان؟ مع أن الماء في جريانه ليس في قبضتك، بل هو قائم بنفسه، وإنما حصرته على سبب الجريان، وهو تعالى حصرهم على حسب الجريان على إرادته بما خلقهم عليه من هيئة إرادته، ومع هذا لم يُخْلِهم من يده في جميع أحوالهم ووجودهم، وإنما قوامهم وقوام جميع الخلق بأمره تعالى، كقوام الصورة في المرآة بظهور الشاخص ومقابله، فافهم.

وثالثها: إنه تعالى خلقهم له لا لسواه ولا لأنفسهم، فجعلهم ألسنة إرادته، ومحال مشيئته، ففي الحقيقة ليس لهم مشيئة، وإنما مشيئتهم مشيئة الله، فإذا شاءوا فإنما شاء الله، كما قال﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللّهَ رَمَى﴾ [سورة الأنفال ـ الآية: (١٧)]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [سورة الإنسان ـ الآية: (٣٠)].

فهو تعالى يشاء بهم ما شاء، ولا مشيئة لهم، وليس لمشيئته محلّ غيرهم، وجميع ما يجريه على خلقه من جميع الأشياء فإنما هو بمشيئته تعالى، وهم محل تلك المشيئة، وهم ألسنة تلك الإرادة، وهذا معنى قول الحجة عليه السلام في جوابه المتقدم لكامل بن إبراهيم المدني، قال: «بل قلوبنا أوعية لمشيئة الله، فإذا شاء شئنا، والله يقول: ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾».

ورابعها: أنهم عليهم السلام أطاعوه في كل حال وصدقوا معه في كل موطن، فأوجب على نفسه تعالى إجابتهم في كل ما سألوه وأرادوا، جزاءً بما كانوا يعلمون. فمعنى فوض إليهم الأمر أن كل ما أرادوا فعلهُ لهم، وأجراه على حسب إرادتهم، والعلة أنهم باستقامة عقولهم واستواء فطرتهم لا يشاءون إلا ما هو محبوب له تعالى مراد له جل جلاله. وذلك كما تقدم في التوقيع: «إن الله تعالى هو الذي خلق الأجسام، وقسم الأرزاق؛ لأنه ليس بجسم ولا حال في جسم ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [سورة الشورى ـ الآية: (١١)]. وأما الأئمة عليهم السلام فإنهم يسألون الله تعالى فيخلق، ويسألونه فيرزق، إيجاباً لمسألتهم، وإعظاماً لحقهم»[الاحتجاج ـ الشيخ الطبرسي: ج٢ ص٥٤٥ ح٣٤٥].

وخامسها: المراد بالتفويض الإذن فيما وليهم عليه، وصرفهم فيه مما حدد لهم، فإنه أنزل عليهم الكتاب الذي فيه تفضيل كل شيء، فقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللّهُ وَلاَ تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً﴾[سورة النساء ـ الآية: (١٠٥)]، ⟸

فاعلم أن الوَلاية ـ في **اللغة** ـ: مأخوذة من الفعل الثلاثي (ولي)، يقال: ولي الشيء، وولي عليه وَلاية وولاية[1].

وقيل: هي السلطنة، وتولي الأمر وتدبيره[2].

وعناهم في هذا بقوله تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[سورة ص ـ الآية: (٣٩)]. وقد تكون بعض الأشياء معلقة على شروط، أو مؤقتة بأوقات، فيمنعون من فعل ذلك إلى أن يقع ما علق عليه، مثل: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ [سورة الأحزاب ـ الآية: (٣٧)، ومثل: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [سورة القيامة ـ الآية: (١٦)]، ومثل: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً ۞ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [سورة الكهف ـ الآيتان: (٢٣ ـ ٢٤)]، فإذن له فيما يعلق على شيء ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ومنع مما هو معلق أو مؤقت ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [سورة طه ـ الآية: (١١٤)]، فجعل الإذن والرخصة في إمضاء ما أمر بتبليغه تفويضاً؛ لأنه قبل الإذن كان محصوراً بالمنع من الإمضاء.

وسادسها: إن الأشياء لما كانت لهم مخلوقة وأحكامها التي بها صلاح نظامها في النشأتين عندهم؛ لأنهم عليهم السلام هم خزائن تلك الغيوب، وهم الأولياء على الأشياء التي لم تخلق إلا لهم، ولم يكونوا لذواتهم عالمين بوضع الأسباب لمسبباتها، والأجزاء في مواضعها المشخصة لها، إلا بتعليمه وهدايته، أنهى إليهم ما يتوقف عليه التأدية إلى ما شاء، تتميماً للنعمة، وإكمالاً للتفضل، ليؤدوا بقوته ومدده، وتوفيقه لهم على ما خفي عنهم، وذلك هو التفويض الحق، بتسبيب الأسباب، ورفع الموانع.

وسابعها: إن الله تعالى هو الولي، وهو يحي الموتى، وهو على كل شيء قدير، قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً﴾[سورة الكهف ـ الآية: (٤٤)]، ثم لما كان الحق جلا وعلا «كنهه تفريق بينه وبين خلقه» متعالياً عن كل مجانسة ومناسبة، لم يكن للمخلوقات التلقي عنه تعالى والقبول، ولم يكن أن يكون شيء مفعولاً إلا بمحل ومتعلق.

ويجب في الحكمة أن يكون أول متعلق للفعل مناسباً له وقريباً منه، وحاملاً له مؤدياً عنه، فإن كان بخلاف ذلك، كان الفعل والصنع على خلاف ما ينبغي، وخلاف ما ينبغي خلاف الكمال، وخلاف الكمال دليل الحاجة والعجز والجهل، والواقع خلاف ذلك كله، فوجب أن يكونوا عليهم السلام مناسبين للفعل؛ لأنهم أول متعلق للفعل؛ وبهم تقوم كما تقومت استضاءة نور الشمس بالأرض؛ لأنها متعلق الاستضاءة. فوجب أن يكونوا الواسطة في كل شيء لكل شيء، فللحكمة جعلهم أولياء على خلقه، وتراجمة وحية، والولاية هي التفويض الحق الذي سمعت، فافهم). [شرح الزيارة الجامعة ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٣ ص١٦٣ ـ١٦٧].

(١) معجم مقاييس اللغة: ج٦ ص١٤١ مادة (ولي).

(٢) مفردات ألفاظ القران الكريم: ص٨٨.

وقال ابن منظور: الولاية ـ بالكسر ـ الاسم، مثل: الإمارة والنقابة؛ لأنه اسم لما تولّيته وقمت به[١].

والوَلاية ـ في **الاصطلاح** ـ: الظاهر أن لها نفس المعنى اللغوي، وهو تصرّف موجود بموجود آخر لتسلطه وقدرته عليه.

والولاية الإلهية لها أقسام عديدة تختلف بحسب جهة اللحاظ؛ فَمِن لحاظ جهة المبدأ ـ أي الصادرة منه ـ، يمكن القول بأنها تنقسم إلى قسمين:

١ ـ ولاية حقيقية وولاية مجازية

فبلحاظ الاستقلالية والتفرد، وأنها حقيقة كلية، وصفة إلهية، وشأن من الشؤون الثابتة للذات الربوبية المقدسة، تكون مختصة له وحده ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾[٢]؛ ولكن[٣] بما أنه ﷻ لا يفعل شيء بذاته؛ لتنزهه عن مباشرة

---

(١) لسان العرب ـ ابن منظور: مادة (ولي).

(٢) سورة الشورى ـ الآية: (٢٨).

(٣) يقول آية الله الميرزا حسن كَوهر ﷺ: (من ادعى وجود خالق في العالم، ومؤثر غير الله؛ فهو كافر كفر الجاهلية الأولى، فلا تنسب الخالقية إلى الأئمة ﷺ على الحقيقة، فلا خالق إلا الله، ولا مؤثر إلا الله، ولكن لما كان سبحانه منزهاً عن مباشرة الأشياء؛ أجرى فعله على يدي من شاء من خلقه. مثاله: الحديدة المحماة بالنار، فالنار هي التي تحرق لا الحديدة، والحديدة حامل فعلها؛ أعني الإحراق، فهي تحرق بالحديدة، فإذا قطعت تعلقها عن الحديدة لا تحرق شيئاً أبداً، فما دامت النار متعلقة بالحديدة تحرق الحديدة جميع ما يلاقيها؛ لتعلق النار بها. فالمحرق هو النار لا غير، لكن بالحديدة، فالحديدة حاملة لفعل النار الغيبية؛ وهي مثال حقيقتهم ﷺ الحاملة لفعل الله، فكذلك مثال أولياء الله، فالله سبحانه هو الخالق والفاعل لا غير، لكن يجري فعله على يد من شاء من أوليائه، كما أنه هو الذي يميت ويحيي لا غير، لكن أجرى فعله على يدي ملك الموت، فملك الموت لا يقبض الأرواح أبداً، والذي يقبض هو الله سبحانه، لكن لما كان ملك الموت حاملاً لفعله؛ صح إطلاق القابض عليه مجازاً، لعلاقة الحال والمحل، فكذلك أولياء الله، تنسب إليهم الأفعال مجازاً؛ لأنهم حاملون لفعل الله). [شرح حياة الأرواح ـ الميرزا حسن كَوهر: ص٣٣٥].

مخلوقاته، بل يفعل ما شاء بفعله ومفعوله، ظهرت ولايتهُ فيهم وبهم عليهم السلام، بإذنه وإرادته لا بالاستقلال عنه.

فالولاية الحقيقية هي لله عزوجل، وإطلاق ولايتهُ عليهم عليهم السلام يكون بالمجاز؛ لأن ولايتهم تجليات ومظاهر للولاية الإلهية، وهي عينها[١]، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[٢]، وقال أبو عبد الله عليه السلام: «ولايتنا ولاية الله التي لم يبعث نبياً قط إلا بها»[٣]، وقال الإمام السجاد عليه السلام ـ في حديث طويل لجابر ـ: «اخترعنا من نور ذاته، وفوض إلينا أمور عباده. فنحن نفعل بإذنه ما نشاء، ونحن إذا شئنا شاء الله، وإذا أردنا أراد الله، ونحن أحلنا الله عزوجل هذا المحل، واصطفانا من بين عباده، وجعلنا حجته في بلاده»[٤].

---

(١) يقول العلامة الكبير الميرزا موسى الإحقاقي الإسكوائي قدس سره: (وهذه الرئاسة والسلطنة الكلية، التي هي ولاية الله «هنالك الولاية له الحق» لا يجعلها الله في أحد إلا ويمكنه من ملكه وبلاده، ويفوض إليه أمور عباده، حتى يتمكن من التصرف فيها، والتغيير والتبديل بمقتضى مشيئة الله وإرادته، فكما أن الله سبحانه له القدرة التامة، والسلطنة العامة، وبيده زمام ملكه، يفعل ما يشاء كيف يشاء، لا راد لحكمه، فكذلك أوليائه الطاهرون، الذين جعلهم حججه في ملكه على عباده، لهم القدرة التامة على جميع الأشياء، أي: يتصرفون فيها ويغيرون ويبدلون بمقتضى مشيئة الله وإرادته، لا عن أنفسهم واختيارهم وإرادتهم، لأنهم محال مشيئة الله وألسنة إرادته، بل هم عليهم السلام آلات لله سبحانه صرفة، ووسائل بينه وبين الخلق محضة، ليس لهم مشيئة ولا إرادة بوجه، ومشيئتهم وإرادتهم عين مشيئة الله وإرادته، تظهر منهم عليهم السلام). [إحقاق الحق ـ الميرزا موسى الإحقاق: ص٤٦٣].

(٢) سورة المائدة ـ الآية: (٥٥).

(٣) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج١ ب/ فيه نتف وجوامع من الرواية في الولاية ص٤٣٧ ح٣.

(٤) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٢٦ب١٣/ نادر في معرفتهم صلوات الله عليهم بالنورانية ص١٤ ح٢.

٢ ـ ولاية مطلقة عامة وولاية خاصة

فبلحاظ الشمول والهيمنة، والسلطنة على كل ذرة من ذرات الوجود، تكون ولاية مطلقة عامة، وهي ولايته وحده ﷻ لا شريك له، التي أظهرها على يد الرسول الأعظم ﷺ، وأهل بيته عليهم السلام[١]. وبلحاظ السلطنة على بعض الموجودات دون بعض، تكون ولاية خاصة، وهي التي أظهرها الله ﷻ على يد من شاء من أوليائه، كالأنبياء عليهم السلام، والأوصياء، والصالحين.

فقد قال الله ﷻ في نبيه سليمان عليه السلام: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾[٢].

وقال في نبيه عيسى عليه السلام: ﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٣].

---

(١) يقول العلامة الكبير الميرزا موسى الإحقاقي الإسكوائي قدس سره: (ومن المعلوم أن من جملة الكمال في حق المعصومين الأربعة عشر وعدمه نقص فيهم، هو القدرة التامة، والرئاسة الكاملة العامة، وهي الولاية المطلقة التي أعطاهم الله سبحانه أياها، وأكرمهم من بين الخلائق بها، ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[سورة ص ـ الآية: (٣٩)] وذلك لأن قدرتهم لو كانت على بعض الأشياء دون بعض، لزم أن تكون ولايتهم على ما قدروا عليه من الأشياء، والحال أن ولايتهم مطلقة عامة، يعني لا يخرج شيء من تحت عموم ولايتهم وسلطنتهم وكأنها ولاية الله ظهرت منهم عليهم السلام، ومعلوم أن نبوة كل نبي بمقدار ولايته، فلا يعقل أن يكون نبياً على شيء ولم يكن له ولاية عليه، ولا شك أن نبوة نبينا محمد ﷺ مطلقة عامة على جميع الموجودات). [إحقاق الحق ـ الميرزا موسى الإحقاقي: ص٤٦٢].

(٢) سورة ص ـ الآية: (٣٦).

(٣) سورة آل عمران ـ الآية: (٤٩).

وقال في وصي نبيه سليمان عليه السلام آصف بن برخيا: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾[1].

وقال حكاية عن ذي القرنين: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾[2].

وروي عنهم عليهم السلام، أن الله عز وجل قال ـ في الحديث القدسي ـ: «يا ابن آدم، أنا حيّ لا أموت، أطعني فيما أمرتك حتّى أجعلك حيّاً لا تموت، يا ابن آدم، أنا أقول للشيء كُن فيكون، أطعني فيما أمرتك أجعلك تقول للشيء كُن فيكون»[3].

وأمّا الولاية الإلهية بلحاظ جهة المتعلّق ـ أي الصادرة إليه ـ، فيمكننا القول بأنها أيضاً تنقسم إلى قسمين هما:

١ـ ولاية تكوينية

وهي القدرة على التصرف في مجال التكوين، أي: خرق نواميس الطبيعة، والتسلط على الظواهر الكونية وما يتعلق بها، كالإحداث والإعدام، والقبض والبسط، وغير ذلك.

---

(١) سورة النمل ـ الآية: (٤٠).

(٢) سورة الكهف ـ الآية: (٨٤).

(٣) مستدرك الوسائل ـ الطبرسي: ج١١ ب١٨/وجوب طاعة الله ص٢٥٨ ح١٢٩٢٨.

والولي الأول، أي: الفاعل والمالك الحقيقي للولاية التكوينية الشاملة على جميع الأمور الوجودية هو الله وحده لا شريك له، ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١]؛ ولكن[٢] بما أنه ﷻ لا يجوز أن يكون فاعلاً بذاته بل بفعله، وهم عليهم السلام محل هذا الفعل، والمظهرين لكمالاته، وإرادته بأمره، كما ورد في زيارة الإمام الحسين عليه السلام: «السلام على مظهري أمر الله ونهيه»[٣]؛ جاز إطلاق العلة الفاعلية عليهم مجازاً. فمشيئتهم عليهم السلام من مشيئته، وإرادتهم من إرادته، وإذا شاؤوا شاء الله، وإذا أرادوا أراد الله، كما قال الإمام الهادي عليه السلام: «إن الله جعل قلوب الأئمة مورداً لإرادته، فإذا شاء الله شاؤوا، وهو قول الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً﴾[٤]»[٥].

---

(١) سورة الشورى ـ الآية: (٩).

(٢) يقول الشيخ محمد بن أبي خمسين قدس سره: (وبالجملة: حيث أنهم عليهم السلام محل لفعله سبحانه ـ كما عرفت من التقدير المتقدم ـ؛ يسند إليهم ـ صلوات الله عليهم ـ الفاعلية ويصح إطلاقها عليهم مجازاً، كما يصح إطلاقها على الملائكة كذلك، بل عليهم بطريق أولى؛ لورود الفيض عليهم أولاً وبالذات، وإلى غيرهم بهم ثانياً وبالعرض؛ لأن الغير إنما يصح إطلاقها عليه؛ لوجود بعض أسرارهم فيه مثل الملائكة لما كانوا مظهراً لهم ـ سلام الله عليهم ـ صح إطلاقها عليهم مجازاً، ومثل عيسى بن مريم لما كان حاكياً لهم صلح إسناد ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوتَى بِإِذْنِي﴾[سورة المائدة: (١١٠)]..
وإلا الفاعل الحقيقي هو الله سبحانه وتعالى، قال الإمام عليه السلام: «الحمد لله الذي لم يشهد أحداً حين فطر السموات والأرض، ولا اتخذ معيناً حين برأ النسمات» [مصباح الكفعمي: ص١١٣] هو الذي اخترع الخلق لا من شيء كان وحده لا شريك له ولا وزير ولا نصير). [نجاة الهالكين ـ الشيخ محمد بن أبي خمسين: ص٣١١ـ٣١٢].

(٣) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج٤ أبواب الزيارات ب/ فضل الزيارات وثوابها ٥٧٩ ح٢.

(٤) سورة الإنسان ـ الآية: (٣٠).

(٥) بصائر الدرجات ـ الصفار: ب١٨ / النوادر في الأئمة عليهم السلام وأعاجيبهم ص٥٣٧ ح٤٧.

ومن الروايات الدالة على تصرفهم في مجال الكون ـ في الحدوث والإيجاد، والإبقاء والإنماء، وفي الجزاء وتطهير النفوس، وغيرها ـ:

قال أمير المؤمنين عليه السلام ـ في حديث طويل ـ:

«أنا أحيي وأميت بإذن ربّي، أنا أنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم بإذن ربّي، وأنا عالم بضمائر قلوبكم، والأئمّة من أولادي يعلمون ويفعلون هذا إذا أحبّوا وأرادوا لأنّا كلنّا واحد، أولنّا محمد وآخرنا محمد وأوسطنا محمد وكلنّا محمد. فلا تفرقوا بيننا، ونحن إذا شئنا شاء الله، وإذا كرهنا كره الله، الويل لمن أنكر فضلنا وخصوصيتنا وما أعطانا الله ربنّا؛ لأن من أنكر شيئاً مما أعطانا الله أنكر قدرة الله عزّ وجلّ ومشيّته فينا»[١].

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، أنه قال: «أنّ الدنيا تمثل للإمام في مثل فلقة الجوز، فلا يعزب عنه منها شيء، وأنّه ليتناولها من أطرافها كما يتناول أحدكم من فوق مائدته ما يشاء فلا يعزب عنه منها شيء»[٢].

وقال أبو عبد الله الصادق عليه السلام ـ في ذكر آل محمد ـ: «بنا أثمرت الأشجار وأينعت الثمار وجرت الأنهار، وبنا نزل غيث السماء ونبت عشب الأرض، بعبادتنا عبد الله، ولولا نحن ما عبد الله»[٣].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله لأمير المؤمنين عليه السلام: «الأئمة من ولدك تسقى بهم أمتي الغيث وبهم يستجاب دعاؤهم، وبهم يصرف الله عنهم البلاء، وبهم

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٢٦ ب١٣/نادر في معرفتهم صلوات الله عليهم بالنورانية ص٦ ح١.
(٢) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٢٥ ب١٣/ غرائب أفعالهم وأحوالهم عليهم السلام ص٣٦٨ ح١١.
(٣) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج١ ب/ عصمة الأئمة عليهم السلام ص١٤٤ ح٥.

تنزل الرحمة من السماء. وأومأ إلى الحسن فقال: هذا أولهم، وأومأ إلى الحسين وقال: الأئمة من ولده»[١].

وقال الإمام الرضا عليه السلام ـ في حديثه مع الجاثليق ـ: «لقد اجتمعت قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فسألوه: أن يحيي لهم موتاهم، فوجه معهم علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال له: اذهب إلى الجبانة فناد بأسماء هؤلاء الرهط الذين يسألون عنهم بأعلى صوتك يا فلان ويا فلان ويا فلان يقول لكم محمد رسول الله صلى الله عليه وآله قوموا بإذن الله، فقاموا ينفضون التراب عن رؤوسهم، ولقد أبرأ الأكمه والأبرص والمجانين، وكلمه البهائم والطير والجن والشياطين، ولم نتخذه رباً من دون الله عز وجل»[٢].

وعن أبي بصير، قال: دخلت على أبي عبد الله وأبي جعفر عليهما السلام، وقلت لهما: أنتما ورثة رسول الله؟

قال عليه السلام: «نعم.

قلت: فرسول الله وارث الأنبياء علم كلما علموا؟

فقال لي: نعم.

فقلت: أنتم تقدرون على أن تحيوا الموتى وتبرؤا الأكمه والأبرص؟

فقال لي: نعم بإذن الله.

ثم قال: ادن مني يا أبا محمد، فمسح يده على عيني ووجهي وأبصرت الشمس والسماء والأرض والبيوت وكل شيء في الدار.

---

(١) الآمالي ـ الشيخ الصدوق: م٦٣/ فضائل الأئمة عليهم السلام ص٤٨٥ ح١/٦٥٩.

(٢) التوحيد ـ الشيخ الصدوق: ب٦٥/ ذكر مجلس الرضا عليه السلام مع أهل الأديان... ص٤٢٣ ح١.

قال: أتحب أن تكون هكذا ولك ما للناس وعليك ما عليهم يوم القيامة، أو تعود كما كنت ولك الجنة خالصاً.

قلت: أعود كما كنت.

قال: فمسح على عيني فعدت كما كنت.

قال علي: فحدثت به ابن أبي عمير، فقال: اشهد أنّ هذا حق كما أن النهار»[١].

وأمّا في قدرتهم على تطهير النفوس وهدايتها، وعلمهم بما في الضمائر، فقد ورد في الزيارة الجامعة: «جعل صلواتنا عليكم وما خصنا به من ولايتكم طيباً لخلقنا وطهارة لأنفسنا»[٢]، وقال الإمام الصادق عليه السلام: «إذا قام قائمنا وضع يده على رؤوس العباد فجمع بها عقولهم وكملت به أحلامهم»[٣].

وأما لغيرهم عليهم السلام فإن هيمنتها وسلطنتها على المتعلّق في الوجود، تختلف حدودها وسعتها بحسب اختلاف المحل، واستعداد القابل لها، وبحسب مرتبة البعد والقرب ـ المعنوي ـ منه عزّ وجلّ؛ فهي ليست ولاية عامة كولايتهم عليهم السلام، ومنها:

قول الله عزّ وجلّ في نبيه داود عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾[٤].

---

(١) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج١ ب/ مولد أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام ص٤٧٠ ح٣.

(٢) من لا يحضره الفقيه ـ الشيخ الصدوق: ج٢ نوادر الحج/ الزيارة الجامعة ص٦١٣ ح٣٢١٣.

(٣) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٥٢ ب٢٧/ سيرة وأخلاقه وعدد أصحابه... صلوات الله عليه ص٣٢٨ ح٤٧.

(٤) سورة سبأ ـ الآية: (١٠).

وقوله ﷻ في عفريت من الجن أعطاه من القدرة التكوينية الخارقة: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾[١].

وقوله ﷻ حكاية عن ذي القرنين: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾[٢].

٢ـ ولاية تشريعية

وهي القدرة على التصرف في مجال تشريع الأحكام والنّظم الشرعية؛ سواء كان ذلك وضعاً أو رفعاً، أو تغييراً أو تبديلاً.

وهي مختصة بالله ﷻ أولاً وبالذات كالولاية التكوينية، فقد قال الله ﷻ: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ﴾[٣]، وقال ﷻ: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[٤]، والمظهر لها هم عليهم السلام، كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[٥]، وروي عن سيف بن عميرة، عن أبي حمزة الثمالي قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام، يقول: «من أحللنا له شيئاً أصابه من أعمال الظالمين فهو له حلال لأن الأئمة منا مفوض إليهم، فما أحلوا فهو حلال وما حرموا فهو حرام»[٦].

---

(١) سورة النمل ـ الآية: (٣٩).

(٢) سورة الكهف ـ الآية: (٨٤).

(٣) سورة يوسف ـ الآية: (٤٠).

(٤) سورة الزمر ـ الآية: (٣).

(٥) سورة الحشر ـ الآية: (٧).

(٦) بصائر الدرجات ـ الصفار: ج٧ ب٥/ في أن ما فوض إلى الرسول صلى الله عليه وآله فقد فوض إلى الأئمة عليهم السلام ص٤٠٤ ح٣.

وعن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «لا والله ما فوض الله عز وجل إلى أحد من خلقه إلا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وإلى الأئمة عليهم السلام، فقال في كتابه: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾[١]، وهي جارية في الأوصياء»[٢].

وعن عاصم، عن النحوي قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إن الله أدب نبيه على محبته، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٣]، ثم فوض إليه، فقال: ﴿مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾[٤]، وقال: ﴿مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[٥]، ثم قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله فوض إلى علي بن أبي طالب عليه السلام وأئمته»[٦].

وعن الإمام الصادق عليه السلام ـ أيضاً ـ: «إذا رأيتم القائم قد أعطى رجلاً مائة ألف درهم وأعطاك درهماً فلا يكبرن ذلك في صدرك فإن الأمر مفوض إليه»[٧].

وورد في دعاء الندبة: «أين المدخر لتجديد الفرائض والسنن، أين المتخير لإعادة الملة والشريعة، أين المؤمل لإحياء الكتاب وحدوده»[٨].

---

(١) سورة النساء ـ الآية: (١٠٥).

(٢) بصائر الدرجات ـ الصفار: ج٧ ب٥/ في أن ما فوض للرسول صلى الله عليه وآله فقد فوض إلى للأئمة عليهم السلام ص٤٠٦ ح١٢.

(٣) سورة القلم ـ الآية: (٤).

(٤) سورة الحشر ـ الآية: (٧).

(٥) سورة النساء ـ الآية: (٨٠).

(٦) بصائر الدرجات ـ الصفار: ج٧ ب٥/ في ما فوض إلى الرسول صلى الله عليه وآله فقد فوض للأئمة عليهم السلام ح٧ ص٤٠٥.

(٧) الاختصاص ـ الشيخ المفيد: في خلق آدم عليه السلام... ص٣٣٢.

(٨) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٩٩ ب٧/ زيارة الإمام المستتر عن الأبصار...ص٨٦ ح٢.

إذا وعيت ذلك فنقول:

إنّ حاجة المخلوقات إلى المدد أو الفيض الإلهي منه ﷻ أمرٌ لا يختلف عليه اثنان[١]؛ ولكن لتنزهه وغناه ﷻ عن الاتصال بعالم الممكنات الدانّي عن علوه ورفعته، ولخلوه من كل شيء فيه، كما قال أبو عبد الله عليه السلام: «إن الله خلو من خلقه وخلقه خلو منه، وكل ما وقع عليه شيء ما خلا الله فهو مخلوق والله خالق كل شيء، تبارك الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير»[٢]، جعلهم الوسائط في الفيض الإلهي؛ لكونهم أشرف مخلوقاته.

---

(١) قال الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (الصراط هو الطريق وهم عليهم السلام صراط الله؛ أي طريق الله إلى خلقه في الخلق والرزق والحياة والممات، وهم طريق الخلق إلى الله في جميع مطالبهم في ذرات الأمور الأربعة المذكورة، التي هي أركان ما في الإمكان. فجميع الخلائق يسعون إلى الله تعالى، أي إلى ما منه بدؤوا في مطالبهم بأعمالهم وأقوالهم وأحوالهم ووجوداتهم وقوابلهم وجميع استعداداتهم، فالجعل الذي ذرأ فيه جميع الخلائق بما هم عليه، لما هم له عنهم عليهم السلام صدر، وبهم ظهر، وفيهم بطن واستتر، فالخلائق قائمون بظلهم الذي مده الله سبحانه وجعل الدليل عليه شمس حقيقتهم، فبهم خلق سبحانه وتعالى ما خلق، ورزق ما قدر، وأحيى وأمات...

فبحكم مقتضى الحكمة جعل محمداً وأهل بيته المعصومين خزائن تلك الأسباب بحقيقة ما هم أهله، فوجب في الحكمة الربانية المشار إليها أن يكونوا ـ صلى الله عليهم ـ خزائن محبته، ونواب إفاضته، وبواب فيضه ومدده وحفظة آلائه ونعمه، وحملة آثار وجوده وكرمه، إلى ما شاء من جميع خلقه، وأن لا يكون له سبحانه طريق ولا باب تفيض منه عطاياه وإمداداته غيرهم. فهم صراطه في علمه بخلقه وقدرته عليهم وسمعه لكلامهم ورؤيته لهم على ما هم عليه، وإمداده وقيوميته إياهم وجميع ما بهم منه؛ من خلقٍ ورزقٍ وموتٍ وحياةٍ، وهذا في الحقيقة معنى كونهم تراجمة؛ لأنهم يترجمون الوحي بما تفهم الخلائق المراد من التكليف بذلك الوحي. ومعنى هذه الترجمة الوساطة بين الحق سبحانه وبين الخلق... هم صراط الله الذي لا يصل شيء من الله إلى شيء من خلقه إلا بواسطتهم، ولا يصل أحد ولا عمل إلى الله تعالى إلا بواسطتهم، فهم طريق كل ما ينزل وكل ما يصعد). شرح الزيارة الجامعة الكبيرة ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج١ ص٢٨٥ ـ ٢٨٧.

(٢) الكافي ـ الكليني: ج١ ك/ التوحيد ب/ إطلاق القول بأنه شيء ص٨٣ ح٤.

وهذا الجعل ليس بسبب ضعف الفاعل ـ جل ربي وعلا ـ، فهو القادر على كل شيء، كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «لو أراد الله أن يعرف نفسه خلقه بدوننا لفعل، ولكنه جعلنا أبوابه وسبله»[١]؛ لكنه عز وجل جعل العالم عالم الأسباب يجري الأشياء بأسبابها فيه، كما يقول الإمام الصادق عليه السلام: «أبى الله أن يجري الأشياء إلا بأسباب، فجعل لكل شيء سبباً وجعل لكل سببٍ شرحاً وجعل لكل شرحٍ علماً، وجعل لكل علمٍ باباً ناطقاً، عرفه من عرفه، وجهله من جهله، ذاك رسول الله صلى الله عليه وآله ونحن»[٢].

فَلِنَقْصنا وفَقْرِنا واحتياجنا إليه في كل آن، اقتضت الحكمة منه عز وجل إيجاد وسائط ليكونوا تراجمةً لوحيه، وأبواباً لفيوضاته، وهذا من فضلهِ وكرمهِ ومننهِ التي منّ بها علينا؛ إذ لولاهم عليهم السلام لما عُرِف الله عز وجل وعُبد.

ومن هذه الوسائط طيّبَ اللهُ خَلقَنا بما منّ علينا من ولايتهم ـ حينما استنطقَنا ألستُ بربكم؟ فعلمونا أن نقول: بلى ـ، كما ورد في زيارة أئمة البقيع عليهم السلام:

«أنتم الذين منّ علينا بكم ديان الدين، فجعلكم في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، وجعل صلواتنا عليكم رحمة لنا وكفارة لذنوبنا، إذا اختاركم لنا، وطيب خلقنا بما منّ به علينا من ولايتكم وكنا عنده مسلمين بفضلكم، ومعروفين بتصديقنا إياكم»[٣].

---

(١) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج١ ك/ الحجة ب/ معرفة الإمام والرد إليه ص١٨٤ ح٩.

(٢) الكافي ـ الشيخ الكليني: ج١ ك/ الحجة ب/ معرفة الإمام والرد إليه ص١٨٣ ح٧.

(٣) الحدائق الناظرة ـ المحقق البحراني: ج١٧ ف١٩/ في ذكر زيارة أئمة البقيع عليهم السلام ص٤٣١.

وهي النعمة التي سَنُسأَلُ عنها، وعليها سيكون ثوابنا وعقابنا، كما جاء في حديث الإمام الصادق عليه السلام ـ في تفسير قولى تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[١]ـ، أنه قال: «نحن أهل البيت، النعيم الذي أنعم الله بنا على العباد، وبنا ائتلفوا بعد أن كانوا مختلفين، وبنا ألّف الله بين قلوبهم، وجعلهم إخواناً بعد أن كانوا أعداءً، وبنا هداهم الله للإسلام، وهي النعمة التي لا تنقطع، والله سائلهم عن حقّ النعيم الذي أنعم به عليهم، وهو النبي صلى الله عليه وآله، وعترته عليهم السلام»[٢]، ولو انقطع عنا مددهم لحظة لساخت الأرض بمن فيها، فعن محمد بن الفضيل، عن أبي حمزة، قال: قلت: لأبي عبد الله عليه السلام: تبقى الأرض بغير إمام؟ قال عليه السلام: «لو بقيت الأرض بغير إمام ساعة لساخت»[٣].

ومنح تلك الوسائط هذا المقام إنما هو بسبب كونهم أول المخلوقات سبقاً في عالم الإمكان، قال النبي محمد صلى الله عليه وآله: «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين»[٤].

ولهم من القابلية والاستعداد في تلقي وتوزيع الفيوضات الربانية، وإظهار الكمالات الإلهية، ما ليس لغيرهم من الموجودات ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾[٥]؛ لأن الله كملهم، وجعلهم مثله الأعلى، ووعاء مشيئته،

---

(١) سورة التكاثر ـ الآية: (٨).

(٢) بحار الأنوار ـ العلامة لمجلسي: ج٧ ب١١/ محاسبة العباد وحكمه تعالى... ص٢٥٣.

(٣) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٢٣ ب١/ الاضطرار إلى الحجة وأن الأرض لا تخلو من حجة ص٢١ ح١٧.

(٤) عوالي اللئالي ـ ابن أبي جمهور الأحسائي: ج٤ ص١٢١ ح٢٠٠.

(٥) سورة الإسراء ـ الآية: (٧٠).

أي: محال أفعاله، ومهبط فيوضاته، وتراجمة وحيه، وأسماؤه الحسنى التي أمر أن يُدعى بها.

فإذا كان الله ﷻ قد منحهم هذا المقام، وأعطاهم الولاية العامة المطلقة، والإذن بالتصرف في مجال التكوين والتشريع؛ فما لنا إلا الإقرار والتسليم والإذعان لمقاماتهم النورانية؛ لأنها شرط الإيمان، وأفضل الأعمال، وأحبها وأقربها إلى الله ﷻ، كما قال رسول الله ﷺ:

«يا عباس يا عم رسول الله إن حسن تسليمك لما وهب الله ﷻ لعلي من الفضيلة أحسن من هذه الشمس في هذه السماء، وعظم بركة هذا التسليم عليك أكثر من عظيم بركة هذا الشمس على النبات والحبوب والثمار حيث تنضّجها وتنمّيها وتربيّها، فاعلم أنه قد صافاك بتسليمك لعلي فضيلته من الملائكة المقربين أكثر من عدد قطر المطر وورق الشجر ورمل عالج وعدد شعور الحيوانات وأصناف النبات وعدد خطى ابن آدم وأنفاسهم وألفاظهم وألحاظهم، كل يقولون: اللهم صل على العباس عم نبيك في تسليمه لنبيك فضل أخيه علي، فاحمد الله واشكره فلقد عظم ربحك»[1].

وليس في هذا الإقرار والتسليم والإذعان من الغلو شيء؛ إذ أن الغلو: (هو التجاوز عن الحدّ، والخروج عن القصد، والإفراط في حقّ الأنبياء والأئمّة عليهم السلام)[2].

---

(١) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٣٩ ب٧٢/ معنى قوله تعالى﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا﴾ ص٢٦ ح٩.

(٢) تصحيح اعتقادات الإمامية ـ الشيخ المفيد: ص١٠٩.

فمن قال: بأنهم يخلقون ويرزقون ويحيون من دون الله ﷻ ـ أي لهم استقلالية على حد تصرف الله ﷻ بعد تفويضهم ـ، أو بالشركة معه؛ فقد كفر، وصدق في حقه الغلو.

وأمّا من قال: بأن الله ﷻ قد فوض لهم قدرة الرزق والإحياء، وغيرها من التصرفات التكوينية والتشريعية، وبمدده تعالى، وهم بأمره يعملون لا بشيءٍ من إرادتهم ولا ميل أنفسهم؛ فأين هو الغلو في ذلك[1]؟

وكيف يكون هذا غلو ولا يكون تفويض الله ﷻ لمن هم أنزل منهم في سلسلة الخلق كالملائكة والأنبياء غلواً؟

فقد فوض أمر الخلق لجبرائيل، وأمر قبض الأرواح لعزرائيل، وأمر الرزق لميكائيل، وأمر الحياة لإسرافيل؛ في حين أنّ الخالق العَالِم هو الله ﷻ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾[2]، والرازق هو الله ﷻ ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو

---

(١) قال الشيخ أحمد الأحسائي في هذه الحقيقة النورانية: (وإياك أن تنسب إليهم عليهم السلام أو إلى أحدٍ من الخلق من ملك أو نبي أو غيرهما شيئاً من أفعاله تعالى، بعد ما بيّن لك سبحانه، فقال تعالى: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ [سورة فاطر: (٤٠)]. وقال: ﴿قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [سورة الرعد: (١٦)]. كما أنك لا تقول أن الأرض والماء هما اللذان يزرعان الزرع، وإنما المعنى أنه سبحانه ما أمرك بأمرٍ ولا نهاك عن شيء من جميع ما كلفك به إلا على لسان محمد ﷺ وقد أخبروك وأنت تعلم أنه سبحانه هو الآمر وهو الناهي وحده لا شريك له في شيء من ذلك، وإن كانوا هم الحاملين لأمره ونهيه والمبلغين عنه ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [سورة الأنبياء (٢٧)]. فكذلك في جميع ما تسمع مما ننسبه إليهم من أفعاله هو الفاعل على أيدي من يشاء من خلقه، من الأنبياء والملائكة والحيوانات والنباتات والطبائع والعناصر، فمن شاء من خلقه جعلهم تراجمةً لفعله لمن شاء من خلقه، وذلك حكمه وقضاؤه في صنعه وفي وحيه وأمره ونهيه على حدٍ سواء، فافهم، ولا تتوهم غير هذا فتكون من الكافرين). [شرح الزيارة الجامعة ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٣ ص١٤٦].

(٢) سورة الحجر ـ الآية: (٨٦).

الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾[١]، والمحيي والمميت هو الله ﷻ ﴿وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾[٢]، والذي ينزل الغيث هو الله ﷻ ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ ﴾[٣]، والذي أجرى ما شاء من التصرفات على أيدي أنبيائه عليهم السلام هو الله ﷻ.

فإذا كان الله ﷻ قد فوض للملائكة والأنبياء التصرف في مجال التكوين؛ فما هو المانع من تفويض ذلك لمن هم أفضل منهم، ولمن لهم مع الله ﷻ حالات لا يسعها أي مخلوق؟!

ثالثاً: آل محمد عليهم السلام العلل الأربع للموجودات

إذا فهمت جميع ما تم تحقيقه سابقاً ـ ووعيت معنى كلامنا ببصيرة قلبك لا بنور بصرك ـ، والذي كان مجملة هو:

أنه لما كان الاتصال بين الله ﷻ وبين خلقه محال، ولبطلان الطفرة عند جميع العقلاء؛ جعل الواسطة العظمى بينه وبين خلقه متمثلة في النبي الأعظم محمد وآله ـ صلوات الله عليهِ وعليهم ـ.

فهم مجلى تجلياته الخلقية، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «فألقى في هويتها مثاله فأظهر عنها أفعاله»[٤]، ومظهري ظهوراته الفعلية لا الذاتية؛ لأن الله ﷻ لا يتجلى بذاته، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «تجلى لها بها وبها امتنع عنها

---

(١) سورة الذاريات ـ الآية: (٥٨).

(٢) سورة آل عمران ـ الآية: (١٥٦).

(٣) سورة الشورى ـ الآية: (٢٨).

(٤) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٤٠ ب٩٣/ علمه ع وأن النبي علمه ألف باب وأنه محدثا ص١٦٥ ح٥٤.

وإليها حاكمها»[١]، وهم أبواب فيضه ومدده، وحملة آثار وجوده وكرمه، والصراط الذي لا يصل شيء من الحق إلى شي من الخلق إلا بواسطتهم، وأن لهم الولاية المطلقة العامة ـ التكوينية والتشريعية ـ لما دون الخالق، ولولاهم لما خُلِقت الموجودات، وإنما خلقوا لأجلهم ولهم، وكان بهم وجودهم.

فاعلم ـ كما قلنا مِراراً ـ بأن الله ﷻ ليس علة للموجودات، ولا يفعل شيئاً بذاته؛ لتنزهه عن مباشرة مخلوقاته، وإنما يفعل ما شاء بفعله وبمفعوله[٢]. ولكونهم عليهم السلام محال أفعاله؛ فهم العلة الفاعلية لعالم الإمكان[٣].

---

(١) نهج البلاغة ـ الشريف الرضي: ج٢ من خطبة له في تنزيه الله ص١١٥ خطبة رقم (١٨٥).

(٢) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): ((فالغاية عندنا أمر الله، وهو يطلق على شيئين: أحدهما: فعل الله تعالى؛ أعني مشيئته وإرادته وإبداعه، والأشياء تنتهي إليه في العلة الفاعلية، فهي قائمة به قيام صدور، ونسميه أمر الله الفعلي. وثانيهما: نور الأنوار؛ أعني الحقيقة المحمدية ﷺ، والأشياء تنتهي إليه في العلة المادية؛ لأن جميع مواد الأشياء من شعاع ذلك النور، الأنبياء عليهم السلام من شعاعه، والمؤمنون من شعاع شعاعه، وهكذا إلى التراب الطيب، والماء العذب. والكافرون من عكس شعاعه، وشيعتهم من عكس ظلمتهم، وهكذا إلى الأرض السبخة، والماء الإجاج. وفي العلة الصورية؛ لأن صور جميع الأشياء من هيئات هياكله لكل المؤمنين إلى الأرض العذبة، والماء العذب، وللكافرين من خلاف تلك الهيئات إلى الأرض السبخة، والماء الأجاج، فالأشياء كلها قائمة به قياماً ركنياً قيام تحقق. وفي العلة الغائية؛ لأن ذلك النور لأجله خلق تعالى ما خلق، قال تعالى: (لولاك لما خلقت الأفلاك). [بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج١٦ ب١٢ ص٤٠٦]. والعلة الفاعلية لا تتحقق إلا بذلك النور، فيصاغ منهما المثال الفاعل، مثل قائم المصاغ من الفعل ومن أثره، أعني القيام، فكانت علل الأشياء كلها هذه العلل الأربع، وكلها في الحقيقة المحمدية ﷺ، ونسميه أمر الله المفعولي). [شرح العرشية ـ الشيخ الأوحد: ج١ ص٤٦٤].

(٣) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (العلل الفاعلية: لكونهم محال مشيئته وألسنة إرادته وأيدي إيجاده وإبداعه. والعلل المادية: لكون مواد الأشياء من فاضل أنوارهم وأشعة وجوداتهم. والعلل الصورية: لكون صور الأشياء من فاضل هيئات ذواتهم وحركاتهم وإقبالاتهم وإدباراتهم للمؤمن على نحو التوالي والموافقة. وللكافر على نحو خلاف التوالي وعلى المخالفة. والعلل الغائية: لكون الأشياء ألسنة الثناء عليهم، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ﴾ ـ سورة النحل ـ الآية (٨٠)). [شرح الزيارة الجامعة ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٣ ص٢٩٦].

فالفاعل الحقيقي هو الله ﷻ، وما إطلاق العلة الفاعلية عليهم عليهم السلام إلا من باب المجاز ـ للعلاقة بين الحال والمحل ـ؛ لأنهم محلّ تجلي الصفات الفعلية.

وبما أن جميع الأشياء خُلِقت من أثر فعله ﷻ، أي: من نور مشيئته، أي: من شعاعهم عليهم السلام؛ فهم العلة المادية لجميع الموجودات، وليس الله ﷻ، كما قال عليه السلام في ـ الخطبة اليتيمية ـ: «علة ما صنع صنعه وهو لا علة له»[1].

فإطلاق العلة المادية عليهم عليهم السلام؛ ما هو إلا لكون جميع الأشياء خلقت من شعاعهم عليهم السلام.

وبما أن جميع الموجودات خُلِقت لأجلهم، ومرجعها إليهم، وحسابها عليهم، كما دلت الروايات المستفيضة عنهم بذلك، منها:

قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لما خلق الله تعالى نور نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، بقي ألف عام بين يدي الله ﷻ واقفاً يسبحه ويحمده، والحق تبارك وتعالى ينظر إليه ويقول: يا عبدي أنت المراد والمريد، وأنت خيرتي من خلقي، وعزتي وجلالي لولاك ما خلقت الأفلاك»[2].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ثم خلق الخلايق من نورنا فنحن صنايع الله، والخلق من بعد صنايع لنا، أي مصنوعين لأجلنا»[3].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «نحن صنائع الله، والخلق بعد صنائع لنا»[4].

---

(١) كشكول الشيخ الأحسائي: ج٢ ص٣٦٠.

(٢) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٥٤ ب١/ حدوث العالم وبدء خلقه... ص١٩٨ ح١٤٥.

(٣) مشارق أنوار اليقين ـ البرسي: ص٥٧.

(٤) بحار الأنوار ـ العلامة المجلسي: ج٣٣ ص٥٨ ح٨.

وورد في الزيارة الجامعة: «وإياب الخلق إليكم، وحسابهم عليكم، وفصل الخطاب عندكم»[١].

فإطلاق العلة الغائية عليهم عليهم السلام؛ ما هو إلا بهذا المعنى المستفاد من رواياتهم، وهو أن جميع الموجودات خلقت لأجلهم، وحسابها وإيابها يكون عليهم وبهم[٢].

وبما أنهم عليهم السلام أول تعلقات وتعينات الفعل الحادث، أي: صورته، وأنّ صور جميع المخلوقات قد تم خلقها على مقتضى إجابتهم في عالم الذر.

فمن أجاب بالإقرار والتصديق والإذعان بهم وبولايتهم صبغه الله عزّ وجلّ بالرحمة، فَخُلِق باطنه بصورة حسنة طيبة طاهرة، وهؤلاء هم الذين لم تخن

---

(١) من لا يحضره الفقيه ـ الشيخ الصدوق: ج٢ ك/الحج الزيارة الجامعة ص٦١٢ ح٣٢١٣.

(٢) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (أن المراد من قوله عليه السلام: (وإياب الخلق إليكم وحسابهم عليكم). الإياب إليهم؛ يعني: إلى كلٍّ واحد، وكذلك الحساب؛ لا إن المراد أن الخلق يؤبون إلى بعض، أو بعض الخلق إلى بعض، وبعض إلى بعضٍ آخر، ولا أن حساب الخلق على بعض منهم، أو بعض الخلق إلى بعض، وبعض إلى بعضٍ آخر. وإن آب البعض أو الكل إلى بعض منهم، أو حاسب البعض أو الكل بعض منهم ـ لما قلنا من في ترجيح بعض الصفات ـ، باعتبار المتعلق؛ لأن الواحد منهم عين الكل، والبعض نفس البعض الآخر، وكل واحد منهم عليهم السلام علّة تامّة لجميع الخلق، إذ لا كثرة فيهم أصلاً؛ لأنهم نور واحد. فلو قال: كلٌّ واحدٍ منهم إياب الخلق إليّ وحسابهم عليَّ لكان قوله صدقاً؛ بل حقاً. ثم إذا قلنا لك: إن إياب الخلق إليهم؛ نريد به أن كلَّ فردٍ من جميع من سواهم من جماد ونبات وحيوان متوجه في سيره إليهم؛ لأنهم باب الله سبحانه، وذلك كالأشعة من السراج، فإن كل جزء متوجه إلى الشعلة المضيئة التي هي وجه النار الغائبة، التي لا تدرك، وليس لها تحقق ولا وجود إلا بذلك التوجه؛ لأن الشعلة التي هي وجه النار الغائبة تمد الأشعة بما به بقاؤها؛ فكذلك سائر الخلق، فإنهم عليهم السلام يمدونهم بما به بقاؤهم؛ لأنهم عليهم السلام وجه الله الغائب عن إدراك الأبصار. وكذلك إذا قلنا: إن عليهم حسابهم؛ نريد أن كلَّ فردٍ من الخلق من جماد ونبات وحيوان حسابه عليهم؛ لأنه تنقلاته في الإياب إليهم، حتى أنك لتحاسب نفسك عن شيء ما أو يحاسُبك مثلك، كذلك ولو كشفت لك رأيت الذي يحاسُبك الوليّ بإذن الله الخاصّة). [شرح الزيارة الجامعة ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٢ ص١٨٩ـ١٩٠].

أمهم (الصورة) أباهم (المادة)، كما قال الإمام الصادق عليه السلام: «من رأى برد حبنا على قلبه؛ فليكثر من الدعاء لأمه، فإنها لم تخن أباه»[١].

أمّا من أنكر وعاند، أي: خانت أمه أباه، فقد خلق الله عزّ وجلّ باطنه بصورة خبيثة قبيحة.

فصور الموجودات من حسن وقبح قد جرت بمقتضى قبول ولايتهم وإنكارها في عالم الذر؛ وما إطلاق العلة الصورية عليهم عليهم السلام إلا من هذا الباب.

ونستخلص مما سبق:

أن الله عزّ وجلّ لما أحب أن يُعرَف خلق الخلق لكي يعرف، وبما أنه منزه عن مباشرتهم والاتصال بهم، ولا سبيل بينه وبينهم بوجهٍ من الوجوه، ولحاجتهم إلى المدد منه في كل آن، فوض أمره بمدده إلى أشرف المخلوقات وأكمل الموجودات، وهم محمد وآله عليهم السلام، فمنحهم ولايته العامة المطلقة من الدرة إلى الذرة.

وأن هذا التفويض لا يستلزم الغلو؛ إذ أن الغلو هو مجاوزة الحد، والإقرار والإذعان لهم بهذا المقام ليس فيه من ذلك شيء، لأنهم عليهم السلام ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[٢]؛ فلا يفعلون شيئاً إلا بمدده وأمره وإرادته، لا بالاستقلال عن ذلك ولو آن ما.

---

(١) معاني الأخبار ـ الشيخ الصدوق: ب/معنى أول النعم وبادئها ص١٦٠ ح٤.

(٢) سورة الأنبياء ـ الآية: (٢٧).

وأن من كمال الإيمان التسليم لأمر الله ﷻ، والإقرار والإذعان لمقاماتهم النورانية، ولكل ما منحهم إياه من ولاية تكوينية أو تشريعية على الموجودات، ومن نقص الإيمان التقصير في ذلك كله[١]، أو إنكاره بعد المعرفة[٢].

وفي نهاية الكلام أقول:

لقد كررت العبارة في المقام، وبسطتها على قدر ما يقتضيه الكلام، ويستطيب به لب الإفهام، مستعيناً بما وجدته في كتبهم ـ أعلى الله مقامهم ـ من بيان لأسرار أحاديثهم عليهم السلام؛ ولعمري لهي السبيل إلى الكمال لمن طلبه في هذا الزمان.

---

(١) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (وما أشبه ذلك كسائر شيعتهم مما سواهم من دون الدرة إلى الذرة، فإن تقدم عليهم فهو زاهق وأن تقدم بهم فهو مارق؛ فالمفرط فيهم حتى يتجاوز بهم إلى مقام الأزل بأن لا يجعل لهم رباً يؤبون إليه زاهق هالك، وهو قوله عليه السلام: «هلك فيَّ اثنان محب غالٍ ومبغض قالٍ» وهو المقصر في حقهم بأن يعدل بهم غيرهم من سائر الخلق أو يتقدم عليهم في قولٍ أو فعلٍ، وهو هالك وهو المقصر في حقهم فإن حقهم على جميع الخلق، أن يرفعوا مقامهم عن جميع الخلائق، ويضعوا مقامهم عن مقام الخالق ـ جلا وعلا ـ؛ فمن أزالهم عن مقامهم الذي أقامهم الله فيه بوضع أو رفع فهو هالك...

لأن الله خلق الخلق لهم فكيف يعدل بهم غيرهم من الخلق الذين إنما خلقوا كرامة لهم، وهذا هو المقصر في حقهم، وهو زاهق؛ أي: هالك ودينه بذلك باطل زاهق؛ أي: زائل وباطل). [شرح الزيارة الجامعة ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٢ ص١٥١ـ١٥٢].

(٢) يقول الشيخ الأوحد (أعلى الله مقامه): (إن الإنكار لا يكون ولا يتحقق إلا بعد المعرفة كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾. [سورة المؤمنون ـ الآية: (٦٩)]، فمن لم يحتمل أو لم يقبل لا عن معرفة بل عن قصور لا يكون منكراً كما كان ذلك في حق آدم عليه السلام قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾. [سورة طه ـ الآية: (١١٥)]. [شرح الزيارة الجامعة ـ الشيخ أحمد الأحسائي: ج٣ ص٤٦].

وأنصحك ـ عزيزي القارئ ـ بتأمل جميع ما حققناه، واحذر، ثم احذر الشك في مقاماتهم التي منحهم الله ﷻ إياها.

وإذا لم يتسع وعاء قلبك ذلك، فتردد على تلك القرى الظاهرة ليلاً نهاراً، واجتهد بطرق أبواب أحاديثهم، وتعلم علومهم والعمل بها؛ فعسى أن يمنّوا عليك ـ بعد مدة من الانقطاع في معارفهم ـ مِنْ فيضِ كَرَمِهِم، فتنقدح فطرتك، وتتلاشى كدورات هويتك.

وإذا لم يكن لك قابلية في ذلك؛ فَـرُدَّها إلى الله ﷻ، وإلى رسوله ﷺ، وإليهم عليهم السلام، وسَلِّمْ وأذْعَنْ بكل ما ورد عنهم في ذلك الشأن؛ فإنه طريق السلامة والنجاة.

هذا ما أردنا تسويده في كتاب (الحقائق النورانية في كمال العقيدة الإنسانية)

والحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

١ـ القرآن الكريم.

٢ـ أمالي الشيخ الصدوق ـ الشيخ أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي الشهير بـ(الصدوق): بيروت ـ مؤسسة الأعلمي، الطبعة الخامسة ١٤٠٠هـ.

٣ـ أمالي الشيخ الطوسي ـ الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي: بيروت ـ مؤسسة الوفاء، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ.

٤ـ أمالي الشيخ المفيد ـ الشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد النعمان العكبري البغدادي الشهير بـ(المفيد): بيروت ـ دار التيار الجديد.

٥ـ أعيان الشيعة ـ السيد محسن الأمين العاملي: بيروت ـ دار التعارف

٦ـ إقبال الأعمال ـ رضي الدين أبو القاسم علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن طاووس: بيروت ـ مؤسسة الأعلمي، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

٧ـ إجازات الشيخ أحمد الأحسائي ـ د. حسين محفوظ: بغداد ـ ١٣٧٦م.

٨ ـ الاختصاص ـ لشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد النعمان العكبري البغدادي الشهير بـ(المفيد): بيروت ـ مؤسسة الأعلمي ١٤٠٢هـ.

٩ـ الاحتجاج ـ أبو منصور أحمد علي بن أبي طالب الطبرسي: قم المقدسة ـ انتشارات أُسوة، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

١٠ــ الإرشاد ـ لشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد النعمان العكبري البغدادي الشهير بـ(المفيد): قم المقدسة ـ المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ

١١ـ الأثنا عشرية في الرد على الصوفية ـ الحر العاملي: قم المقدسة ـ دار الكتب العلمية.

١٢ـ الإيديولوجية المقارنة ـ الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي: دار المحجة البيضاء، الطبعة الأوى ١٩٩٢م.

١٣ـ بصائر الدرجات ـ أبو جعفر محمد بن الحسن بن فروخ الصفار: بيروت ـ مؤسسة النعمان، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ.

١٤ـ بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار ـ الشيخ محمد باقر المجلسي: بيروت ـ دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ.

١٥ـ بداية الحكمة ـ السيد محمد حسين الطباطبائي: بيروت ـ مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة السابعة والعشرون ١٤٣١هـ.

١٦ـ البارا بسيكولوجي ـ سامي أحمد الموصولي: العراق ـ دار دجلة، ٢٠١٤م.

١٧ـ توحيد الشيخ الصدوق ـ الشيخ أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي الشهير بـ(الصدوق): قم المقدسة ـ مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الرابعة ١٣٨٧هـ.

١٨ـ تحف العقول عن آل الرسول ـ أبو محمد بن علي بن الحسين بن شعبة الحرَّاني: بيروت ـ مؤسسة الأعلمي، الطبعة الخامسة ١٣٩٤هـ.

١٩ـ تصحيح اعتقادات الإمامية ـ لشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد النعمان العكبري البغدادي الشهير بـ(المفيد): بيروت ـ دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ.

٢٠ـ تاج العروس ـ محمد مرتضى الزبيدي: بيروت ـ مكتبة الحياة.

٢١ـ ثم صار المخ عقلاً ـ د. عمرو شريف: مصر ـ مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة ١٤٣٧هـ.

٢٢ـ جوامع الكلام ـ الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي: البصرة ـ مطبعة الغدير ١٤٣٠هـ.

٢٣ـ حياة النفس ـ الشيخ أحمد الأحسائي: بدون تاريخ.

٢٤ـ الحدائق الناظرة في أحكام العترة الطاهرة ـ الشيخ يوسف البحراني: قم المقدسة ـ مؤسسة النشر الإسلامي.

٢٥ـ دليل المتحيرين ـ السيد كاظم الرشتي: الكويت ـ منشورات مكتبة الإمام الصادق عليه السلام، الطبعة الثانية.

٢٦ـ الدين بين السائل والمجيب ـ الميرزا حسن الأحقاقي: الكويت ـ منشورات مكتبة الإمام الصادق عليه السلام ١٩٩٢م.

٢٧ـ رحلة عقل ـ د. عمرو شريف: مصر ـ مكتبة الشروق الدولية، الطبعة الرابعة ١٤٣٢هـ.

٢٨ـ رسائل الحكمة ـ الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي: بيروت ـ الدار العالمية، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

٢٩ـ رسالة عبد الله البيك ـ السيد كاظم الرشتي الحسيني: مكتبة العذراء، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ.

٣٠ـ رسالة شاه زاده ـ الشيخ محمد بن الشيخ أحمد الأحسائي: بيروت ـ دار المحجة البيضاء، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ.

٣١ـ روضات الجنات ـ محمد باقر الخوانساري: إيران ١٣٠٦هـ.

٣٢ـ الرسالة الخراسانية ـ الشيخ محمد أبي خمسين: بيروت ـ دار المحجة البيضاء، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ.

٣٣ـ الرؤية الكونية التوحيدية ـ الشهيد مرتضى مطهري: طهران ـ علامه طباطبائي، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ.

٣٤ـ السير إلى الله ـ الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي: بيروت ـ دار الولاء: الطبعة الثانية ١٤٣٠هـ.

٣٥ـ شرح المشاعر ـ الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي: بيروت ـ مؤسسة البلاغ، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ.

٣٦ـ شرح نهج البلاغة ـ عز الدين أبو حامد بن هبة الله بن محمد بن أبي الحديد المعتزلي: بيروت ـ دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية ١٣٨٥هـ.

٣٧ـ شرح الزيارة الجامعة الكبيرة ـ الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي: كرمان ـ مطبعة السعادة، الطبعة الأولى.

٣٨ـ شرح العرشية ـ الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي: بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ.

٣٩ـ شرح آية الكرسي ـ السيد كاظم الرشتي: بيروت ـ دار المحجة البيضاء، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ.

٤٠ـ شرح الفوائد ـ الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي: بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ.

٤١ـ شرح إحقاق الحق ـ السيد نور الله المرعشي: قم ـ مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي.

٤٢ـ شرح حياة الأرواح ـ الميرزا حسن كَوهر: تبريز، الطبعة الأولى ١٣٧٦هـ.

٤٣ـ شرح الخطبة التطنجية ـ السيد كاظم الرشتي الحسيني: جامع الإمام الصادق، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ.

٤٤ـ صحيفة الأبرار في مناقب الأطهار ـ الميرزا محمد تقي بن الميرزا محمد المامقاني الشهير بـ(حجة الإسلام): بيروت ـ دار الجليل ١٤١٤هـ.

٤٥ـ الصحيفة السجادية ـ الإمام علي بن الحسين السجاد عليه السلام.

٤٦ـ عيون أخبار الرضا عليه السلام - الشيخ أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي الشهير بـ(الصدوق): بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.

٤٧ـ عقيدتنا ـ الشيخ عبد الله نعمة: مؤسسة عز الدين، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.

٤٨ـ علل الشرائع ـ الشيخ أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي الشهير بـ(الصدوق): بيروت، مؤسسة الأعلمي، الطبعة الأولى.

٤٩ـ علم المحجة ـ الميرزا محمد حسين المامقاني: بيروت ـ لجنة إحياء تراث مدرسة الشيخ الأوحد، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م.

٥٠ـ عوالي اللآلي ـ الشيخ محمد بن علي بن إبراهيم بن أبي جمهور الأحسائي: قم المقدسة ـ دار سيد الشهداء، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

٥١ـ العرفان والسلوك ـ الملا محمد محسن الفيض الكاشاني: بيروت ـ دار الصفوة، الطبعة الأولى ١٤٣٢هـ.

٥٢ـ العرفان الإسلامي ـ السيد محمد تقي المدرسي: بيروت ـ دار البيان العربي، الطبعة الثالثة ١٤١٢هـ.

٥٣ـ العرفان الشيعي ـ السيد كمال الحيدري.

٥٤ـ العرفان ألم استنارة ويقظة موت ـ شفيق جرادي: دار المعارف الحكمية، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ.

٥٥ـ العقيدة من خلال الفطرة في القرآن ـ آية الله جوادي آملي: دارة الصفوة، ١٤٢٩هـ.

٥٦ـ الغدير ـ عبد الحسين أحمد الأميني النجفي: بيروت ـ دار الكتاب العربي، الطبعة الرابعة ١٣٧٩هـ.

٥٧ـ فقه الرضا عليه السلام - الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام.

٥٨ـ فلاسفة الشيعة ـ الشيخ عبد الله نعمة: بيروت ـ دار الفكر اللبناني، الطبعة الأولى ١٩٨٧م.

٥٩ـ فصوص الحكم ـ محي الدين محمد بن علي بن محمد بن عربي الحاتمي الطائي الأندلسي ـ شرح / القاشاني: مصر ـ مكتبة مصطفى البابي، الطبعة الثانية ١٣٨٦هـ.

٦٠ـ الفتوحات المكية ـ محي الدين محمد بن علي بن محمد بن عربي الحاتمي الطائي الأندلسي ـ تحقيق/ عثمان يحيى: القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ.

٦١ـ في محراب الشيخ محمد بن الشيخ حسين آل أبي خمسين ـ الشيخ موسى الهادي: دار المحسن، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

٦٢ـ القاموس المحيط ـ الفيروز آبادي.

٦٣ـ كنز الفؤاد ـ أبو الفتح محمد بن علي بن عثمان الكراجكي الطرابلسي: قم المقدسة ـ دار الذخائر، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.

٦٤ـ كنز العمال ـ علاء الدين علي المتقي الهندي: مؤسسة الرسالة ١٤٠٩هـ.

٦٥ـ الكلام والعرفان في الحكمة العملية ـ مرتضى مطهري: قم المقدسة ـ دار الكتاب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٢٤١هـ.

٦٦ـ الكافي ـ الشيخ أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني: بيروت ـ دار الأضواء ١٤٠٥هـ.

٦٧ـ لسان العرب ـ ابن منظور: قم ـ أدب الحوزة، ١٤٠٥هـ.

٦٨ـ مصباح الكفعمي ـ الشيخ تقي الدين إبراهيم بن علي بن الحسن بن محمد العاملي الكفعمي: بيروت ـ مؤسسة الأعلمي، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

٦٩ـ مصباح المتهجد ـ الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي: بيروت ـ مؤسسة الأعلمي، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

٧٠ـ مختصر البصائر ـ الشيخ عز الدين الحسن بن سليمان الحلي: قم المقدسة ـ مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ.

٧١ـ معاني الأخبار ـ الشيخ أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي الشهير بـ(الصدوق): قم المقدسة ـ مؤسسة النشر الإسلامي ١٤٠٣هـ.

٧٢ـ مستدرك الوسائل ـ الميرزا حسن النوري الطبرسي: قم المقدسة ـ مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

٧٣ـ من لا يحضره الفقيه ـ أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي، الشهير بالشيخ (الصدوق): قم المقدسة ـ مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ.

٧٤ـ من العلم العلماني إلى العلم الديني ـ مهدي كَلشي: بيروت ـ دار الهادي، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ.

٧٥ـ مستدرك سفينة البحار ـ الشيخ علي النمازي الشهرودي: قم المقدسة ـ مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.

٧٦ـ مجمع البيان ـ أمين الإسلام أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي: بيروت ـ مؤسسة الأعلمي، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

٧٧ـ مجموعة الرسائل ـ الشيخ لطف الله الصافي: مؤسسة الإمام المهدي.

٧٨ـ مشارق أنوار اليقين ـ الحافظ رجب البرسي: بيروت ـ مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.

٧٩ـ مفاتيح الأنوار في بيان معرفة مصابيح الأسرار ـ الشيخ محمد آل أبي خمسين: بيروت ـ دار المحجة البيضاء، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ.

٨٠ـ معجم مقاييس اللغة ـ أحمد بن فارس بن زكريا: القاهري ـ دار أحياء الكتب العربية ١٣٦٦هـ.

٨١ـ مفردات ألفاظ القرآن الكريم ـ الراغب الأصفهاني: بيروت ـ دار القلم والدار الشامية، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

٨٢ـ مرآة العقول ـ الشيخ محمد باقر المجلسي: دار الكتب الإسلامية، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ.

٨٣ ـ مفاتيح الجنان ـ الشيخ عباس القمي.

٨٤ ـ الميزان في تفسير القرآن ـ السيد محمد حسين الطباطبائي: قم المقدسة ـ جماعة المدرسين في الحوزة العلمية.

٨٥ ـ المعجم الوسيط ـ مجمع اللغة العربية: اسطنبول دار الدعوة ١٩٨٩م.

٨٦ ـ المخازن ـ الميرزا حسن الشهير بكوهر: بيروت، الطبعة الثانية ١٤٢٧هـ.

٨٧ ـ المقدمة ـ ابن خلدون: بيروت ـ دار القلم، الطبعة الأولى ١٣٧٩هـ.

٨٨ ـ المنهجيات المعاصرة للمباحث العقلية عند الشيعة الإمامية ـ فالح حسن جبار: مكتبة الروضة الحيدرية ١٤٣٢هـ.

٨٩ ـ المنطق ـ العلامة محمد رضا المظفر: بيروت ـ دار التعارف١٤١٤هـ.

٩٠ ـ نهج البلاغة ـ الشريف الرضي: قم المقدسة ـ دار الأسوة، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

٩١ ـ نقد أرسطو للفلسفة الطبيعية قبل سقراط ـ عبدالجليل كاظم الوالي: دار الورق للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦ م.

٩٢ ـ نور البراهين في أخبار السادة الطاهرين ـ السيد نعمة الله الموسوي الجزائري: قم المقدسة ـ مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

٩٣ـ نظرية المعرفة ـ الشيخ جعفر السبحاني: بيروت ـ الدار الإسلامية ١٩٩٠م.

٩٤ـ النور المضي في معرفة الكنز الخفي ـ الشيخ محمد آل أبي خمسين: بيروت ـ دار المحجة البيضاء.

٩٥ـ الهدف السامي للحياة الإنسانية ـ الشهيد مطهري: الكويت ـ مكتبة سفينة النجاة، بدون تاريخ.

٩٦ـ وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة: محمد بن الحسن الحر العاملي: قم المقدسة ـ مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

٩٧ـ وفيات الأعيان ـ ابن خلكان: قم المقدسة ـ مؤسسة الشريف الرضي ١٣٦٤هـ.

الفهرس

الإهداء ٥
تقديم الشيخ عبدالمنعم العمران..... ٧
تقديم الشيخ حسين المطوع ١٥
مقدمة المؤلف ١٩
مختصر سيرة الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي (أعلى الله مقامه). ٢٩
أولاً: سيرته بخط قلمه الشريف ٣٢
ثانياً: سيرته العلمية ٤٧
الرؤية الكونية ٦١
علم العقيدة قُنِّنَ لكمال الإنسان ٧٥
تعريف العقيدة الدينية ٨٥
العقيدة تكليف وجودي ٩٧
فطرة العقيدة وحججها ١٠٩
أعلى مراتب الكمال الإنساني ١٢١
السلسلة الطولية ١٢٤

السلسلة العرضية ١٥١
الحب الإلهي معيار الكمال ١٥٧
الأول: معرفة النفس ١٦٠
الثاني: الأدلة النقلية ١٩٠
الثالث: العمل ١٩١
كمال العقيدة معرفتهم بالنورانية ١٩٩
أولاً: معرفة الله ﷻ معرفتهم عليهم السلام بالنورانية ٢٠٣
ثانياً: معنى الولاية والتفويض لآل محمد عليهم السلام ٢١٣
ثالثاً: آل محمد عليهم السلام العلل الأربع للموجودات ٢٣٢
المصادر والمراجع ٢٣٩
الفهرس ٢٥٣